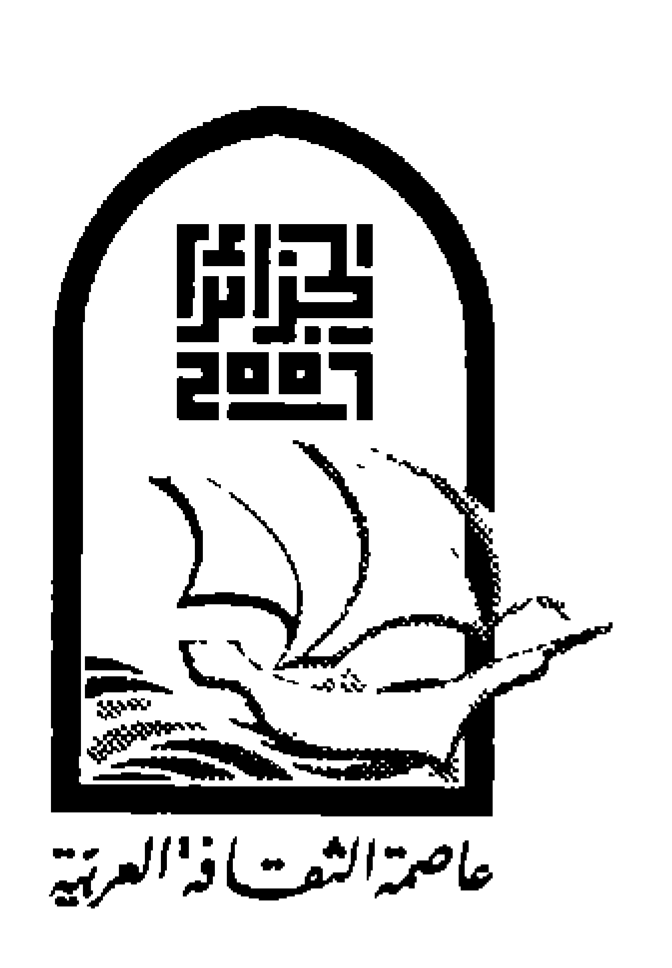
تاريخ ملوك البربر
في الجزائر القديمة

أحمد السليماني

تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة



دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

تدمك : 1– 615– 64 – 9961 – 978
الإيداع القانوني 2888– 2006

طليعة الكتاب

عندما بدأت عملي كأستاذ التاريخ القديم في بداية الثمانينيات بجامعة الجزائر كان يحدوني رغبة ملحة من أجل الكتابة عن ملوك البربر القدماء ولاسيما أشهرهم وهم سيفاكس، وماسينيسا، ويوغرطة، ويوبا الأول، ويوبا الثاني، وتمرّ السنين وتحقق حلمي هذا بنشر مقالات في جرائد وطنية حول الحروب عبر التاريخ في جريدة المساء اليومية حيث عرجت فيها على المقاومة الوطنية في القديم، وكتبت عن يوغرطة وماسينيسا وشبهت مقاومة الملك يوغرطة بمقاومة الأمير عبد القادر لأن كلاهما قاوما مستعمرا محتلا لأرض نوميديا، ونشرت بعد ذلك كتابا حول ماسينسا ويوغرطة في ديوان المطبوعات الجامعية (3000) نسخة فعرف رواجا وإنتهت الطبعة الأولى بسرعة وكان الطلب عليه قويا في الجامعة، ونشرته ثانية مطبعة دحلب بالفرنسية فنفذت الطبعة الثانية بسرعة مذهلة أدهشتني فعلا. وهكذا رأيت فيما بعد أن أنشر كتابا يخص مشاهير ملوك الجزائر القدماء وهذا ما فعلته في هذه الطبعة الجديدة مع دار القصبة التي وجدتها خير معين في تحقيق هذا العمل حيث شجعني صديقي في الأستاذية بالجامعة السيد د. مصطفى ماضي الذي فتح الأبواب على مصراعيها لنشر هذا العمل المتعلق بملوك البربر في الجزائر القديمة، والذي يكشف الغطاء وينفض الغبار على ملوك جزائريين قدماء كانوا من المنسيين في التاريخ الجزائري المكتوب بأقلام مؤرخين جزائريين ويا

أسفاه، ولكن كتابة التاريخ الوطني هي بمثابة عملية مستمرة تهدف إلى تصحيح التاريخ القديم من الأخطاء المقصودة في بعض الأحيان من طرف المؤرخين الغربيين قديما وحديثا والسلام.

أحمد السليماني
أستاذ الحضارات القديمة
بجامعة الجزائر
الجزائر في 2006/03/28

الفصل الأول

كتابة التاريخ الوطني ومصادره

كتابة التاريخ الوطني، تاريخ الجزائر القديم نمودجا

لي خاطرة خطرت في بالي وأنا في بداية تحرير هذه الدراسة المتعلقة بتاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة وهي مقولة تاريخية أصبحت بمثابة مثل سائر حول تشابه الأحداث التاريخية عبر الزمن، حيث قال المؤرخ الإغريقي توكديديس: إن التاريخ يعيد نفسه، وعندما تتمعن جيدا في معنى المقولة هذه نجدها تنطبق كثيرا على أحداث التاريخ الوطني المتشابه في النتائج والعبر ولنا مشاهد تاريخية من تاريخ الجزائر القديم والحديث، فمقاومة سيفاكس ويوغرطة للإستعمار الروماني ودفاعهما عن الوحدة الترابية لنوميديا القديمة (وهي الجزائر القديمة) ومقاومة الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين كل ذلك يعد امتدادا للمقاومة الجزائرية عبر التاريخ الرافضة للهيمنة الاستعمارية ويجعلنا نؤمن بصحة وصدق المقولة التاريخية الإغريقية. وأعتقد أنه توجد وحدة مصير ووحدة تاريخ للأمة الجزائرية عبر الزمن مثلما هو الأمر قائم عند الأمة المصرية ذات الجذور الفرعونية والسامية والإسلامية والعربية، أو الأمة الألمانية ذات الجذور الآرية.

إشكالية كتابة التاريخ الوطني

حديثي عن كتابة التاريخ الجزائري حديث متشعب وشائك ويطرح إشكالية هامة، وهي تدعونا إلى التساؤل ما هي روافد هذا التاريخ؟وما هي المساهمة

التاريخية لأبناء هذا الوطن العزيز من أجل كتابة التاريخ الوطني القديم بأقلام جزائرية؟

وهل نستطيع أن نعتبر ما كتبه المؤرخون الجزائريون المختصون في العهود القديمة بمثابة لبنة أو أساس نبني عليه بنيان أو بنية مدرسة تاريخية جزائرية في العهد القديم ...؟

الرد على ذلك يكمن في أني أعتقد أن ما كتبه إلى اليوم جمهور المؤرخين الجزائريين أو معشر المؤرخين، وكذا الأثريين في تاريخ الجزائر القديم التي كانت تدعى بلاد نوميديا، يعد عملا تاريخيا ذات قيمة تاريخية معتبرة وهناك دراسات أثرية من النوع الرفيع ولكنها أقل قيمة من أعمال الأثريين الفرنسيين الذين كتبوا ودرسوا ما قبل التاريخ الجزائري القديم وهي قولة حق فالأثريون الجزائريون لم يصلوا إلى مرتبة علماء الآثار الفرنسيين أو الأمريكيين أو الألمان في ميدان ا لبحث ورصد وتنقيب المعالم التاريخية والأثرية القديمة فهناك جهد مبذول محتشم لا يصل إلى مرتبة البحوث الأثرية العالمية مع الأسف ويمكن أن نستثني أعمال د. منير بوشناقي الذي أبلى بلاء حسنا في ميدان البحث الأثري البوني (أي القرطاجي) في السواحل الجزائرية بتيبازة وغيرها وإستعمل الغوص الأثري في اكتشاف آثار بونية نشرها في مقالات بمجلات مختصة كمجلة التاريخ مثلا.

وهناك دراسات أثرية حول المدن الجزائرية القديمة مثل قيرتا، وتيبازة، وتيذيس، وقالمة، ومداورش، وهيبون، وكويكول، وتيمقاد، ولنا أمثلة على الكتابة الوطنية بأقلام جزائرية منها مساهمات المؤرخين والأثريين الجزائريين وهي مفيدة وذات منفعة علمية وفي بعض الأحيان نجد أن هناك دراسات تاريخية لا تصل إلى المستوى العلمي يغلب عليها الحشو والعاطفة والإرتجالية والبكاء على الأطلال الذي لا يفيد شيئا في كتابة التاريخ.

وهناك مؤرخون جزائريون يشهد لهم بالدقة العلمية وعمق التصور ونقل الأحداث بكل أمانة ورزانة منهم على سبيل المثال الشيخ أحمد توفيق المدني رحمة الله عليه والشيخ محمد مبارك الميلي، والشيخ عبد الرحمان الجلالي ود. محمد البشير الشنيتي ود محمد الصغير غانم، ود منير بوشناقي، ود. مصطفى فلاح وهو أثري قمنا معه بحفريات في سطيفيس القديمة في بداية الثمانينيات، ود. بورحلي وهو مختص أثري له دراسات على مدينة مداورش القديمة الموجودة بالقرب من سوق أهراس، ومن المختصين في المسكوكات الجزائرية القديمة د دلوم السعيد، ولا ننسى من المؤرخين الباحثين في تاريخ الجزائر القديم السيدة لويزة آيت اعمارة أستاذة التاريخ القديم في جامعة الجزائر، والأستاذ محمد الهادي حارش والسيدة الباحثة كلثوم قيطوني وهي مختصة في الآثار البونية، وهي مديرة متحف سيرتا بقسنطينة ولها ثقافة تاريخية في مجال اختصاصها تمتاز بالغزارة والدقة العلمية والشمولية، وفي هذه المدينة الوديعة لدينا مختص في النقوش البونية والبونية الجديدة أي لغة قرطاجة القديمة في عصرها المزدهر ثم المتأخر وهو السيد محمد الصغير غانم الذي يجيد قراءة النقوش المكتوبة باللغة القرطاجية الموجودة في معبد الحفرة بقسنطينة.

ولدينا العالم د محمد حسين فنطر من تونس وهو من كبار المختصين في اللغة والتراث البوني القرطاجي على مستوى العالم العربي قاطبة، ولا ننسى دور الباحثات الجزائريات المساهمات في البحث حول التاريخ الوطني القديم منهن الباحثة الأستاذة سعدية سرقين زميلتنا في مهنة الأستاذية بجامعة الجزائر، وسبق لها تدريس اللغة اللاتينية في شعبة التاريخ القديم، وقامت معي بحفريات أثرية في سطيفيس القديمة مع د. فلاح ود. بور حلي وذلك إبان مطلع الثمانينيات. ولا أنسى السيدة شافية شارن التي أولت اهتماما خاصا بتاريخ الجزائر القديم والسيدة شايد المختصة فيما قبل التاريخ والأستاذ رميلي مختص فيما قبل التاريخ وكل هؤلاء مختصون في تاريخ الجزائر القديم،

وهناك صنف آخر كتبوا في التاريخ الجزائري العام شمل مختلف عصوره منهم الشيخ أحمد توفيق المدني والشيخ الميلي. ومما يجب ذكره أن المختصين الذين تخرجوا من جامعة الجزائر بعد إستقلال البلاد، كانت دراستهم في التاريخ القديم أكثر دقة وغزارة، وساروا على المنهج العلمي في البحث التاريخي من ناحية المصادر والمراجع والتوثيق والهوامش ... إلخ، ودرسوا المصادر والمراجع الغربية واللاتينية والبونية والمقصود القرطاجية بشكل دقيق وموضوعي أحسن بكثير في بعض الأحيان مما كتبه أحمد توفيق المدني، ومحمد مبارك الميلي، وعلي دبوز، وعبد الرحمان الجيلالي وغيرهم الذين كتبوا في هذه الحقبة القديمة وساعد الجيل الجديد من المؤرخين في شمولية بحوثهم معرفتهم باللغة الفرنسية نطقا وكتابة وتمكنهم من اللغة اللاتينية أو البونية وهذا لم يكن في متناول جيل جمعية العلماء من المؤرخين مع الأسف، علاوة على أن هؤلاء كانت كتابتهم في هذه الحقبة القديمة مستعجلة وسريعة وغير دقيقة أحيانا في معالجة الأحداث القديمة فالملك سيفاكس عليه دراسة مختصرة جدا في كتاب التاريخ لعبد الرحمان الجيلالي وعند الميلي، وهذا يعود إلى التوثيق السطحي والعابر عند الشيوخ حول هذا الملك المغوار الذي جعل من سيغا وسيرتا عاصمتان ملكيتان، ومع هذا فإن الشيخ المدني والشيخ الميلي قدما نظرة جديدة لتاريخ الجزائر مغايرة للنظرة الاستعمارية حول هويتنا الجزائرية وعمق التاريخ الحضاري القديم لوطننا العزيز الذي عرف سيادة وطنية منذ القديم، فتاريخ الجزائر يعتبر كيانا وطنيا متكاملا في مختلف العصور وعمل الشيوخ بتعميق الوعي بالذات لدى النشئ والجيل الصاعد حيث غرسوا فيهم روح الوطنية والإنتماء إلى الجزائر وهي نظرات مغايرة للتيارات الإستعمارية قلبا وقالبا، حيث حاول المؤرخون الفرنسيون طمس معالم السيادة الجزائرية، وكأنه لم يكن هناك شعب جزائري في نوميديا القديمة، فرغم نقدي لأعمال الشيوخ المدني، والميلي، والجيلالي فهذا لا يعني نكران أثرهم في تقديم تصور تاريخي جديد حول الجزائر

القديمة لجمهور المثقفين في الجزائر والقراء الكرام المتعطشين للمعرفة التاريخية.

إن هناك بعض المشارب والتصورات الإستعمارية تعارض تفسير التاريخ الجزائري تفسيرا وطنيا أمينا، فالمدرسة التاريخية الفرنسية لها بعض المؤرخين والأثريين من كتبوا تاريخ الجزائري القديم بنظرة محايدة على العموم مثل جلبير بيكار، وسانتاس وكامبس وجون فيفريي، وهناك بعض المؤرخين الفرنسيين من قاموا بانزلاق خطير وكتبوا أباطيل تاريخية عنا، فما معنى تسليط الأضواء على بعض الجوانب التي تثير الإستغراب، فالمؤرخ كوتيي إستعمل عنوانا غريبا لكتاب تاريخي اختار له عنوان التاريخ المظلم لإفريقيا الشمالية، ويتطاول ويقدم نقدا غريبا وغير صحيح حول الجنس البشري الجزائري وأهالي بلدان المغرب القديم، فيقول أن تشكيلة المخ لدى البربري صغيرة فهذا هو السبب الذي جعل الأوربي أكثر ذكاء من البربري، لأن الأوروبي مخه أكبر حجما، وقد كتب ذلك بصريح العبارة في كتابه وهي مرفوضة جملة وتفصيلا لأن لنا عباقرة في الطاقة النووية والمعلوماتية يستفيد منها العالم الغربي من الجزائر. وعلاوة على ذلك ما معنى تقديم أبحاث منفصلة عن الطريقة الصوفية في المجلة الإفريقية التي كانت مرتعا للكتابة التاريخية للمؤرخين الفرنسيين، وهذه المجلة لها جوانب إيجابية فقد خدمت تطور بحوث آثار وتاريخ الجزائر فعرفتنا على أمور تخص المدن الأثرية والتاريخية كنا نجهلها من قبل وكان يكتب فيها مختصون فرنسيون وجزائريون خريجو جامعة الجزائر في العهد الفرنسي في شمال إفريقيا. قدمت في المجلة الإفريقية أبحاث عن الصوفية التي تتسم أفكارها بالدجل والدروشة والشعوذة. ولا تبحث المجلة مع الأسف في زعماء الفكر الجزائري الإصلاحي النير الذين ساهموا في تنوير الفكر الجزائري كأقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين حاربوا البدع والطرقية، ومع هذا فإن المجلة الأفريقية ومن حسن الطالع كما يقال فقد كتب فيها العالم الجزائري الكبير الأديب محمد بن شنب وأصله من المدية في ثلاثة أعداد منها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية

القرن العشرين. وفي عام 1926، حيث تطرق في مقالته إلى تربية الصبيان عند المسلمين من خلال قراءاته للفقهاء المسلمين مثل الشيخ الغزالي صاحب المنقذ من الضلال، والقاضي البيضاوي وهو فقيه مغربي عاش في القرن الثامن عشر بالمملكة المغربية.

وسوف أتعرض إلى الدكتور بن شنب هذا في مقالة خاصة به في وقت لاحق إن شاء الله لأنه كتب في التاريخ القديم، وأصل الجنس السامي وتاريخ البربر فالمجلة الأفريقية كانت بمثابة مجلة مفتوحة على تاريخ الجزائر بمختلف عصوره، وهناك مآخذ أشرتُ إليها فمحاسنها أكثر من مضارها على العموم، وهي شهادة حق أقولها.

مساهمات المؤرخين الجزائريين في تاريخ الجزائر القديم

إذا عدنا إلى تاريخ الجزائر القديم يخطر في بالي دراسات كتبها محمد البشير الشنيتي وهو مؤرخ جزائري معاصر وأستاذ التاريخ القديم في جامعة الجزائر وعميد كلية سابقا، وكتب في التاريخ القديم لنوميديا وهو يعد مرتعا خصبا إستغلته المدرسة التاريخية الفرنسية للكتابة فيه حسب منحى معين وركزت على الحقبة الرومانية أكثر من أي حقبة أخرى وكأنها عصور ذهبية وهذا صحيح من ناحية الإشعاع الفكري والحضاري ولكن لم يكن قائما بصفة دائمة. إن ما كتبه السيد محمد الشنيتي يعد مفخرة فعلا في تاريخ الجزائر القديم، فهناك ما كتبه بمثابة مكاشفة على معاناة الجماهير الشعبية والفقراء النوميدين في القديم على يد الطغاة الرومان بعد احتلالهم لشمال أفريقيا. ويمكن أن نجد ذلك في كتابه "التغيرات الاقتصادية والاجتماعية بعد الاحتلال الروماني لبلاد المغرب" (طبعة 1984 بالجزائر)، فهو يبين كيف كان يعاني أهالي المغرب العربي جراء الجور والظلم الاجتماعي المتسلط عليه من قبل أثرياء الرومان، وكيف كان يقاسي المواطن الجزائري القديم من أجل الحصول على حقوقه، وكذلك على حق المواطنة. ثم يذكر لنا التطورات الاجتماعية

والدينية وأثر دخول اليهودية والمسيحية إلى بلاد المغرب القديم بما في ذلك الجزائر القديمة وهي نوميديا على الخصوص، وما تبع ذلك من تبني القياصرة في روما للديانة المسيحية وكيف أصبح مجتمع قرطاجة تابعا للامبراطور الروماني حيث أصبحت الديانة المسيحية تسير على حسب أهواء ونزوات الحكام الرومان فظهرت الدوناتية كثورة ورد فعل قام بها المستضعفون النوميديون الذين رفضوا هيمنة الكنيسة الكاثوليكية والتي كانت تسير على حسب أوامر أمبراطور روماني، وقامت معارضة لمجمع القرطاجي الذي عقد من أجل ترسيخ مبادئ الكنيسة المسيحية المناوئة الدوناتية كثورة مذهبية ومسار تحرري في الكنيسة المسيحية.

وجرى هذا في بداية القرن الرابع الميلادي، حيث كان المجمع القرطاجي يسيطر عليه سياسيا ودينيا الإمبراطور الموجود في روما، فالدوناتية كما يرى د. الشنتيني هي بمثابة ثورة وطنية نوميدية قادها الفقراء والمستضعفون النوميديون ضد الأقلية المسيطرة في الكنيسة والسلطة الرومانية، ويرى د. الشنيتي أن هناك تناقضا طبقيا ما بين النوميديين والطبقة الحاكمة ومعها أصحاب المصالح من الأثرياء الرومان الذين كانوا يكيدون مكائد جمة وشتى ضد الأهالي المعدومين في الريف والمدينة، وعلى كل حال يمكن أن يعتبر هذا الكتاب بمثابة دراسة وكتابة تاريخية وطنية وافية تخصّ الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع النوميدي في مواجهة المحتلين الرومان الذين سيطروا على خيرات البلاد والعباد في فائدة أقلية مسيطرة جاءت من روما لتعيش في أرض نوميديا القديمة حياة رغيدة وسعيدة.

ويعد د. الشنيتي مقياسا للعمق في دراسة الأحداث التاريخية وهو أحد دعائم المدرسة التاريخية الجزائرية فهو ينقد الأحداث التاريخية، ويفسر التاريخ القديم وحركة التاريخ تفسيرا ماديا على أساس التناقض الطبقي الذي كان موجودا في المجتمع النوميدي والمغربي على العموم.

فهناك واقع اجتماعي متناقض مع المصالح الخاصة للبرجوازية الرومانية وهذا لا يعني أنه تبنى المفهوم الماركسي في تحليل التاريخ وإنما استعمل القوانين المادية ووظفها في تحليل الأحداث. وعندما نقوم بتقسيم عام للكتابة التاريخية في الجزائر القديمة، نجد المؤرخين الجزائريين الذين كتبوا في العصور القديمة باللغة العربية قد أبلوا بلاء حسنا في هذا الميدان، وهذا بفضل تعريب الدراسات التاريخية في جامعة الجزائر. فأغلب الأطروحات والمذكرات الجامعية التي نوقشت في التاريخ والآثار قدمت باللغة العربية في معهد التاريخ بالجزائر وقسنطينة ووهران علاوة على مساهمة معهد الآثار.

وإذا ما قارنا بين ما كتب حتى الآن باللغة العربية في ميدان الكتابة التاريخية وما كتب باللغة الفرنسية في الجزائر ما بعد الاستقلال، نجد أن العربية كان لها السبق وأصبحت تحتل المقدمة والسبق على ما كتب في التاريخ بالفرنسية في ميدان الكتابة التاريخية، لأن جل الدراسات حررت باللغة العربية، ويمكن أن نستثني من ذلك ما قام به مركز الأبحاث لما قبل التاريخ الموجود في متحف باردو، الذي بقيَ متمسكا بالفرنسية، وقد يبرر أصحاب المركز إستعمال الفرنسية إلى وجود أجانب قاموا بحفريات مشتركة مع الجزائريين، ولكنه كان من الواجب ترجمة أعمال وكتابات وأبحاث مركز ما قبل التاريخ إلى اللغة العربية، لتبليغ الرسالة التاريخية والرصيد التاريخي المكتوب إلى قطاع أوسع في الجزائر والعالم العربي، أو بالأحرى كان من باب اللزوم تكوين قسم مزدوج عربي فرنسي لتحرير الدراسات التاريخية في المركز الآنف ذكره.

وهناك مقالات وأبحاث تاريخية بأقلام جزائرية موجودة في المجلة الإفريقية ومجلة ليبيكا ومجلة التاريخ الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر ومجلة التراث الصادرة في باتنة ومجلة سيرتا الصادرة في قسنطينة ومجلة الثقافة لوزارة الثقافة والاتصال، ومجلة دراسات تاريخية لمعهد التاريخ بجامعة الجزائر، وهذه الأخيرة حجبت عن الصدور ولا ندري ما هو السبب مع الأسف، لأنها كانت مرآة صادقة عن واقع الكتابة التاريخية في الجزائر.

ولا ننسى ما كتب من مقالات تاريخية نشرت في الجرائد الوطنية ذائعة الصيت تخص تاريخ الجزائر القديم منها ما نشر في جريدة الشعب وجريدة المساء، وجريدة الجمهورية بوهران، وجريدة النصر بقسنطينة وجريدة الخبر والمجاهد اليومية وجريدة الوطن اليومية.

فيجب وضع جرد لهذه المقالات المنشورة بأقلام جزائرية في الجرائد الجزائرية علاوة على ما كتب في حوليات جامعة الجزائر، وحوليات إفريقيا الشمالية بإيكس أوبروفانس بفرنسا، وغيرها من حوليات أجنبية. وهكذا نستطيع أن نحصل على تصور كامل حول مجمل الكتابة التاريخية عن الجزائر العتيقة ولا بد من نفض الغبار على الكتابة الوطنية للتاريخ عن طريق الجمع الكلي والتصنيف لكل ما كتب سواء أكان مطبوعا أو لا بحيث لابد من رصد وجرد كل البحوث التاريخية والأثرية والمؤلفات المنشورة في هذا الشأن والتي تخص تاريخ الجزائر القديم، ويمكن أن نسخر الإعلام الآلي في هذا الميدان، حيث يستطيع أن يقدم لنا معلومات مفيدة جدّاً حول عدد الأطروحات الموجودة في الجامعات الجزائرية والعربية والعالمية التي كتبتها المؤرخون والباحثون الجزائريون بالعربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية والروسية.

وفي الأخير يمكن أن نستغل برامج الأنترنيت لتوظيفه في الحصول على المادة التاريخية الكاملة الخاصة بتاريخ الجزائر القديم المكتوب بأقلام جزائرية، مع العلم أن وسائل الاتصال والإعلام الحديثة التي تقدم المعلومات عن طريق الأقمار الصناعية يمكن أن نجني منها ثمارا مفيدة تخدم آمالنا في بناء صرح مدرسة تاريخية في الجزائر القديمة.

ويجب أن تقوم الدولة الجزائرية بتشجيع المؤرخين ماديا ومعنويا وتعمل على طبع الكتب التاريخية التي تعالج قضايا تاريخية تخص تاريخ الجزائر في مختلف العصور لتعميق الوعي الوطني الجزائري ولمراكز البحث التابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي دور ريادي في تطوير ونهضة الدراسات التاريخية كمركز الحركة الوطنية، ولا أوافق أن تنحصر الحركة الوطنية ابتداءا من 1830

إلى 1962، بل يجب أن تشمل الحركة الوطنية إبان الممالك الوطنية في القديم، إبان عهد سيفاكي ويوغورطة ...إلخ. إن الجزائر نكن لها حبا نابغا من صميم الفؤاد رغم الأعاصير التي تهزه بين الحين والآخر، ولكنها لن تدوم.

الآثار الجزائرية

دور علماء الآثار في التعريف بالمدن الأثرية الجزائرية ودراستها:

كما هو معلوم أن التعريف بآثار المدن الجزائرية القديمة يعود فيه الفضل إلى حفريات وتنقيبات علماء الآثار الفرنسيين الذين ساهموا مساهمة كبيرة في نفض الغبار وتسليط الأضواء على ماضي هذه المدن القديمة.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نقدر ما كتبه وأنتجه العالم الفرنسي ستيفان قزال صاحب كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية القديم في ثماني مجلدات، الذي ألّفه في بداية القرن العشرين أي في 1918، وكان مؤلفه هذا نتيجة أبحاث ميدانية، ودراسات جادة حول تاريخ البلدان أو الأقطار المغربية (الجزائر وتونس والمغرب الأقصى)، وستيفان قزال ولد بباريز خلال شهر فيفري 1864، وهو خريج دار المعلمين بباريس، وحصل على التبريز في التاريخ بحلول عام 1886، وشارك في دراسات علمية بالمدرسة الفرنسية في روما وقدم أبحاثا عملية أثرية منها حفريات حول المقبرة الأتروسكية بفالسي وحصل على دكتوراه في الآداب عام 1894 وقام ستيفان قزال بتأليفه أطلس أثري للجزائر وأنجز هذا العمل خلال عشرية من الأعوام ما بين 1901-1911

ويعد هذا الكتاب قاعدة لكل بحث أثري في الجزائر. وهو يتكون من خمسين خريطة للمواقع الخاصة بالمدن البونية والرومانية والبربرية والإسلامية الموجودة في غالب المدن الجزائرية "القديمة" الواقعة في شمال البلاد الجزائرية " ويوجد في كتابه الأطلس الأثري للجزائر 510 صفحة خاصة بالتعليقات، وفي 1922 نشر قزال كتابا حول النقوش اللاتينية في الجزائر، وقد وافته المنية في جانفي 1932 ومن مآخذ كتاب الأطلس الأثري

أنه لم يبحث في الآثار القديمة الموجودة في الصحراء الجزائرية حيث جاء مؤرخون وأثريون فرنسيون في وقت لاحق فسدّوا هذا النقص الملحوظ.

وكما لا يخفى على أحد أن المؤرخين الجزائريين لم يكتبوا كثيرا حول تاريخ الصحراء الجزائرية في العصور التاريخية، وهي تمثل العمق الاستراتيجي والقوة الاقتصادية للبلاد الجزائرية في وقتنا الحاضر، كان للصحراء تاريخ مفعم بالتطور الحضاري والتغيير الجيولوجي منذ غابر العصور إلى وقتنا الحاضر. وإهتم الغربيون بالصحراء فقام المستكشفون والرواد الأوربيون بالكتابة عن الصحراء الجزائرية بعد زيارات متتابعة لها بحثا عن المجهول ولرفع الإلتباس حول المواقع الجغرافية والجيولوجية والأثرية ومن هؤلاء المستكشف الإنجليزي هنري بارث الذي زار في القرن التاسع عشر طرابلس وآير ، جبال تاسلي آجر، وجعل كقدوة له في زيارته هذه ثلاثة كتب وهي القرآن الكريم والعهد القديم عن التوراة، وتاريخ هيرودوت، وقام المستكشف الفرنسي شارل دوفوكو الراهب برحلة إستكشافية إلى المغرب الأقصى في 1883-1884 وإن المعلومات التي جمعها أثناء رحلته كانت بمثابة دليل قيم بعد ذلك بنصف قرن لقوات الإحتلال الفرنسية وزار مدن الصحراء الجزائرية الأغواط، وغرداية، والقليعة وورجلان، وتوقرت.. إلخ والجنوب التونسي وقد إستقر أخيرا في تامنراست وأقام في مرتفع ايسكريم التي يبلغ ارتفاعها 2700م، لكي يشعر بالغربة والتأمل وقام دوفوكو بدراسة لغة الطوارق التيفيناغ التي تحتوي على نسبة كبيرة من حروف قوية الشبه بالحروف الفنيقية وترك شارل دوفوكو بعد موته كتاب "نحو لغة تيفيناغ" وقاموس فرنسي طوارقي ونشر في مجلدين ويبلغ مجموع صفحاته 1450 صفحة، وترك نصوصا طوارقية مترجمة إلى الفرنسية تشكل مجلدين من الشعر والنثر الطوارقي، وعلاوة على تفرغه في البحث العلمي عن تراث الطوارق، فقد كان لشارل دوفوكو دور تبشير مسيحي في أوساط الطوارق الذين رفضوا مراميه الدينية.

وبدأ الغربيون دراساتهم للنقوش الحجرية في مطلع القرن العشرين على يد فلامون J.B.Flammand الذي أصدر كتابا عنوانه الصخور المكتوبة

les pierres écrites ويعد مرجعا حول تطور النقوش الحجرية مع خطوط ليبية مع رسوم حيوانات منها الجمل وكذا رسوم حجرية رسمت برفق. تمثل كتابات عربية بعد الفتح الاسلامي أي بعد القرن الأول الهجري.

الرسوم الصخرية في الصحراء

وجاء بعد فلامان الباحث الفرنسي برونان brenaut الذي اكتشف رسوما صخرية في منطقة تاسيلي ناجر وعلى العموم فإن الرسوم الصخرية موجودة في الجنوب الوهراني أي في منطقة التوات وبني عباس، ومنطقة تندوف بالقرب من غار جبيلات وفي جنوب الوسط الجزائري بجانب بوجمل وثنية المزاب.

وتوجد رسوم صخرية في الشرق القسنطيني بعين وقادة وكاف لمساوية أما في التاسيلي ناجر والرسوم الصخرية الكبرى التي توجد في أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جانت كموقع صفاري وجباري، وتامريت ووادي جرات ... إلخ وفي الهقار يعد مرتفع ايقدسست من أغنى الأماكن بالرسوم والنقوش وهناك مواقع أخرى بالقرب من تامنغست.

وقام العالم الفرنسي ريغاس Reggasse بتحليل مجموعة من النقوش الصخرية التي عثر عليها في تاسيلي ناجر ورتبها حسب تطور الأهالي من الناحية الزمنية بداية من مرحلة القنص والقطف إلى ممارسة نشاط الرعي ثم مرحلة غزو أقوام أجانب للصحراء. ثم لا ننسى دور أبحاث هنري لوط الذي ترأس لجنة علمية إستكشافية ودرس دراسة علمية التماسيح التي كانت مازالت موجودة في بعض الواحات الصحراوية والتي إنقرضت اليوم مع الأسف الشديد ويوجد في أيامنا هذه نموذج من هذه التماسيح التي عاصرها هنري لوط، وهو تمساح محنط في حديقة الحيوانات بحديقة التجارب بالحامة وقد رأيته بنفسي قبل سنة خلت.

وإعتمد هنري لوط في معرفته للرسوم الصخرية على مرشد طوارقي من أبناء الهقار وهو جبريل الذي أرشد لوط إلى مواقع عديدة كانت مجهولة

للباحثين الغربيين، وحدد هنري لوط الرسوم الصخرية على أن أقدمها يعود إلى 6000 سنة ق م أما أحدثها فيعود إلى 1500عام ق م.

وتوصل الباحثون الفرنسيون إلى إكتشاف جديد في الصحراء كشف الأضواء على ماضي الطوارق، ويتجلى ما عثر عليه من ضريح "تين هينان" الملكة الأسطورية التي عاشت حوالي القرن الخامس الميلادي، واكتشف ضريحها في ذروة هضبة ارتفاعها 914 م فوق ملتقى أودية تيفيرت وأباليسا والضريح هذا قريب من قرية أباليسا الواقعة على بعد 80 كلم غرب تامنغست، و الهيكل العظمي لتين هينان موجود اليوم في متحف باردو بمدينة الجزائر وشاهدته مرارا مع طلابي في قسم التاريخ وقسم الآثار في أعوام خلت.

ماهية تين هينان

اكتشفت جثة تين هينان بعثة فرنسية أمريكية تجمع موريس ريغاس الفرنسي والكونت بيرون كوهن ديبرورك الأمريكي. وتين هينان في لغة الطوارق ذات الخيام، وكانت إمرأة زعيمة في مجتمع الهقار وقد جاءت من تافيلالت على متن ناقتها برفقة خادمتها تيقامت وتعد اليوم تين هينان رمزا ثقافيا معتبرا.

وحديثنا عن تين هينان يجرنا إلى الحديث عن الطوارق الذين طبع وجودهم في الصحراء الجزائرية بطابع خاص مميز وهم رمز الأنفة والشجاعة والنخوة والعزة.

إن الطوارق يجمعهم بالعرب أصل واحد وهذا ما يفسر دخولهم في الإسلام بصفة عفوية لأنه دين الحق، وحسب ما ذكره إبن خلدون في كتابه العبر ينتمي الطوارق إلى قبائل لمتونة الذين لهم صلة قرابة مع صنهاجة الملثمين وأوربة، وهذه الجماعات كان من عادتها الترحال إنطلاقا من شواطئ المحيط الأطلسي جنوب مدينة أكادير المغربية وسيدي إفني والصحراء الغربية أي الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى الصحراء الجزائرية، ثم الصحراء الليبية.

وتاريخ الطوارق يشكو قلة المؤلفات المنشورة حولهو وهذا هو السبب الذي يجعلنا نكتب في هذا الميدان ضمن مقالات ستنشر إن شاء الله في وقت لاحق.

وعندما نعود إلى بداية البحث الأثري في الجزائر إبان حقبة الإستعمار الفرنسي فإن أول الأبحاث الأثرية الخاصة بما قبل التاريخ كانت على يد الفرنسيين مباشرة بعد إحتلال الجزائر في 1830 م وشرعوا في البحث عن الآثار الرومانية وموازاة مع ذلك قاموا بتهديم معالم الآثار الاسلامية في عدة مدن جزائرية تاريخية مثل مدينة الجزائر، القصبة، ومدينة المدية وتلمسان ووهران والقليعة والبليدة ومستغانم...إلخ وقصد الفرنسيون بهذه السياسة إيجاد همزة وصل وربط التواصل مع الإستعمار الروماني الذي احتل بلادنا في القديم.

وقام في القرن التاسع عشر أي المنتصف الثاني من القرن الماضي بأبحاث أثرية بعض هواة البحث في علم الآثار والحفريات وهم غير مختصين مثل الجنود والضباط والرحالة والمغامرين والمحامين والأطباء بدون احترام الإختصاص.

ولكن فيما بعد نجد المختصين الفرنسيين هم الذين فرضوا أنفسهم في البحث الأثري حول تاريخ وآثار المدن الجزائرية القديمة خلال الحقبة الفرنسية أي الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فظهر باحثون تركوا أبلغ الأثر في الدراسات الأثرية مثل ستيفان قزال الذي سلف ذكره وفيليب برجي الذي بحث في الآثار البونية والليبية خلال القرن الماضي، ثم جاء بعدهم ريقاس وسنتاس وفيقريي وبالو وكاركوبينو، وروبيفة، وزنيسر وشارل أندري جوليان وكل هؤلاء يمثلون نواة بل أساس المدرسة الفرنسية في البحث الأثري لتاريخ الجزائر القديم الذي يجري الاعتماد في كتابته على المصادر الكتابية والمادية الحية المتمثلة في الإكتشافات الأثرية التي توسع المعارف التاريخية وتعمق التصور للحقائق التاريخية الثابتة.

واقع البحث الأثري في الجزائر

إن الأثريين الجزائريين الذين شاركوا في البحث و التنقيب الأثري في آثار المدن الجزائرية العتيقة التي حددها ستيفان قزال في الأطلس الأثري الذي سلف ذكره يعدون على الأصابع في العهد الاستعماري وأشهر باحث وأثري جزائري على الإطلاق هو د. رشيد بورويبة الذي تتلمذ على يده علماء فرنسيين وبحث بشكل معمق في آثار دولة بني حماد في الجزائر ولاسيما أنه ساهم بدراسته حول قلعة بني حماد، ثم بعد الإستقلال الوطني نلاحظ إزدهار البحث الأثري المشترك بين جزائريين ومتعاونين فرنسيين وإيطاليين وألمان في إطار اتفاقيات مشتركة وجرى ذلك ما بين أواخر الستينيات وبداية السبعينيات حتى أواخر الثمانينيات تحت إشراف وزارة الثقافة الجزائرية.

وقد برز في تلك الفترة باحث أثري جزائري كبير هو منير بوشناقي الذي شارك في البحث والتنقيب الأثري حول الحقبة البونية في الجزائر وشارك في أعمال الغطس البحري من أجل الكشف عن بقايا آثار بونية قرطاجية وفينيقية في ساحل تيبازة وألف كتبا قيمة حول المدن القديمة والمعالم الأثرية للجزائر العتيقة وتتجلى هذه الأعمال في ما ألفه عن مدينة تيبازة باللغة الفرنسية، وله كتاب آخر حول ضريح قبر الرومية، وقد نقله إلى العربية د. عبد الحميد حاجيات. وقد عمل السيد منير بوشناقي في منظمة اليونسكو بباريس ومازال هناك إلى يومنا هذا.

وقد تطورت الحفريات الأثرية والأبحاث العلمية الميدانية التي تخص علم الإنسان وعادات وتقاليد المجتمع الجزائري عبر العصور في مركز البحث فيما قبل التاريخ والأنثربولوجيا والأتنولوجيا بمركز متحف الباردو، وهذا بفضل التعاون الوثيق بين الباحثين الجزائريين(الذين تكونوا في الجامعات الفرنسية بباريس وإيكس أو بروفانس) مع الباحثين الفرنسيين الذين وهبوا مساعدات كثيرة علمية وتقنية وفنية لتطوير البحث في تاريخ التطور الجيولوجي والأثري في الصحراء الجزائرية، ونذكر على سبيل المثال من

هؤلاء الفرنسيين الباحثة الفرنسية كلود شاملا التي نشرت في سلسلة المركز ليبيكا دراسات مهمة حول التنوع العرقي في الجزائر إعتمدنا عليها في أطروحة دكتوراه الدولة حول تاريخ العلاقات القرطاجية الليبية القديمة.

ونتج عن هذا التعاون الفرنسي الجزائري في مركز ما قبل التاريخ بمتحف باردو ظهور بعض الأسماء أو باحثين جزائريين لهم مكانتهم في ميدان البحث الأثري فيما قبل تاريخ الجزائر القديم منهم د. نور الدين سعودي، ومليكة حاشد و د. حاشي ود. بطروني والأستاذ رميلي وغيرهم.

وعندما أنشأ معهد الآثار في جامعة الجزائر تطور البحث الأثري على نطاق واسع ولم يبق حبيس مراكز محدودة مثل المركز الذي سلف ذكره و البحث العلمي يتطلب النزاهة والموضوعية.

على كل حال فإن معهد الآثار كون مجموعة مهمة من علماء الآثار قادوا حفريات في أشير وتيديس وتيغزيرت، وقالمة ومداوروش والمنصورة وأكادير بتلمسان، وكويكول وأصبح هناك أساتذة باحثون عملوا معنا في البحث الأثري نضرب على سبيل المثال منهم د. محمد البشير الشنيتي د. بورحلي ابراهيم ود. دلوم السعيد وهو مختص في المسكوكات القديمة ود. بن قرية، ود. العقاب، ود. قلماوي ود. يحياوي، والأستاذ نور الدين مفتاح، ود. مصطفى فلاح ود. عبد العزيز الأعرج، ود. علي خلاصي.

ولمعهد الآثار مجلة فصلية تعنى بميدان الآثار الجزائرية عنوانها "الآثار" ينشر فيها الباحثون الجزائريون دراستهم ولا ننسى أن الدكتور مولاي بلجميسي ساهم في التطوير العلمي لمعهد الآثار مع د. الشنيتي ود. أورفلي الذي يهتم ويبحث استمرار في التراث البوني بالجزائر القديمة.

على كل حال إن خريجي الجامعة الجزائرية في إختصاص الآثار في إزدياد مستمر. ولكن المهم هو إيجاد نوعية ممتازة من هؤلاء الخريجين للبحث في ماضي المدن الجزائرية القديمة، ولاسيما أننا لاحظنا أن هناك تركيز على

المدن الرومانية في الجزائر على حساب المدن الجزائرية الإسلامية أو بمعنى آخر هناك نقص الاهتمام والاكترات بالمدن التي أنشئت في العهد الإسلامي. والتي هي في حاجة ماسة إلى بحث أثري مكثف ونضرب مثلا على هذا بالمشور وسيدي بومدين في العباد والمنصورة وأكادير في تلمسان وهذه المعالم في حاجة إلى إعادة تهيئتها وترميم بعض أجزائها ويوجد أيضا مسجد سيدي ابراهيم في نفس المدينة الذي هو في حاجة إلى أعمال ترميمه كمعلم تاريخي. ولا ننسى قصبة مدينة الجزائر وقصر الداي حسين في أعالي القصبة الذي يحتاج إلى رعاية وإمكانيات مالية لمواصلة ترميمه وقد توقفت أشغال الترميم فيه إلى إشعار آخر.

أدعو إلى فتح مجال تكافؤ الفرص في ميدان البحث الأثري والتنقيب الأثري والترميم بالنسبة إلى المدن الجزائرية القديمة التي تعود إلى العهد الإسلامي، أو تلك التي تعود إلى العهد الإسلامي والعثماني لأن جميع مدننا تنتمي إلى تراث عالمي.

والمطلوب من علماء الآثار في الجامعة الجزائرية أن يبنوا علاقات علمية مع مصلحة الدراسات التاريخية والأثرية في وزارة الثقافة ووكالة الآثار التابعة للوزارة نفسها، من أجل القيام ببحث أثري وإعادة الإعتبار لمعالمنا الأثرية في مدننا العتيقة التي هي في طيّ النسيان.

ولنا مثلا على هذه الحالة المزرية التي تعيشها آثارنا ما يقع الآن من إهمال يخص مدينة سيغا عاصمة سيفاكس التي إندثرت بصفة شبه كاملة وهي غير بعيدة عن جزيرة رشقون الفينيقية في بلدية ولهاصة ولاية عين تيموشنت، وهذا بسبب قلة إهتمام الأثريين والمصالح المعنية بالآثار في الوزارة الوصية سالف ذكرها.

ومما يجب ذكره أن دائرة بني صاف قامت ببناء بلدية ومساكن فوق الآثار النوميدية الموجودة. وقد شاهدنا هذه الكارثة الأثرية بالعين المجردة أثناء

انعقاد ندوة تاريخية حول الملك سيفاكس عقدت في رشقون، ويصعب الآن إجراء حفريات أثرية في عين المكان لأنها إندثرت آثار مدينة سيغا، وهناك معلم تاريخي يعود إلى عهد سيفاكس يوجد في مرتفع غير بعيد عن آثار تاريخية ويقال أنه نصب تذكاري يعود إلى عهد الملك النوميدي سيفاكس، ويحتاج إلى دراسة أثرية وبحث علمي لإعادة تقييمه تاريخيا وأثريا.

ومما يجدر ذكره أن السيد والي ولاية عين تيموشنت السيد زوخ قد وعد بتقديم تسهيلات كبيرة للقيام بحفريات في مدينة سيغا عاصمة سيفاكس من قبل المؤرخين والأثريين في هذه الآثار القديمة، ولكن لابد من تخطيط أكثر وتنسيق بين قسم الآثار، ووزارة الثقافة، والولاية المعنية لتحقيق المشروع ميدانيا ولا يبقى مجرد تخمين نظري.

ولا ننسى دور فرق البحث الجامعية التي تستطيع أن تقوم بدور فعال في نهضة البحث الأثري في الجامعة الجزائرية، ولا سيما أن هناك آفاق جديدة تبشر بالخير مع إستقلالية كلية العلوم الإنسانية من الناحية المالية والإدارية، كل هذا يعمل على تحفيز الباحثين من مؤرخين وأثريين لإثراء الكتابة التاريخية والأثرية في الجزائر، ولابد أن يقوم أصحاب الإختصاص بدور رائد في هذا المجال.

قضية كتابة تاريخ الجزائر القديم عموما وملوك البربر خصوصا

جميل أن نكتب عن أبطال الجزائر القدماء من ملوك وزعماء، لأن هذا العمل يسلط أضواء كاشفة على أولئك الذين لعبوا أدوار فعالة عبر حركات التاريخ الوطني ويعمل بالتالي على تعميق الوعي بالذات.

إن الكتابة عن هؤلاء الأبطال يبرز العبقرية الجزائرية التي دافعت عن وجود هذه الأمة منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا.

ويأسفاه أن كثيرا من الشخصيات الجزائرية لم يسعفها الحظ أن تكتب عنها أقلام وطنية في السابق حتى شاع وذاع أن الجزائريين لا يكتبون، ولذا يجب أن نبرهن على عكس ما يروق للبعض اعتقاده.

وأبطال الجزائر القدماء كماسينيسا ويوغرطة وصيفاكس ويوبا I ويوباII .

فرضوا وجودهم على مسرح التاريخ، وذلك بفضل مقاومتهم للاستعمار والهيمنة الأجنبية في الجزائر. ثم إن هذه المقاومة الوطنية التي جرت عبر العصور، تبين لنا (بشكل قاطع) أن الشعب الجزائري كانت له وحدة تاريخ ووحدة مصير، يعبر عنهما في هذا الصمود والرفض لوجود استعماري غريب عن واقع الجزائر السياسي والحضاري والثقافي والعرقي.

ترك ماسينيسا ويوغرطة آثار كبيرة في تاريخ الجزائر القديم سياسيا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا. وحكم هذان الملكان في وقت متقارب من الناحية الزمنية، فالأول حكم من نهاية القرن الثالث قبل الميلاد إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، بينما حكم الثاني وهو يوغرطة، أثناء المنتصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد.

ولكن نجد أن طبيعة المقاومة نوعيتها تختلف إختلافا ظاهرا بين ماسينيسا ويوغرطة ويوبا I ويوبا II.

فالأول قاوم قرطاجنة من أجل أراضيه المغتصبة واختار التحالف مع الرومان. بينما حارب يوغرطة روما مدة طويلة وكان يأمل أو يرمي إلى توحيد

مملكة نوميديا كلها تحت راية دولته. ومهما كانت الأحوال، فهذان الملكان كانت تحذوهما نية واحدة، ألا وهي تقوية المملكة النوميدية عن طريق الوحدة الترابية، رغم تباين وإختلاف في سياستهما الخارجية وعلاقاتهما الدولية وكذا نوعية تحالفهما. أما يوبا I ، فحارب الرومان إعتمادا على ملف روماني داخلي، وفيما يخص فضل الرومان على أهل بلاد المغرب، لا أعتقد أن هناك فضلا يذكر، لأن روما لم تكن في يوم من الأيام هي المؤسسة للدولة النوميدية أو الدولة المغربية لأن التاريخ يبين أن التطور البنيوي نشأ مبكرا في بلاد المغرب، نتيجة تطوّر داخلي محض.

نشأت أسس الدولة النوميدية بفضل مبادلات وطنية ففي القرن الثاني ق.م عرفت نوميديا وحدة ترابية مميزة، وكيانا وطنيا (بلاد الجزائر تقريبا)، فكانت هذه المملكة النوميدية المبكرة، يحدها شرقا المناطق التابعة لقرطاجنة وغربا حدود وجدة اليوم.

وأرست المملكة النوميدية قواعدها السياسية والإجتماعية والإقتصادية عند ظهور ملوك وطنيين عظام مثل ماسينيسا ويوغرطة ومسيبسا ويوبا I ويوبا II وصيفاكس.

فلم تقم روما بإدخال أي تنظيم يستحق ذكره للدولة النوميدية، بل أن وحدة القبائل وراء زعيم جريء يصبح ملكا يفرض نفسه بدهائه وقوته وتضامنه مع مجموعة قبائل، فيقيم تنظيما سياسيا مترابطا، مبينا على العصبية التي آثارها ابن خلدون في مقدمته المشهورة، فجرى كل ذلك عن طريق نضج ذاتي ومحلي.

وقام صراع كبير بين روما وقرطاجنة من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسط، وهو صراع اقتصادي واستراتيجي وحضاري، سمح للمجتمع النوميدي بأن ينتعش ويحافظ على استقلاله الداخلي، ولو أن هذا الانتعاش لم يدم طويلا، حيث أن ماسينيسا دخل في حلبة الصراع، ونفس الأمر وقع فيه

يوغرطة مما أدى إلى اهتزاز الاستقرار السياسي للمملكة النوميدية وإدخالها في حلقة حروب بين أطراف معينة شرحناها في كتابنا حول هذين الملكين.

ووجود قرطاجنة كدولة قوية فتح المجال أمام النوميديين للتحالف معها من أجل حماية المصالح الحيوية والإقليمية والحضارية والسياسية. فراهن سيفاكس وماسينيسا (بعض الوقت) بالتحالف مع قرطاجنة من أجل توطيد مركزيهما في نوميديا، ولكن أخفقا في تحقيق أهدافهما، وذلك يعود إلى الضعف والوهن الذي أصاب قرطاجنة نتيجة الحروب البونية التي أنهكتها بشكل كبير فأثر كل ذلك على قوتها العسكرية ونفوذها الحيوي والاقتصادي والحضاري على مستوى حوض المتوسط.

وعلى كل حال، استطاع ماسينيسا ولو بصفة مؤقتة، إنشاء دولة نوميدية موحدة ومستقلة. وقبل ظهور هذه الوحدة السياسية للدولة النوميدية شهدت نوميديا مملكتان هما مملكة ماسولة الشرقية ومملكة نوميديا الغربية وكانتا تقتسمان أرض الجزائر من الشرق إلى الغرب في القرن الثالث قبل الميلاد. ويرى بعض المؤرخين أن قبيلة ماسولة تنحدر من الأوراس. أما قبائل مازيسولة وهي المنبع الأول لجميع القبائل. فأصلها الأول من المغرب الأقصى. أما عن حدود مملكة نوميديا الغربية، فكان يحدها شرقا رأس بوقرعون شمال قسنطينة وتمتد إلى حدود الملوية غربا.

وكان سيفاكس، ملك النوميدية الغربية له وزن وشأن في ميزان القوى، فاقتربت منه قرطاجنة وطلبت منه المساعدة ونتج عن هذا التقارب زواج سيفاكس بفتاة تنتسب إلى أعلى طبقة أرستقراطية في قرطاجنة.

أما مملكة ماسولة، أي نوميديا الشرقية فكانت أقل مساحة وتشمل القسم الشرقي من مقاطعة قسنطينة تمثل جزءًا كبيرا من الشرق الجزائري.

وكان يحكم هذه المملكة إبان الحروب البونية الثانية (أي خلال الحروب التي وقعت ما بين قرطاجنة وروما) ملك نوميدي يدعى غايا، ومراعاة لقوانين

الوراثة، لم يصبح ماسينيسا الإبن الأكبر لغايا ملكا بل ورثها أخوه، ثم إبن أخيه وعندما غزا سيفاكس بلاد مملكة نوميديا الشرقية، أي ماسولة اختار ماسينيسا حياة المنفى ولكنه عمل على إقامة تحالف مع روما لكي يصبح ملكا.

وذلك عن طريق مشاركته في حروب روما ضد قرطاجنة، حيث كان احد عوامل انتصار الرومان في الحروب البونية الثانية (قد أشرنا إلى ذلك في دراستنا عنه) واستغل هذا التحالف مع الرومان، فدخل إلى سيرتا منتصرا سنة 203 م، فوضع حدا لمملكة نوميديا الغربية، أي مازيستولة، وكانت بذلك بداية لحكمه كملك على كل البلاد النوميدية أو الجزائرية من الملوية غربا إلى توسكة (قرب طبرقة شرقا). وعرفت البلاد النوميدية ازدهارا ورفاهية اقتصادية بفضل ظهور الملكية الخاصة وإزدهار الحرية التجارية، فعمل كل ذلك على تطور الإنتاج الزراعي والصناعي.

عرفت الدولة النوميدية القديمة في عهد ماسينيسا تطورا سياسيا من ناحية دور المؤسسات السياسية والإدارية، حتى ولو أنه تطورا محدودا إذا ما قارناه بدور ومهام الأجهزة الإدارية في قرطاجنة التي عرفت مؤسساتها تطورا كبيرا ومراحل تاريخية معينة حملت في طياتها تقدما من ناحية صلاحيات الحكام النوميديين، وكذا فعالية الحكام ودور الشعب في التسيير والمشاركة العملية في النظام السياسي نفسة.

فنظام الدولة النوميدية كان يستمد نفوذه من سلطة القائد أو الرئيس الذي يدعى الإقليد وهو بمثابة ملك، وهذا الأخير يجمع عدة خصال حميدة مثل الجاه والقوة والنخوة والشهامة، ويصبح تحت نفوذه وسلطته قبائل عديدة، ونضرب مثالا على ذلك بقبيلة ماسيلس، التي ينتمي إليها ماسينيسا، وتزداد قوة قبيلته من أجل أن تصبح سيدة الموقف، بل لها الغلبة من ناحية سلطة القرار.

في هذا الإطار من التلاحم والتجمع القبلي يصبح القائد ملكا، ظهر هذا النوع من التلاحم قبل ظهور ماسينيسا وسيفاكس على مسرح التاريخ، ولو أنه

ليست لدينا الوثائق الكافية لإثبات مدى الصلاحيات السياسية التي كانت في حوزته وعلاقاته مع وزرائه، ولكن لم تكن لهم نفس الواجبات والأدوار كوزراء العصر الحديث وكذلك مع رعيته.

على كل حال، كان يجري نوع من التحالف والتكتل القبلي في نوميديا قديما للقيام بهجوم أو صد عدوان، والملك أي الإقليد يمكن له في الغالب أن يفرض نفوذه على المستقرين من أهل المدن والقرى الذين يقيمون في السهول، فيمتد نفوذ الملك أو ينحصر أو يتقلص حسب درجة قوته السياسية والقبلية.

وكان أهل الجبال الرحل من أهل البادية ويدعون بالفرنسية: (LES NOMADES) لهم ميل نحو التحرر من هذا النفوذ الملكي، لأن من طبعهم حب العيش أحرار غير مقيدين تحت سلطة حكم معين.

ومع هذا، كان تعلق النوميديين بملكهم ويعود ذلك لأسباب دينية وسحرية، وليس لأسباب عاطفية مع العلم أن الملوك النوميديين أنيطت بهم مهام ووظائف دينية مثل ملوك الفراعنة في مصر مثلا، وهذا ما جعل هؤلاء الملوك يتمتعون في إطار هذه المهمة بحماية خاصة لها طابع سحري.

وإذا كان مثلا في النظام السياسي القرطاجي سلطة القرار بيد المجالس الشعبية فيما يتعلق بالمشاريع الكبرى، وهذا ما لاحظناه في النظام الأرستقراطي القرطاجي، فإن ميزة النظام النوميدي أن الملك هو الذي بيده القرار السياسي بصفته ممثل أكبر قبيلة ذات نفوذ على مستوى الحكم، رغم وجود تجمع قبلي يتكون من عدة قبائل، ولكن القبيلة القوية التي ينتمي إليها الملك الذي بيده سلطة القرار السياسي، يعمل ويصدر الأوامر برضى قبيلته وما على القبائل الأخرى إلا القبول بالأمر الواقع، نظرا لغلبة كفة قبيلة الملك، والمعطيات التاريخية تبين لنا أن الملك ماسينيسا كانت له مصاعب أو اعترضته صعوبات مع بعض القبائل النوميدية، التي أرادت أن تكون مشاركة في السلطة وهذا يعني أنهم لا يريدون أن يكونوا مجرد رعايا فقط.

وتكمن قوة الملك ماسينيسا وسلطته في المدة الزمنية الطويلة التي بقي أثناءها ملكا وحاكما لنوميديا، فهذا يدل على مدى قوته،بحيث فرض شخصيته على الحكم، فقد دام حكمه أكثر من 56 عاما، وهذه أطول مدة أعتلاها حاكم في أرض المغرب القديم من الناحية التاريخية، وهناك دور الحزم والصرامة اللتان أبداهما ماسينيسا خلال مدة حكمه وقد عملتا على بقائه في السلطة.

ومن خلال وجود هذا الملك في السلطة، إستطعنا التعرّف على طبيعة النظام السياسي الذي كان يرتكز عليه من ناحية الأجهزة السياسية والإدارية بشكل واضح أفضل ممن سبقوه من ملوك نوميديين كوالده قايا وكابوسا وسيفاكس المسكين، صاحب سوء الطالع، وهذا يعود لقلة المعلومات التاريخية المتعلقة بهؤلاء الملوك ونظمهم السياسية.

ورغم الوضوح الذي يتميز بهٌ النظام السياسي لماسينيسا، فإننا نجهل ما هي المبادئ التي يرتكز عليها نظام الحكم بسبب قلة المعلومات في هذا الجانب فيما يخص علاقة الملك بالرعية، فكما هو معلوم أن الملك هو رئيس الدولة الذي يقوم بتعيين ولاة أو مسؤولين محليين على المستوى الجهوي وهم بمثابة قيادة (جمع قائد) وهؤلاء الحكام يقومون بفرض سلطتهم على قبائل نوميدية، وليس على أرض معينة وعند إعلان الحرب ضد خصوم مستهدفين يقوم هؤلاء الحكام بقيادة جيش، يتم تجنيد العسكر من القبائل التي يحكمونها تحت صبغة وراثية أو باسم الملك النوميدي، على كل حال فوجودهم على رأس الحكم المحلي يتم بتزكية وموافقة من رئيس الدولة إلى الملك، الذي يمثل السلطة العليا في الوطن الجزائري القديم.

أما إدارة المدينة النوميدية ونضرب مثالا على ذلك بدوقة في عهد ماسينيسا، حيث عثر بها على نقوش حجرية تثبت انه كان يوجد في عهد الملك مجلس للمواطنين يشارك في تسيير المدينة، ومن مهام الحكم المحلي

هذا، تجنيد الجيوش وجمع الضرائب المستحقة لخزينة الدولة، مثلما هو الأمر في دوقة ومكتار، ويستبعد قيام مجالس شعبية منتظمة في الدولة (النوميدية) القديمة، فالمعلومات المتعلقة بهذا الأمر نفتقر إليها في غالب الأحيان فلا داعي لإثبات شيء لا برهان لدينا عنه.

لكن السؤال المطروح على بساط النقاش: هل إمتلك الأثرياء النوميديين أرض زراعية خاصة كبيرة.....؟ كما هو الأمر في قرطاجنة، حيث شهدت تطور أرستقراطية زراعية وتجارية لعبت أدوار مهمة في تاريخ قرطاجنة السياسي والاقتصادي والحضاري.

على كل حال من باب التوكيد أن الملك النوميدي الجزائري ماسينيسا وأفراد عائلته كانوا يملكون أرض زراعية شاسعة ب 4.000 هكتار علاوة على ممتلكات أخرى.

أما فيما يخص الضرائب، فقد إعتمد النوميديين على النظام القرطاجي، وكان في الإمكان أن تستمر الدولة النوميدية في تطورها وإنتعاشها الاقتصادي، لولا خوف الرومان من وجود دولة نوميدية قوية موحدة، فعملت كل ما في وسعها للقضاء عليها وعندما بسطت روما هيمنتها على البلاد النوميدية، بل كل البلاد المغربية لم تفعل ما يستحق ذكره في سبيل تطور الإقتصاد النوميدي، بل عملت على إثراء الأغنياء، بينما الأهالي لم يستفيدوا من الثراء، وبقي الإقتصاد النوميدي يسير في نمو ذاتي مستقل، ويتجلى ذلك في الحركة الزراعية وتربية المواشي، وكذا المشاريع المائية والسدود والآبار.

وكل ما حملته روما من حضارة لاتينية في بلاد المغرب القديم، كان في فائدة المستعمرين (بكسر الميم) الرومان، وتتجلى مظاهر الحضارة الرومانية ببلاد نوميديا والمغرب في فن العمران الموجود في المدن الرومانية المزدانة بفسيفساء باهية وأشكال هندسية تسر الناظرين.

أجل إن الحضارة الرومانية متعارضة مع القيم الثقافية النوميدية، وهذا ما يفسر مقاومة نوميديا للإحتلال الروماني.

ولم يستفد النوميديون من حضارة الرومان أي إستفادة تذكر، بإستثناء بعض منهم نهلوا من ينابيع الحضارة الرومانية، ونضرب مثالا على ذلك بالقديس أغسطين (SAINT AUGUSTIN) الذي أثرى الكنيسة المسيحية بأفكاره الداعية إلى مدينة فاضلة، تجمع بين قيم السماء وشرائع الأرض.

على كل حال؛ فالاستعمار الروماني لم يحدث تقدما اقتصاديا في بلاد المغرب، بل فتح عصر تجميد القوى المنتجة الجزائرية، تم خلالها إخضاع الزراعة وتصريف منتجاتها لإلزاميات النبلاء الرومانية.

وهناك من يرى أن الاستعمار الروماني كان له أثر مزدوج على البنية الإجتماعية النوميدية، فشجع المستعمرون الملكية الخاصة في المناطق التي إحتلوها بالقوة، كما شجعوا إنقسام المجتمع إلى طبقات، وهذا ما أدى إلى إنهيار الروابط القبلية.

ولا أعتقد أن ذلك صحيحا بصفة كلية، لأن التقسيم الطبقي ووجود الطبقات كان موجودا قبل الإحتلال الروماني، أما تطور الملكية الخاصة فكان قائما قبل ظهور روما في بلاد المغرب؛ فالمبادلات التجارية الأولى بين المغاربة والقرطاجنيين الأوائل، دليل على قدم التجارة في بلادنا ولم يسيطر الإستعمار الروماني أبدا على بلاد المغرب الأوسط، وهي الجزائر بصفة كلية والمناطق التي بقيت مستقلة حافظت على بنيتها القوية وروابطها القبلية لأسباب إقتصادية وسياسية.

وإذا قمنا بتحليل طبقي للطبقات الإجتماعية التي كانت موجودة في الممالك الوطنية وكذا في العهد الروماني، نجد أن أهم الفئات الإجتماعية التي يتكون منها المجتمع النوميدي آنذاك هي كما يلي: أصحاب الملكيات الكبيرة، ثم يأتي بعدهم المالكون الصغار.

ونجد ضمن البنية الإجتماعية هذه فئة العبيد، وهم أساسا البربر المغلوبون الذين يقعون في الأسر خلال الحرب ثم نجد المزارعين الشركاء،

والفلاح المشارك رجل حر يستفيد من قطعة أرض، يزرعها ويدفع بالمقابل من المحصول للدولة الرومانية.

لم تجد ضمن هذه الطبقات العمال المزارعون، وهم الأشخاص الذين تنفيهم قبائلهم ويألفون طبقة ضعيفة كادحة ويستغلهم المسؤولون عن الإقطاعات كيد عاملة رخيصة لجني المحاصيل.

والتقسيم الطبقي هذا للمجتمع النوميدي يعتبر تدريجيا، لأن معرفتنا محدودة جدا حول الطبقات الإجتماعية وتاريخ تكوينها وتطورها، ولو أن المجتمع النوميدي شهد تفاوتا طبقيا بحكم علاقات الإنتاج الموجودة آنذاك، فوجود الاستعمار الروماني أدى إلى إفراز طبقات إجتماعية لها إمتيازات معينة مع المستعمرين ومنهم التجار الرومان، الذين كانت لهم فوائد جمة بفضل التجارة الكبيرة التي كانت مزدهرة في المدن الرومانية الجزائرية القديمة الموجودة في خارج وداخل البلاد.

على كل حال، كان يجري نوع من التضامن الطبقي بين أبناء المجتمع النوميدي، بل حتى المغربي عندما كانوا يشعرون أن حرياتهم مداسة، وتحققت وحدة عضوية بينهم في سبيل المقاومة عمليا ضد الإستعمار، وهذا يدحض النظريات الغربية حول تاريخ بلاد المغرب القديم (الجزائر، وتونس، والمغرب وليبيا«أي الجماهيرية») والتي تقتضي مراجعة نقدية وتصحيح الأخطاء، فهي ترى أن الوحدة المغربية بين أبناء المغرب الكبير صعبة المنال، ولم تتحقق عبر التاريخ، ورأيهم في ذلك أن الذي يدرس بلاد المغرب، يجد ممالك تتسع شيئا فشيئا إلى أن يعم سلطانها البلاد قاطبة، بل قبائل يوحدها زعيم جريء تؤسس مملكة بفضل غزوة جبارة ثم تنهار تحت ضربات كتلة أخرى من القبائل، فليست المدينة أو التراب بالمقومين للوحدة الأساسية، إنما المقوم هو القبيلة منفردة كانت أو متحدة مع جارتها..

ويرى شارل أندري جوليان في كتابه " تاريخ إفريقيا الشمالية " (الجزء الأول) (ص35) أن المغربي أو النوميدي أو الليبي لم يصب بنقص جنسي، ولكن لعنة جغرافية نزلت عليه، لقد كتب قوتيه (GAUTHIER) قائلا: " إن مدنية مستقلة بذاتها، لغة وشعبا شاعرا بوجوده دولة منظمة، هذه كلها كماليات باهضة جد رأسمالية، المغرب (يعني الجزائر وتونس والمغرب الأقصى والجماهرية الليبية) لم يستطع الحصول عليها بمفرده، فهذه البلاد صغيرة لم يكن لها الجهاز المادي الضروري لتقييم البنيان الاجتماعي والسياسي الذي هو أساس كل مدينة.

إن هذه النظرية التي ترى أن وحدة بلاد المغرب صعبة المنال أو مستحيلة، ليست نظرة قارة ومقبولة، وإلا كيف نفسر عمليات الوحدة التي جرت في عهد الملوك - مقام دراستنا هذه - مثل ماسينيسا ويوغرطة، مع العلم أن هذا الأخير (أي يوغرطة) كان يرمي إلى تحقيق وحدة مغربية شاملة، وكاد أن يحقق أهدافه لولا تآمر الرومان عليه، وكذا مواقف جيرانه الذين وقفوا مع الروم ضده لإحباط مراميه الوحدوية.

وتحققت الوحدة المغربية في عهد المرابطين؛ حيث شهدت البلاد وحدة شملت تقريبا كل بلاد المغرب العربي والديار الأندلسية. وفي عهد الموحدين تحت قيادة المهدي بن تومرت، الفقيه السوسي وعبد المؤمن بن علي الجزائري، تمت الوحدة المغربية إنطلاقا من البلاد الواقعة في المغرب الأقصى حتى ليبيا الحالية.

ويظهر أن الوحدة تحققت خلال الوجود القرطاجني في البلاد المغربية، وهي وحدة ثقافية وتاريخية وسياسية أحيانا، ونتج عن هذا التفاعل بين القرطاجيين واللوبيين ما يطلق عليه بالحضارة البونية، التي هي نتاج تفاعل حضاري محلي نوميدي وشرقي، ولا يمكن رغم كل الأحوال، إعتبار القرطاجيين إمبرياليين، كما يروق بعض الناس تسميتهم ونضرب مثالا على

ذلك بكاتب جزائري هو علي بن كورت، الذي ألف كتابا أسماه "سيفاكس وماسينيسا بين الامبريالية الرومانية والقرطاجنية".

ويذكرنا ذلك بموقف بعض المؤرخّين من الوجود العثماني في البلاد الجزائرية كمحمد عبد الله عنان، المؤرخ المصري المعروف، الذي يعتبر العثمانيين كمستعمرين – ولو أنهم دخلوا بلاد المغرب باسم الإسلام، بينما ينفي مؤرخ جزائري آخر هذه التهمة، وهو المرحوم الأستاذ أحمد توفيق المدني. ويوجد دليل على قيام وحدة مغربية سامية ضد الإمبريالية الرومانية، وهو إلتفاف كبير من النوميديين حول حنبعل في حربه ضد الرومان عندما دعاهم لإنقاذ الوطن من المستعمرين الرومانيين.

وما كانت الأنباء تصل بإنتصار حنبعل في موقفه واجتياز جيوشه النوميدية القرطاجنية مضايق الأندلس، حتى كانت الحفلات تقام من طنجة وسيقا وسيرتا إلى قرطاجنة والأعلام ترفع في شواطئ النيل، بعد أن تمر في قصبة رعاء الصحراء لترددها الجماهير في أطراف الجزيرة العربية.

وهكذا اعتبر الليبيون أو النوميديون قرطاجنة وطنهم والفينيقيون إخوانهم، وإن كانوا قاوموا إستبدادهم في الحكم إعتزازا منهم بقومية ضيقة كثيرا ما كانوا يضحون بها إذا دعاهم داعي الوحدة لصالح إنقاذ الوطن والدفاع عن حريته.

مصادر تاريخ الجزائر القديم

والدارس لتاريخ الجزائر القديم، يجد نفسه أمام مشكل المصادر الضئيلة، فهناك افتقارا فظيعا من ناحية المعلومات المتعلقة بتاريخ نوميديا الحضاري والإجتماعي والسياسي والفكري والإقتصادي، ويعود النقص أساسا لقلة المصادر الكتابية لهذا التاريخ، مع العلم أن المعضلة الكبرى تكمن في عدم فك رموز اللغة الليبية القديمة، وهي مفتاح الحضارة النوميدية وهي تشبه التفناغ لغة الطوارق، فمتى يفتح الله علينا بشامبليون جزائري يزيل الإشكال القائم.

ومما زاد في الطين بلة، أن النوميديين القدماء لم يكن لهم مؤرخين أرخوا وكتبوا تاريخ نوميديا القديم، ويمكن أن نستثني من ذلك كتاب القديس أوغسطين، الذي كتب تاريخا كاملا ضمن دراسته لمدينة الله التي خرج فيها دارسا لتاريخ قرطاجنة ونوميديا ولو باختصار وهناك مؤرخا آخر وهو الملك يوبا الثاني، ولكن عيبهما الأول والثاني أن أعمالهما كتبت باللغة اللاتينية في البلاد النوميدية.

والتاريخ يشهد أن نوميديا في العصر الوطني لم يكن لها مؤرخون بمعنى الكلمة، وإن وجدوا فقد اندثرت أعمالهم التاريخية؛ فمعلوماتنا اليتيمة التي حصلنا عليها حول زعماء نوميديا كماسينيسا ويوغرطة وسيفاكس ويوباI ويوباII.. الخ اغترفنا أخبارهم مما ذكره المؤرخون الإغريق والرومان وأشهرهم سلوستيوس، المؤرخ اللاتيني الذي عاش مابين 86م. و34 ق.م، فقد أرخ لحروب يوغرطة، وكان ينتمي إلى أسرة من العامة ويناصر الحزب الديموقراطي (POPULARES) وكان من المعجبين بماريوس، وأصبح عضوا في مجلس الشيوخ وطرد منه عام 50 ق.م بتهمة أخلاقية، تولى سلوستيوس إفريقيا الجديدة.

ومن المؤرخين الرومان المشهورين الذين كتبوا في تاريخ الجزائر القديم، المؤرخ الروماني ليفيوس ومعروف في الفرنسية باسم (TITE LIVE - تيت ليف)، عاش ما بين 59 ق.م -17 ق.م وقد كتب ليفيوس تاريخ روما، مع العلم أنه ألف 142 كتابا، وصلنا منها 35 فقط وهي الكتب من 1 إلى 10 التي تروي تاريخ روما من 218 ق.م إلى 167 ق.م، وهي الحرب البونية الثانية بين القرطاجنيين والرومان، وفيها يتعرض إلى دور ماسينيسا في تلك الحرب، وكذا دوره في معركة زاما التي سنتعرض إليها في كتابنا هذا.

ومن مؤرخي الإغريق الكبار بوليبيوس الذي يعد مصدرا رئيسيا في تاريخ المغرب القديم، ولد بوليبيوس حوالي 200 ق.م في ميجا لوبوليس، جنوب

اليونان، ويعد تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية التاريخية منذ أوائل الحرب البونية الثانية، أي الحرب القرطاجنية الثانية بتعبير أصح، حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

نقل بوليبيوس إلى روما كرهينة مع ألف يوناني، حيث قضى عدة سنوات درس أثناءها أخلاق الرومان ونظمهم، وتعرف على أقطابهم منهم ايميليوس وسكيبيو ايميليا نوس، وتوجه بوليبيوس إلى نوميديا، ورافق سكيبيو مرة ثانية في حملته الإفريقية في 147 ق.م - 145م، تاريخ سقوط ودمار قرطاجنة، ومن هذا المنطلق، يعد بوليبيوس شاهد عيان لزوال وغروب شمس الحضارة القرطاجنية وزار موريتانيا، أي المغرب الأقصى وكتب بوليبيوس تاريخا عالميا في 40 كتابا معالجا فيه الفترة من 220 ق.م إلى 144 ق.م، والكتب الخمسة الأولى كاملة. وأما الكتب الباقية من 6 إلى 4 فقد وصلتنا مبتورة، وقد وصف العالم الألماني مومسن (MOMMESN) بوليبيوس على أنه الشمس الساطعة في حقل التاريخ الروماني.

ومن المؤرخين الإغريق ديودور الصقلي 80 ق.م - 30 ق.م، كتب تاريخ العالم وتقع مكتبته في 40 كتابا لم تصلنا منها كاملة سوى الكتب 1 إلى 5، و11 إلى 20، وشذرات من بقية الكتب 21 إلى 40 تتعرض إلى شمال إفريقيا في الكتب 1 إلى 3 - وكذا ألف تاريخ مصر وبلاد ما بين النهرين والهند وبلاد العرب وأثيوبيا. ومن المصادر الإغريقية ما كتبه المؤرخ الإغريقي إبيانوس 95-165م) وصلت معلوماته عن إفريقيا الشمالية بشكل ناقص أو في مقتطفات وردت ضمن مؤلفات المؤرخ البيزنطي (وكان إمبراطور) قسنطين بورفير وجنيتو 912 - 959م، وتتناول شذرات الكتاب رقم 8 الحرب البونية حتى تدمير قرطاجنة في 146 ق.م.

وهكذا، فقد ألف خصوم نوميديا تاريخ افريقيا الشمالية القديم وهي عبارة عن مقتطفات ودراسات تاريخية منحازة إن صح التعبير، وهذا الوضع يجعلنا

نتساءل هل أنصف المؤرخون الرومان والإغريق فيما كتبوه عن أبطال نوميديا القدماء الذين دافعوا عن وحدة البلاد؟ لا نستطيع الجزم أنهم أنصفوا تاريخنا فقد كتبوا عن تاريخ إفريقيا الشمالية بمنظور الاستعلاء والاستعمار وروح القهر والتسلط والهيمنة، فلم ينصفوا تاريخنا في هذه الحالة، مع العلم أن الرومانيين كان لهم مؤرخون يؤرخون التاريخ الرسمي والشعبي بمنظور سياسي موجه لحركة رومانية معينة أو تيار معين، ويمكن أن نضرب مثالا على هذا بسلوستيوس (سالوست بالفرنسية)، الذي حاول أن يدافع عن سياسة وزعماء الحزب المناوئ للسناتو، وهو مجلس الشيوخ عن طريق الكشف عن فساد رجال الحزب الارستقراطي، والرد على الدعاية ضد يوليوس قيصر، وقد أرخ ذلك على أساس أنها حقائق تاريخية صحيحة.

على كل حال، لم ينصف المؤرخون الإغريق والرومان تاريخ الجزائر القديم، فنحن مضطرون للعودة إلى هذا التاريخ للإستقصاء والحصول على معلومات تخص هذا التاريخ البعيد.

ويعد كتاب حرب يوغرطة للمؤرخ الروماني سلوتيوس، من أهم المصادر التاريخية القديمة على الإطلاق حول نزاعات جهوية جرت بين روما وزعيم وطني أو ملك نوميدي عتيد وشجاع، يتمثل في يوغرطة الذي قاوم مقاومة قوية ضد الهيمنة الرومانية، وساليستيوس عاش في إفريقيا الشمالية ردحا من الزمن، أي مدة عام ونصف كحاكم لإقليم إفريقيا الجديدة (في جزء من تونس الحالية، وهذا ما جعله يعرف جيدا مواقع عديدة كتب عنها في حرب يوغرطة؛ حيث عرفها عن كثب بعكس المؤرخين الآخرين الذين كتبوا عن مواقع لم يزوروها أبدا).

وهكذا نجد سلوستيوس يذكر لنا أسماء مدن كان لها أدوارا هامة في حرب يوغرطة مثل زاما وباجة وسكا وقفصة، وقد زار هذه المدن فعلا، ورغم معرفة سلوستيوس لهذه المدن الهامة وذكره لأحداث الحرب بشكل دقيق، فإنه لم

يعاصر يوغرطة، والسؤال المطروح: كيف حصل على المعلومات المتعلقة بهذه الحرب، هل اعتمد على وثائق مجلس الشيوخ والروايات الشفاهية من أجل الحصول على أية معلومات تاريخية تخص حرب يوغرطة...؟

وصلتنا فيما بعد عن طريق ديودور الصقلي الذي سلف ذكره، عاش ما بين 80 ق.م- 30 ق.م فلدينا بعض المقتطفات اليتيمة عن حرب يوغرطة، وما عدا ذلك فليس لنا مصادر أخرى حول هذه الحرب العظيمة التي خاض غمارها البطل يوغرطة.

بقي أن أذكر أن المصادر العربية المتعلقة بتاريخ الجزائر القديم لم تستغل من قبل مؤرخينا كما يجب مع الأسف الشديد؛ فقد جاء ذكر ماسينيسا في العبر لإبن خلدون وذكر لنا تاريخ البربر القديم من ناحية أصلهم وحسبهم، ولكن إلى حد الآن لم تجر أي دراسة تذكر حول تاريخ نوميديا من المنظور العربي، وقد تعرض المؤرخون العرب كابن خلدون والطبري، وابن الأثير وابن عذاري المراكشي إلى تاريخ الجزائر القديم بشيء من التفصيل حول تاريخ البربر القديم، ولا سيما جانب الأصول الأولى للبربر. أما تاريخ ملوك نوميديا موضوع دراستنا، فلا نجد سوى مقتطفات بسيطة لا تغني ولاتسمن من جوع.

ونظرة المؤرخين الفرنسيين المعاصرين فيها إجحاف وهجوم ضغين للتراث العربي والتاريخ الوطني من خلال فرضيات تاريخية غير صحيحة وغير دقيقة ولا سندا فكريا لها؛ فقد ارتكب ستيفان قزال أخطاء فادحة في حق المغاربة؛ ففي الجزء الخامس من كتابه " تاريخ إفريقيا الشمالية " قال: " إن أهالي المغرب العربي لهم عادات ورثوها من العصر الإسلامي كمظاهر الإباحية، بأن يقدم للضيف إمرأة كهدية وإكراما له يتمتع بها خلال مقامه...". ويذكر ستيفان قزال أن هذه العادة حافظت على وجودها في منطقة القبائل بالجزائر، وكذا في جبال الأطلس بالمغرب الأقصى في العصر الحديث، واعتمد في روايته هذه على ما ذكره دوتي الذي بحث في عادات الجزائريين، ودعم قزال نظريته

الواهية هذه التي كلها إفتراء وتشويه للواقع بما أورده نيكولا الدمشقي المؤرخ القديم، والبكري وأبي الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، ودوتي (DOUTTE) هو الأنثروبولوجي الفرنسي الذي عمل أستاذا في جامعة الجزائر في بداية القرن العشرين وألف كتابا عنوانه " السحر والديانة في إفريقيا الشمالية " وقد ألفه في 1909م (Magie et religion en Afrique du nord) نظرية دوتي، وتبنى قزال رواية هيرودوت التي مفادها أن النسامون وهي قبائل ليبية موقعها في الخريطة بالقرب من خليج سرت شرقا، كان لها عادات إباحية واشتهر أهلها بظاهرة تعدد الزوجات.

فهل ما كتبه هيرودوت صحيحا ..؟ ونفس التساؤل يطرح على رواية دوتي، الذي بحث حول تقاليد وعادات المغاربة في العهد الإسلامي بشكل سطحي جدا، وبنى على ذلك نظريته، وجعلها من المسلمات. وأما ستيفان قزال المؤرخ الفرنسي لم يكن له علم ولا معرفة باللغة العربية الفصحى، مما أدى به إلى الرجوع إلى الكتب المترجمة إلى الفرنسية كرحلة البكري مثلا وهل يكفي ذلك للاطلاع بشكل جيد على التراث التاريخي العربي المتعلق بتاريخنا ..؟

فيما يتعلق برواية الوزان المولود في غرناطة عام 1485م، وعاش ودرس في فاس بعد رحيل عائلته وأسر في روما مدة ثلاثين عاما، ألف أثناءها كتابه " وصف إفريقيا "، مع العلم أنه كان يجيد الإفريقية واللاتينية والإيطالية والعربية وبقي الوزان متشبثا بدين الإسلام رغم غيابه الطويل عن البلاد الإسلامية.

وتحدث الحسن الوزان في "وصف إفريقيا" عن أهالي المغرب العربي ويهمنا مناقشة رواية قزال التي أخذها عن الحسن الوزان لإزالة التشويه والافتراء في أخلاق المغاربة، قال الحسن الوزان في صفحة 64 من كتابه الآنف ذكره... " أما نساء هؤلاء العرب، فيرتدين لباسا حسنا حسب عادة البلاد، وهو قميص أسود واسع الأكمام، يجعلن فوقه خمارا أسودا أو أزرقا يلتحفن به.

وتضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوبا صغيرا مثقوبا أمام العيون، فإذا رأين رجلا ليس من أهلهن إحتجبن فورا بهذا اللثام، وأمسكن عن الكلام، فإذا انفردن بأزواجهن وذويهن رفعن اللثام، ولما كان العرب يرحلون من مكان إلى آخر، فإنهم يحملون نساءهم على هوادج كالسلال تغطى بزرابي جميلة ".

ويقول في موضع آخر " ومن عادة هؤلاء النساء أنهن قبل الزفاف إلى أزواجهن يخضبن بالحناء وجوههن وصدورهن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع، لأن ذلك مستحسن ".

ويتحدث الحسن الوزان في مقام آخر عن طبائع الحضر " غير أن أهل الحضر وأشراف البلاد لم يتبعوا هذه العادات، وبقيت نساؤهم محتفظات ببياضهن الطبيعي، وإنما يستعملن خضابا مصنوعا من عتن لوز العصفة والزعفران ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة وبين الحاجبين شكلا مثلثا على الذقن يشبه ورقة زيتون، وتخضب به بعضهن الحواجب كاملة، يمدح الشعراء والأشراف هذه العادة، وتراها النساء أنيقة جميلة، غير أنهن لا يحتفظن بهذه الزينة أكثر من يومين أو ثلاثة لأنهن لا يستطعن أن يظهرن إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن، ويفعلن ذلك ليكن أكثر جاذبية، متوهمات أن تلك الزينة تزيدهن جمالا ".

ويرى الحسن الوزان في " وصف إفريقيا "(ص85) أن سكان إفريقيا متمسكون بالديانة شديد التمسك ومطيعين لفقهائهم وأئمتهم، ثم إن سكان المدن في بلاد البربر أناس ماهرون حسبما نشاهده من جودة الأعمال المختلفة ينجزونها وهم ذوو تربية فائقة وكياسة متناهية وإحسان.

وتحدث في موضع آخر عن الظواهر الشاذة في بلاد إفريقيا (ص88) فقال...- ويتعلق الأمر بالنسبة إلى الرعاة، سواء منهم سكان الجبال وسكان السهول فيعيشون معيشة ضنكا ويبقون في بؤس على الدوام، وهم حفاة ولصوص وجهال لا يردون ما اقترضوا من مال، والأزواج المخدوعون عندهم أكثر من غيرهم.

وهكذا يظهر جليا أن ستيفان قزال فسر رواية الحسن الوزان تفسيرا خاطئا، حيث لا وجود إلى أي إشارة تدل على أن المغاربة كانوا يقدمون للضيوف نساء لأهداف إباحية لا في العهد الإسلامي، ولا في العهد القديم، فأهالي المغرب القديم أو المغاربة من خليج سرت إلى المحيط الأطلسي من ذلك براء، فهم يمتازون بالعفة، والطهر، والأخلاق الطيبة التي يوصي بها الدين الإسلامي، هذا باستثناء الرعاة الذين لا دين لهم، وربما يقصد بقايا الوثنيين الذين كانت فئة موجودة منهم في القرن الخامس عشر الميلادي ببلاد المغرب.

والمصادر العربية يمكن الاعتماد عليها في معرفة انساب البربر لكي لا يبقى اعتمادنا على المصادر الفرنسية والأجنبية الغربية كمنهل لمعرفة تاريخ أصولنا.

والحسن الوزان في كتابه - وصف إفريقيا - يفيدنا بأخبار هامة حول أصل البربر؛ فيذكر أن سكان إفريقيا الشمالية (ص34) من البيض وكلمة بربر مشتقة حسب رأيه من الفعل العربي بربر بمعنى همس، ويرى بعض المؤرخين أن السكان الأصليين في العهد القديم ينتسبون إلى إنسان المرحلة القفصية، أي البربر القدماء، ثم تأتي الحقبة الممتدة من الوجود القرطاجني في البلاد المغربية، وقد كان امتزاج في الدم بين القرطاجنيين والليبيين القدماء.

ومما يجب ذكره أنه وقعت هجرات متوالية ونزوحات نحو البلاد في عهود ما قبل التاريخ ثم في المراحل التاريخية، فكان إستيطان الفنيقيين وبعدهم الرومان والوندال (ولو أن هؤلاء الأخيرين، أي الرومان والوندال كان لهم تأثير ضعيف جدا على السلالة الجزائرية)، ثم العرب الذين هم من أصل سام، وعناصر أخرى والذين هم من العنصر الهندو- أوربي مثل الإغريق وقد وقع امتزاج واختلاط بين العنصر اللوبي المحلي والعنصر السامي، المتمثل في القرطاجيين والعرب والكل ساميون. أما العناصر الهندو- أوربية فلم يكن لهم

اختلاط في الدم يذكر مع العنصر المحلي، وقد وقع تزاوج بين الجزائريين والمغاربة (أقصد أهالي المغرب العربي وتونس وليبيا والمغرب الأقصى) والمستوطنين الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب العربي بعد سقوط غرناطة... في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، والذين نقلوا أساليب وعادات وتقاليد وطبائع مستمدة من الحضارة العربية الإسلامية إلى بلادنا المغربية، ويرى أحد المؤرخين، أن الأندلسيين الذين نزحوا إلى بلاد المغرب العربي إشتغلوا بالتجارة وزراعة البساتين والحقول وأنه كان يميزهم عن الأهالي الجزائريين شكلهم الفيزيولوجي المميز حيث تجدهم وسيمي الطلعة ولون بشرتهم أكثر بياضا.

ومما زاد في تنوع الأصول العرقية الجزائرية، أنه جرت بعد الفتح الإسلامي المبارك هجرات واستيطانات متتالية لعرب المشرق نحو البلاد الجزائرية، ونذكر منها غزوات بني هلال المشهورة، علاوة على الجيوش العربية التي جاءت خلال وبعد الفتح الإسلامي، ثم كان نزوح الخوارج إلى البلاد الجزائرية، بني ميزاب الحاليين الموجودين في غرداية ومليكة وبني يزقن وبن ريان بالصحراء الجزائرية، وكل هؤلاء الأقوام أدوا إلى امتزاج الدم أي العرق الجزائري.

المعطيات الأنثروبولوجية والعرق الجزائري

أما المعطيات الأنثروبولوجية التي تستند إلى ماقام به المختصون؛ فتبين أن الأمازيغ الذين ينتمي إليهم يوغرطة وماسينيسا، وهذا الأخير هو جد يوغرطة، فأقول أن هؤلاء الأمازيغ كانوا موجدين في العهود القديمة وقد اختلطوا بالعنصر العربي بعد الفتح الإسلامي ثم في العصور الوسطى عن طريق الزاوج.

ويرى الأنثروبولوجيون أنه يوجد عنصرين يغلبان على عناصر الأمة الجزائرية ألا وهما العنصر العربي، الذي جاء بعد الفتح الإسلامي، ثم العنصر

البربري وهم السكان الأصليون لبلاد المغرب الكبير في العهد القديم، والذين لهم صلة بإنسان مشتى العربي الذي سلف ذكره.

ومن المؤرخين من يرى أن العنصر البربري يعتبر من أصل سام، وذلك نتيجة نزوحات البرابرة من بلاد الجزيرة العربية في عصور قديمة تمتد إلى ما قبل التاريخ. أما علماء الأنثروبولوجيا؛ فيرون أن فكرة وجود عنصرين يكونان الأمة الجزائرية وهما العنصر العربي والعنصر البربري قد تجاوزتهما الاكتشافات العلمية؛ حيث يرون أن عناصر أخرى لها مميزات خاصة ومختلفة، منها العنصر الأسمر والذي له قامة متوسطة والذي يعود أصله إلى الإنسان القديم، الذي ينتسب إلى عنصر سكان البحر المتوسط، ويوجد العنصر البشري الذي له قامة طويلة، ثم العنصر البشري الذي يمتاز بقامة قصيرة ووجه عريض ومدور.

ثم العنصر الرابع، وهو يمثل شكلا خاصا مميزا عن الآخرين وله بشرة بيضاء، وهو أشقر وله شعر أصفر وقامته طويلة، ونجد هذا العنصر يقطن المناطق الجبلية في بلاد القبائل وجبال الأوراس وفي مناطق الهضاب العليا.

والمؤرخ الجزائري النزيه، لابد أن يعتمد على ما جد من جديد في ميدان الدراسات العلمية التي تقدم لنا معلومات دقيقة وتعد أعمال ماري كلود شاملا رائدة في هذا المجال، لأنها اعتمدت في البرهنة على التركيبة العرقية للجزائريين من خلال فصائل الدم، وقد أظهرت في دراستها أن هناك خليطا عرقيا كبيرا في الجزائر ربما يضرب في أعماق التاريخ الجزائري، وهذا ليس عيبا.

واستنتجت في دراستها الرائدة، أن هناك اختلافا كبيرا في فصيلة الدم لأهالي منطقة القبائل ومنطقة الشاوية وطوارق فزان وطوارق المنطقة الغربية، أي طوارق الجزائر، وهذا ما سنبينه في دراستنا هذه.

واعتمدت ماري كلود شاملا Marie Claude Chamla على دراسة ميدانية جرت في الجزائر وليس في باريس وهي تخص 6.000 جزائريا، وهي دراسة

حول عينات من فصائل الدم، وماري كلود شاملا كلفت نفسها عناء المجيء إلى الجزائر لنقل الدم بمستشفى مصطفى باشا بمدينة الجزائر.

وإن الدراسة الأنثروبولوجية التي قامت بها ماري كلود شاملا شملت عينات بشرية في الجزائر برهنت من خلالها على عدم وجود صفاء عرقي بمعنى الكلمة لدى العرب والبربر ولو أن هناك ملامحا مميزة لهذين العنصرين من الناحية الفيزيولوجية عندنا في الجزائر حاليا، وشملت الدراسة عينات من الجزائريين كما يلي:

العزازقة 23٪.

الأربعاء نايت إيراثن 5.9٪.

الأخضرية 80٪.

الصومعة 38٪.

البويرة 13٪.

برج منايل 5٪.

وقد تم الاعتماد في التحليل الانثروبولوجي على حجم وقياس أعضاء الجسم كطول الخصرين وطول السواعد والفك وشكل الرأس والوجه وطول الأنف، وكذا مدى عرضه وطول الأذنين. وأود أن أشير في هذا السياق إلى أهمية دراسة سابقة قام بها كيدر KIDDER في 1927، وهي تخص عينات بشرية منْ شمال البلاد الجزائرية وجنوبها 304 جزائريا من أصل قبائلي وهناك دراسة أخرى تخص أهالي الشاوية 55 جزائريا أصلهم من الأربعاء وبوزينة والب اعلى وجرت دراستهم من قبل راندال RANDALL.

وهناك دراسة قام بها برتلون وشانتز حول الرحالين في الهضاب العليا Chantre, (1913) Bertholon، ثم هناك دراسة عن طوارق فزان وطوارق الغرب، أي طوارق الصحراء الجزائرية قام بإعدادها بريكس 1955 (brigges).

ولا ننسى دراسة انثروبولوجية أعدها أمات Amat حول 50 ميزابيا عام 1888م.

ونعود إلى ماري كلود شاملا العالمة الانثروبولوجية الفرنسية، فهي ترى أن هناك تنوعا عرقيا في الجزائر. تذكر في كتابها ص: 96.

(إعتمادا على ترجمتي للنص الفرنسي إلى العربية) فتقول: من خلال تحليل للأشكال والنماذج البشرية والبنية العرقية للجزائريين نلاحظ وجود فوارق أنثروبولوجية بين سكان إفريقيا الشمالية، فمن خلال ستة وثلاثين تركيبة عرقية، يوجد إثنان وثلاثون تركيبة عرقية (32) تركيبة، ثم بعد ذلك نلاحظ سلم التنازل في هذا الشأن ففي القبائل الصغرى يوجد أربعة وعشرون تركيبة عرقية، بينما هناك سلاسل الهضاب العليا الشرقية والهضاب الغربية التي توجد فيها ستة عشر تركيبة عرقية. وأخيرا فإن سكان الجبال الغربية من الوطن الجزائري، يبدو أنهم أقل تنوعا من ناحية التركيبة العرقية مقارنة مع المجموعات الخمسة، حيث يوجد ثلاثة عشر تركيبة لا غير.

وترى ماري كلود شاملا أن إفريقيا الشمالية ملتقى عرقيا؛ حيث تلتقي وتختلط ثلاثة نماذج بشرية، منها نموذج البحر المتوسط، والنموذج الثاني يدعى الأرمندي، والنموذج الثالث يدعى النموذج الألبي وتفند ماري كلود شاملا المقولة التي ترى أن العنصر الأشقر في الجزائر هو من أصل أوروبي شمالي. فيما يتعلق بالتوزيع العرقي للجزائريين حسب فصيلة الدم، لابد أن نعتمد على الخريطة التي تقدمها لنا الباحثة الفرنسية في ص 98 تحت عنوان:

Distribution des groupes sanguins en Afrique septentionale gene a:

وترى ماري كلود شاملا أنه لا يوجد فرق فيزيولوجي وانثروبولوجي بين المغاربة وأهل الريف وبين العناصر الصحراوية والريفيين (أي سكان المغرب الأقصى في الشمال).

وهناك تقاربا بين المغاربة والجزائريين، ولكن هناك فرقا بينهم وبين مجموعة الرحل.

وترى أن الأشقاء التونسيين أقرب إلى الشعامبة من الناحية العرقية. وهناك تشابها كبيرا بين المخادمة والرقيبات.

أما الطوارق الغربيون (وهو طوارق الجزائر) حسب دراسة فصائل الدم، يمثلون عنصرا مميزا لا علاقة له بالمجموعات العرقية أو الرحل.

أما الرقيبات، فهم أقرب عرقيا من الشعامبة والمخادمة، ولكن يوجد فرق جوهري بينهم وبين الرحل من زناته في غرب الصحراء الكبرى، مع العلم أن المخادمة أقرب من الناحية العرقية للشعامبة، لكن قبائل زناته يمثلون عرقا خاصا في المجموعات العرقية الأخرى.

وتخرج شاملا بنتيجة مفادها أن هناك فارقا أقل من الناحية العرقية بين الأهالي المستقرين، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار التباعد الجغرافي، وعكس هذا موجود بين مجموعات الرحل الصحراويين.

فعامل الفوارق الموجودة بين المجموعات المستقرة بما في ذلك العرب والبربر (وهم سكان منطقة القبائل، يتراوح المعدل ما بين 67 إلى 254، بينما نجد الفرق بين الرحل يتراوح ما بين 56و534 (صفحة 106) ومما يستحق ذكره، أن المؤرخين العرب (بما في ذلك الرحالة العرب) يجمعون أن الأصول العرقية الأولى للبربر، وأعني أهل المغرب القديم، أي سكان نوميديا وموريطانيا الغربية، فهم من أصل عربي، وموطنهم الأصلي جزيرة العرب في اليمن بالذات، وإتفق على ذلك العلامة إبن خلدون وإبن الأثير وأبي الحسن الوزان(المعروف بليون الإفريقي)، والإدريسي، صاحب كتاب " نزهة المشتاق"؛ فكلهم يذهبون إلى أن البربر من أصل عربي ونستطيع أن نعتبرهم كمصادر تاريخية موثوقة ولا أوافق ماري كلود شاملا عندما ترى وجود عناصر جزائرية تشبه الأوربيين فتنعتهم نعوتا غربية مثل: النموذج الأورمندي والنموذج الألبي وهذا تفسير خاطئ، لأن تشابه الملامح من الناحية الانثروبولوجية لا يعني بالضرورة أن المغاربة يمتون بصلة مع أهل منطقة الارمندي في فرنسا.

وإلا كيف نفسر وجود أعراب شقر البشرة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في قلب الجزيرة العربية؛ فهذا لا يبرهن من قريب ولا من بعيد أن بعض أهل الجزيرة العربية من أصل أوربي، وبخاصة أن المعطيات التاريخية لا تثبت إطلاقا أي هجرة أوربية في العصور القديمة نحو الجزيرة العربية، بينما الدلائل الأثرية واللغوية تبرهن وجود هجرات كبيرة لعرب الجزيرة نحو أرض المغرب العربي، ولا سيما إنطلاقا من اليمن نحو شمال الجزيرة مرورا بسيناء ثم مصر والمغرب العربي، وهناك تشابها كبيرا إلى اليوم من ناحية الملامح بين عرب أهل اليمن وأهل المغرب العربي، سواء كانوا عربا أم بربرا في الجزائر أو في المغرب الأقصى ببلاد السوس. ولنا شهادات المؤرخين العرب في ذلك، كابن خلدون، صاحب "العبر" وأبي الحسن الوزان، صاحب "وصف إفريقيا"، قال عبد الرحمان بن خلدون في كتابه "العبر"، الجزء(6)، صفحة 93 حول أخبار البربر وإلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فيورد إبن خلدون ما ذكره النسابون حول أصل البربر، فقال بعضهم أنهم من ولد إبراهيم عليه السلام، وقال آخرون، البربر يمنيون، وقال المسعودي من غسان وغيرهم تفرقوا عندما كان من سيل العرم وقيل تخلفهم أبرهة ذو الهار بالمغرب وقيل من لخم وجزام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها ملوك فارس، .فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر من النزول، فعبروا النيل وإنتشروا في البلاد وقال أبو عمر بن عبد البر: إدعت طوائف من البربر أنهم ولد النعمان بن حميد بن سبأ، قال: ورأيت في كتاب الحكم، أن النعمان بن حميد بن سبأ كان ملك زمانه في فترة وأنه استدعى أبناءه وقال لهم أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره فراجعوه في ذلك وزعم عليه وأنه بعث منهم أبا مسوف ومرطا أبا هسكورة وأضاك أبا صنهاجة ولمط أبا لمطة وإيلان أبا هيلانة، فنزل بعضهم بجبل دون وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة، ونزل بنو ورتجين ومغراوة بأطراف إفريقية من جهة الغرب.

ونزل مقر ونك بمقرية من طنجة والحكاية أنكرها أبو عمر وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم وقال آخرون أنهم كلهم من قوم جالوت، وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الأنساب له لا اعلم قولا يؤدي إلى القول من قال إنهم من ولد جالوت.

ولم ينسب جالوت ممن هو وعند ابن قتيبة أنه ونور بن هربيل ابن حديلان بن جلود بن رديلان بن زياد بن قحطان بن فارس قال وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم قالوا والبربر قبائل كثيرة وشعوبا جمة، وهي هوارة وزناتة وضرية ومغلية، وزيحوحة ونفزة وكتامة ولواتة وغمارة ومعمورة وصدينة ويزدران ودنجين وصنهاجة ومجكسة وواركلان، وغيرهم وذكر آخرون ومنهم الطير وغيره (مع رواية ابن خلدون في نفس المصدر) أن البربر أخلاط من كنعان والعمالق فلما قتل جالوت، تفرقوا وسماهم بربر وقيل أن البربر من ولد حام بن نوح بن بربر بن تملا بن أمازيغ بن كنعان بن حام.

وقال الصولي: هم من ولد بر بن كلاجيم بن مسراييم بن حام وقيل من العمالقة من بربر بن تملا بن مارب بن قاران بن عمر بن عملاق بن ولاد بن أرم بن سام.

وقال مالك بن المرحل البربر قبائل شتى من حميد ومصر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام وألغطوا فسماهم افريقش البربر لكثرة كلامهم وبسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلي أن افريقش احثهم لفتح إفريقية. وسماهم البربر .

أبي الحسن الوزان وعروبة البربر

إذا انتقلنا من ابن خلدون إلى أبي الوزان المعروف "بليون الإفريقي" صاحب وصف إفريقيا" نجده يؤكد على عروبة البربر، قائلا: لم يختلف مؤرخونا كثيرا في أصل الأفارقة فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا

إلى إفريقيا حين طردهم الآشوريون فأقاموا بها لجودتها وخصبها، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين أي الحميريين، الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الآشوريون أو الأثيوبيون منها ويدعى فريق ثالث - حسب الوزان - أن الأفارقة (أي أهل المغرب) كانوا يسكنون بعض جهات آسيا فحاربتهم شعوب معادية وألجأتهم إلى الفرار إلى بلاد الإغريق، الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إلى بلاد الإغريق، كان هذا خاصا بالأفارقة البيض، القاطنين في بلاد البربر ونوميديا (نفس المصدر ص27/28).. والأفارقة بمعنى الكلمة، فإنهم جميع مظاهر الأفارقة البيض والسود، فإنهم ينتمون تقريبا إلى نفس الأصل، ذلك أن الأفارقة البيض إما أن أتوا من فلسطين - والفلسطينيون ينتسبون إلى مصر أيم بن كوش. وإما من بلاد سبأ بن هامة بن كوش إنتهى إليه الوزان وسبأ مذكورة في التوراة لكن السبئيين في القرآن الكريم هم رعايا بلقيس ملكة سبأ اليمنية، التي جاءت سليمان (الآية رقم 27 من سورة النمل ج19 و15 من سورة سبأ)، وسبأ في الرواية العربية هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أول ملوك اليمن (حوالي القرن 20 ق.م) تفرق أولاده العشرة بعد سيل العرم، فكان أصولا منهم سكان الجزيرة العربية وأهل المغرب العربي وهذه الحقائق التاريخية تجعلنا نشك في صحة رواية ابن خلدون حول أصل البربر وكذا رواية أبي الحسن الوزان. ولذا، يمكن اعتمادهما كمصادر تاريخية صحيحة حول أنساب وأخبار أهل المغرب القديم.

والتاريخ يشهد انه يوجد في الجزائر (القطر) بمنطقة جرجرة عائلات جزائرية بربرية تفخر بنسبها إلى سلالة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، وعلى أساس أنهم جاءوا في الأصل من الجزيرة العربية ومنهم على سبيل المثال العائلات التي تحمل لقب آيت، وهذه العائلات مشهورة بأنها عائلات شريفة أو مرابطين وهناك دراسة مستفيضة عن أعيان مشهورين كعائلات

شريفة أو مرابطين وهناك دراسة في مجلة ليبيكا الصادرة عن مركز الانثروبولوجيا في الجزائر، قام بها مختصون جزائريون وفرنسيون، على كل حال نحن في أمس الحاجة إلى نظرة جزائرية جديدة للتاريخ، بعيدا عن كل ذاتية أو تطرف.

ولا يسعني في مقامي هذا إلا أن أذكر بكل فخر أن والدتي أمينة التهامي رحمها الله، هي من أصل بربري، وتتحدث الأمازيغية وهي من منطقة تافوغالت بجبال بني يزناس شمال مدينة وجدة المغربية، الذين أبدوا مساندة قوية للأمير عبد القادر في مقاومته الباسلة ضد الإستعمار الفرنسي الغاشم وقد سجل ذلك في التاريخ بحروف من ذهب. ويذكرنا بمقاومة أهالي جرجرة والأوراس ضد المحتلين الفرنسيين، هذا ومما يستحق ذكره أن أسرة والدتي يعدون من أشرف بني يزناسن الذين يعودون إلى سلالة الأدارسة الذين لهم مركز ديني في مولاي إدريس زرهون بالقرب من مكناس. وهذا يؤكد عروبة كثير من القبائل البربرية في بلدان المغرب العربي.

إن وجود الثقافة العربية في الجزائر والتي تضرب في أعماق التاريخ العربي للجزائر لا يحول دون وجود ثقافة شعبية محلية، يتم التعبير عنها بالبربرية وتكمن هذه الثقافة ما يصدر من شعر وغناء وفلكلور شعبي وتراث شعبي وهذه خصوصيات لا يمكن نكرانها.

ولكن يجب أن ننظر إلى هذا التراث المحلي في إطار واسع، يرسخ فينا جو التآخي والتسامح والمحبة والتآزر الثقافي من أجل المصلحة الوطنية والوحدة الوطنية ونحن في أمس الحاجة إلى ذلك في عهد الحريات وسيادة القانون.

ومما يستحق الإشارة إليه، أن المؤرخين الجزائريين مقصّرين كثيرا في ميدان دراسة الأنساب والألقاب دينيا وعرقيا وتاريخيا، وتوجد مصادر تاريخية موثوقة تخص القبائل المغربية، منها على سبيل المثال كتاب "العبر"

لعبد الرحمان بن خلدون (الجزء السادس والسابع)؛ الذي يمكن إعتماده كمصدر يخصّ تاريخ تحرّك وهجرة القبائل البربرية والعربية من منطقة إلى أخرى في القديم وفي العهد الإسلامي.

ولا يكفي الإعتماد على المصادر الأجنبية في دراسة الأنساب والألقاب المغربية، فلا بد من الإعتماد على المصادر العربية التي أرخّت حتى في التاريخ القديم وهذه المصادر لم تستغل بعد كما يجب مع الأسف.

فلابد أن نستغل ونستثمر الكتابات والدراسات العربية، مثل كتاب "العبر" لابن خلدون وكتاب "التاريخ" للطبري وكتاب "أخبار الرسل والملوك" للطبري وكتاب "نهاية الأدب في معرفة العرب" للقلقشندي وإبن منصور صاحب المعجم وكتاب "لسان العرب"؛ حيث يتعرض في معجمه إلى الألقاب والأنساب وكتاب "الأنساب" للسمعاني.

وهناك ظاهرة تاريخية نلاحظها اليوم، وهي أن الجزائريين بطبعهم يحافظون على شجرة النسب في عدة مناطق جزائرية الشمالية منها والجنوبية، سواء أكانوا من أشراف القبائل أو من أشراف تيهرت أو من أشراف منطقة عنابة أو من أشراف وادي سوف، وهذا يبرهن على مدى تعلق الجزائريين بأصولهم الأولى.

في الأخير، أود أن ألفت النظر في نهاية هذه المقدمة، أنه لا يوجد في العالم بأسره سلاله بشرية صافية، وكما أشرت من قبل؛ فالأنثروبولوجيا التي تحدثت عنها، تعتمد في تحاليلها ونتائجها على فصيلة الدم لتحديد عرق معين، وهناك عوامل عديدة لها فعاليتها في التكوين العرقي منها المناخ والتغذية والأسلوب التربوي المتبع، ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك، أنه لا توجد سلالة صافية في العلم ؛ فقامة الرجل الياباني زادت بنسبة 10 سنتم على مدى قرن واحد، أي منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، مع العلم أن اليابان لم تعرف من الناحية التاريخية اجتياحًا قويا لشعوب أجنبية عليها، وفي هذا

السياق لو قام الأنثروبولوجيون التقليديون والمورفولوجيون بدراسة انثروبولوجية لليابانيين منذ عدة قرون، ثم يقارنون بينهم وبين اليابانيين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر ثم أولئك الذين يعيشون في القرن العشرين، لظنوا أنهم أمام عرقين مختلفين، رغم أنهم جميعا من أصل واحد.

واليابانيون الأوائل (الذين عاشوا قبل القرن التاسع عشر) كانوا يأكلون قليلا من اللحم بينما اليابانيون في العصر الحاضر يتغذون من أغذية غنية بالبروتينات، وهذا يفسر ما وقع من تغير طارئ في قامة الرجل الياباني.

خلاصة القول، أن البحث العلمي الانثروبولوجي الحديث، أثبت أنه لا يوجد عرق معين ينتمي إلى فصيلة دم مختلفة محددة، ونفس الشيء نجده في جهة أخرى؛ بحيث أن جميع الفصائل نعثر على مثيلاتها وأشباهها وأشكالها في مناطق مختلفة من أنحاء العالم.

المجتمع اللوبي القديم

إن ما عثرنا عليه من أدوات الزينة وأواني مزخرفة وأسلحة ليبية قديمة، تبين لنا أن اللوبيين كانوا في تطور حضاري نسبي أقل تطورا من الرقي الذي شهدته مصر الفرعونية مثلا، وعلى كل حال كان اللوبيون يعيشون حياة إجتماعية تطورت تطورا بطيئا عبر التاريخ القديم منذ العصر الحجري إلى عصر فجر التاريخ. أما عائلة المجتمع اللوبي في عصر ظهور الكتابة، وكذا في بداية قيام النظام الملكي الوراثي في نوميديا، فكانت هي العائلة الملتفة حول الرئيس، وهو الأب ذي السلطة المطلقة والنفوذ الواسع والعائلة اللوبية، كانت ذات نظام أبوي أي نظام الأبوة المرتكز على سلطة الأب الذي هو رب العائلة، فكلمة العائلة لم تكن تدل على الأسرة مثلما نفهمه ونتصوره اليوم، أي جملة الأقارب التي تربطهم وتجمعهم صلة الرحم وروابط الدم، بل كانت العائلة تعني العرش والأهل والعشيرة، أي جملة الأشخاص الذين هم خاضعون كلهم من

نسل جد واحد، ومن سلالة أصل واحد، والذين يخضعون لسلطة رئيس واحد، وكل من ينضم إلى العائلة سواء بالزواج والإقتران والمصاهرة أو التبني، يصير خاضعا لتلك السلطة فرب العائلة كان له النفوذ المطلق على جميع أفراد عائلته بما في ذلك زوجاته اللواتي كان يأمرهن للقيام بالأعمال والأشغال المختلفة. أما بناته، فكان رب العائلة يشهرهن للبيع العائلي بالمزايدة، وكان يزوجهن بمن يشاء. ويشتهي ويبقيهن تحت سلطته رهن إشارته، وعند وفاة رب العائلة، فإن السلطة لا تنتقل إلى أكبر أبناءه، بل إلى كبير العائلة من الذكور.

ونلاحظ أن تعدد الزوجات، الذي كان قائما في المجتمع الليبي القديم، وقد أورد ذلك هيردوت في كتابه التاريخي، قد أعان على كثرة الأولاد بكيفية كبيرة، مع العلم أن نظام العائلة الذي كان موجودا عند الطوارق الملثمين ليس هو نظام الأبوة، بل هو نظام الأمومة، فالأم عندهم هي التي تعطي إسمها لأولادها، وهي التي تعود إليها سلطة المنزل ولا يرث الأولاد من أبيهم بل يرثون من خالهم.

وإن ضرورات الحياة البدوية والفلاحية والشعور بالحاجة إلى السلامة والأمن والطمأنينة كل ذلك كان حافزا على تكوين مجموعات بشرية نوميدية أكبر وأوسع من العائلة لتأمين سلامة الجماعات من شر وعدوان محتملين، وهذه الجماعات تتمثل في القبائل. أما الخلايا التي تكون القبيلة، فهي العائلة.

والرعاة ينضمون إلى بعضهم للإشتراك في إستعمال أراضي الكلأ والمرعى. والمستقرين من الفلاحين يشيدون القرى والقلاع والأبراج لحفظ أموالهم المشتركة ولمقاومة هجومات أعدائهم الألداء،وهم الرحل من أهل البادية أو لصد غاراتهم ودفع ضررهم.

وسكان هذه القرى يكونون شبه جمهوريات صغيرة خاضعة إلى حكم الجماعة، وعلى رأسها كبار القوم الذين تجمعهم خصال حميدة من وقار وتجربة وبعد نظر.

تصور ياقوت الحموي لإفريقيا

قال ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان أن إفريقية بكسر الهمزة : هو إسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية ، و ينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة عنها إلى جهة المغرب وسميت إفريقية بإفريقيس بن أبرهة ابن الرائش، وقال أبو المنذر هشام بن محمد : هو إفريقيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان وهو الذي إختطها، وذكروا أنه لما غزا المغرب إنتهى إلى موضع واسع[1] رحيب كثير الماء ، فأمر أن تبنى هناك مدينة فبنيت وسماها إقريقية، إشتق إسمها من إسمه ثم نقل إليها الناس ثم نسبت تلك الولاية بأسرها إلى هذه المدينة ، ثم إنصرف إلى اليمن ، فقال بعض أصحابه :

سرنا إلى المغرب في جعفل
بكل قرم أريني همام
نسري مع أفريقيس ، ذاك الذي
ساد بعز الملك أولاد سام
نخوض بالفرسان ، في مأقط
يكثر فيه ضرب أيد وهام
فأضحت البربر في مقعص
نحو سهم بالمسر في الحسام
في موقف ، يبقى لنا ذكره
ما غردت ، في الأيك ورق الحمام

ويواصل ياقوت الحموي[2] قائلا أن أبي عبد الله القضاعي ذكر أن إفريقية سميت بفارق بين بيصر بن حمام بن نوح عليه السلام ، قالوا : فلما إختط

---

1. يقوت الحموي معجم البلدان ص 228 المجلد الأول دار صادر/ بيروت 1994.
2. نفس المنصدر ص 228.

المسلمون القيروان حاربت إفريقية وبقي اسمها على الصقع جميعه؟ و قال أبو الريحان البيروني أن أهل مصر يسمون ما عن أيمانهم إذا استقبلوا الجنوب بلاد المغرب ، ولذلك سميت بلاد إفريقية وما وراءها بلاد المغرب يعني أنها فرقت بين مصر والمغرب فسميت إفريقية لأنها مسماة باسم عامرها وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل : إلى مليانة[3] ، فتكون مسافة طولها نحو شهرين و نصف ، وقال أبو عبيد البكري الأندلس : حد افريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان، وهي جبال ورمال عظيمة متصلة من الشرق إلى الغرب ، وفيه يصاد الفنك الجيد[4]

نظرة كريخال لإفريقيا و البربر

أما مارمول كريخال كتاب إفريقيا في ثلاثة أجزاء ذكر أنه اقتبس اسم جزء العالم المسمى بإفريقيا من أحد أقاليمه حيث كانت قرطاجنة قديما، ويسميها بطلموس ليبيا باسم أحد أقاليمها الأخرى المتاخمة لمصر من جانب الصحراء وكان العرب قديما قد أطلقوا إسم "البر" على جميع هذه الصحاري ومعناه : "الأرض المقسمة" و يقول ابن الرقيق، وهو مؤلف إفريقي قديم، في كتابه شجرة أنساب الأفارقة إن إفريقيا أطلق عليها اسم أحد ملوك اليمن وهو مالك الإفريقي ويحكى أن هذا الأمير هزم قرب النيل[5] من لدن شعوب إثيوبيا العليا، وأنه إجتاز هذا النهر لما رأى أنهم تمكنوا من الممرات التي كان لابد أن يعود منها، ولم يكن أي سبيل أخر من دونها، فقطع صحاري ليبيا انطلاقا من هناك

---

3. نفس المنتصدر ص 228

4. نفس المصدر ص 228

5. مارمول كريخال إفريقيا الجزء الأول ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر أحمد التوفيق، أحمد بنجلون ص 14 .

إلى أن وصل إلى الجزء الشرقي من البربر حيث أقام بأرض خصبة ذات مراع كثيرة[6]، وأطلق عليها إسم إفريقيا كما يسميها الأهالي حتى الآن، ولكن الأجانب يقلبون الكسرة فتحة فتصير إفريقيا، ولهذا فان الجغرافيين الأفارقة لا يدرجون تحت هذا الاسم سوى مملكة تونس، ولا يدخلون في إفريقيا إلا الجزء الشرقي منها ويعتقد بعض المؤلفين من الأهالي، حسب مارمول[7]، أن اسم إفريقيا محرف ومشتق من "فرق" التي تعني باللغة العربية الشيء المقسوم أو المفصول لأنها جزء من التراب يفصله البحر عن أوربا كما يفصله عن أسيا خليج الجزيرة العربية والمضيق الموجود بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، ويثبت يوسف في كتاب الآثار القديمة أن لفظة إفريقيا مشتقة من عفر بن مندنيس الذي جاء من اليمن[8] ليقيم بليبيا ويرى غيره أنها مشتقة من أفريجية بمعنى شيء آمن[9] لكن الاشتقاق الأول هو الأفضل في رأي مارمول، فتدرج تحت اسم المحيط، والبحر الأحمر، وساعد النيل الأكبر المتجه نحو الشرق الذي يصب في البحر المتوسط أمام جزيرة قبرص. وحسب ما أورده مارمول فإن بطليموس يقسم إفريقيا إلى اثنى عشر جزء أو إقليما تكون البلدان الآتية، ابتداء من المغرب: الموريطانيتان نوميديا الجديدة، إقليم إفريقية، ليبيا السرينيكية، مرمريك، مصر السفلى، تيبابيد، ليبيا الداخلية، الاثيوبيتان ويظهر جليا في الخريطة الرابع لليبيا وأكثر من ذلك في كتابه الرابع، أن آخر جزء يضعه وراء خط الاستواء جنوبا يقع قرب الدرجة الخامسة عشرة من خطوط الطول، حيث يجعل برأس ابديزا مزنبيق على بعد ثماني درجات من الخط، أما الباقي انطلاقا من هذا الرأس صوب الجنوب، الذي يشمل نحو خمس عشرة أو ست عشر ة درجة، فكان بطليموس يجهل معظمه، كما يقول هو نفسه في

---

6. نفس المصدر ص 14
7. نفس المصدر ص 15
8. نفس المصدر ص 15
9. يرى بوشار كما جاء في الهامش من كتاب إفريقيا أن أفريكية معناها أرض التوابل في اللغة البونية وهو اشتقاقها الحقيقي ص 15

آخر الكتاب، حيث يبرز أنه إبتدأ من جنوب الأرض الآهلة إلى القطب الأنطرتيكي تمتد أراضي مجهولة على طول ثلاث وسبع عشر دقيقة وقد إكتشف البرتغاليون هذه البلاد في عصرنا الحاضر[10].

أخبار اللوبيين في المصادر الفرعونية

فيما يخص اللوبيون الذين كانت لهم علاقة وثيقة مع القرطاجيين والذي هو موضوع أطر وحتى هذه ، فمن يكون هؤلاء يا ترى ..؟

ومن أين جاء أولئك الذين فرضوا أنفسهم على مسرح التاريخ في إفريقيا الشمالية القديم؟

وحسب المعطيات التاريخية إعتمادا على المصادر الفرعونية، والإغريقية، واللاتينية فان هناك مادة هامة حول أخبار اللوبيين من خلال وثائق فرعونية قديمة ، فلوحة نعرمر[11] تبين لنا انتصارات الفرعون على اللوبيين وجرى ذلك في 3300 ق. م وتذكرهم النصوص باسم تيهينو و يبدون في الرسوم المنقوشة على الحجر مسلحين بالسهام والمرتدات، وهناك تماثل مرسومة تمثل الحروب التي خاضها ملوك الأسرة الخامسة الذين جعلوا من مدينة منف عاصمة ملكية ، وقد وضعت هذه الأسرة الفرعونية حدا للفوضى التي واكبت دخولهم إلى مصر في حوالي 2600 ق م وكانت هذه الحروب حاسمة حيث أدت إلى تخفيف حدة التهديدات والاجتياحات اللوبية على مصر حتى نهاية الإمبراطورية الوسطى[12] وصد رمسيس الثاني هجوما ليبيا على مصر ثم عقد معهم هدنة وجند منهم مجموعة هامة لمواجهة خطر الحيثيين[13] في بداية القرن 13 ق م الثالث عشر قبل الميلاد.

وهاجم اللوبيون مصر في 1227 ق م ولم يكن لهذا الهجوم أي مفعول يذكر.

10. نفس المصدر ص 16

11.Voir L . BALOUT "Le Maghreb Oriental avant carthage, Archéologie vivante vol D2s 1968, Fér. 1969, N-2

12. نفس المرجع ص Id Idid P. 14

13. نفس المرجع ص Id Idid P. 14

علاقة المشرق باللوبيين القدماء

قام علماء الآثار وعلماء الانتربولوجيا بأبحاث تدعم و تساند فكرة عروبة أهالي المغرب القديم، فهناك صلات وروابط كانت قائمة بين المغاربة وأهالي المشرق العربي القديم ففي العصر الحجري الأوسط عثر على فك إنسان ينتمي إلى هذه المرحلة[14] في كهف (هوافتيح) عرب درنة واستخدم الكربون 14 لمعرفة الفحم الخشبي الذي وجد في موقد هذا الموقع والمنتمية لهذه المرحلة وأعطي سنة 43000 ق م كتاريخ له، وثبت من الدراسات المقارنة وجود تشابه هذا الإنسان مع إنسان نياندرتال في فلسطين العربية. كما أن هذا التشابه أيضا يمكن ملاحظته في الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة مما يجعلنا نستنتج وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربي آسيا وجنوب شرقي ليبيا وأجزاء أخرى من منطقة نوميديا (أي الجزائر القديمة).

وإزدادت الاتصالات والعلاقات في وقت لاحق بين إفريقيا الشمالية والمشرق العربي فالمعطيات التاريخية تشهد أن الليبيين حاولوا غزو مصر بصفة كلية[15] كما سلف ذكره، ولوحظ أن أسماء زعمائهم يذكرنا بأسماء النوميديين وليس مستبعد أن هذه القبائل الليبية جاءت من منطقة الأطلس، ووجدت كتابات ليبية في سيناء. وهناك قرابة لغوية بين الكتابة اللوبية والأبجدية العربية التي نجد معقلها وموطنها في الجزيرة العربية وتم العثور على كتابة لوبية في سيناء وفي دلتا النيل، ويعبر ذلك عن الوجود اللوبي في قلب مصر القديمة في فترات تاريخية معينة[16].

ولاحظ المعنيون بلغات (الشرق الأدنى) وجود تشابه كبير لغوي بين البابلية الكنعانية، والعبرانية، والفينيقية والآرامية واللهجات العربية الجنوبية،

---

14. أحمد السليماني، من اجل كتابة موضوعية لتاريخ الجزائر والمغرب القديم في مجلة التاريخ عن المركز الوطني للدراسات التاريخية رقم 20 النصف الثاني من 1985 ص 87/96.

15. G,H Bousauet les Ber be:es P.26 /Press Universitaire de France.

16. نفس المرجع ص 26 Id IBIB

والحبشية، والنبطية، والبربرية، والتفناغ، فهي تشترك أو تتقارب في أمور أصلية وأساسية من جوهر اللغة، وذلك في مثل جذور الأفعال، وأصول التعريف، وتعريف الأفعال، وفي زمني الفعل الرئيسيين، وهما : التام والناقص، أو الماضي والمستقبل، وفي أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة[17] الدموية و الأعداد، وبعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسية، وفي تغير الحركات في وسط الكلمات الذي يحدث تغيرا في المعنى، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين، وفي أمور مشابهة أخرى، فقالوا بوجوب وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الشعوب، وأطلقوا على ذلك الأصل، أو الوحدة (الرس السامي) أو الجنس السامي وعلى اللغات التي تكلمت بها هذه الشعوبLa race sémitique أو الأصل السامي (اللغات السامية).

وقد اخذ من أطلق هذه التسمية، تسميته هذه من التوراة أخذها من اسم سام بن نوح جد هذه الشعوب الأكبر كما هو وارد فيها، وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء علما على هذه الشعوب عالم نمساوي اسمه اوغست لودويك شلوستر[18] أطلقها عام 1781 م، فشاعت منذ ذلك الحين، وأصبحت عند العلماء والباحثين في موضوع لغات الشرق الأدنى علما للمجموعة المذكورة عند الشعوب، وقد أخذ (أيشورهن هذه التسمية، وسعى لتعميمها بين العلماء علما على الشعوب المذكورة[19].

وفي عام 1869م قسم علماء اللغات السامية إلى مجموعتين "المجموعة السامية الشمالية، والمجموعة السامية الجنوبية" والسامية بهذا المعنى هي مجرد اصطلاح، قصد به التعبير عن هذه الروابط أو الظواهر التي نراها بين الشعوب المذكورة.

17. أنظر جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ح 1 ص 222 دار العلم لملايين بيروت الطبعة الأولى مايو 1986.

18. نفس المرجع ص 223.

19. نفس المرجع ص 223.

موطن الساميين

أما عن موطن الساميين الأول فيري فلبي (Philby) في دراساته المسهبة لأحوال جزيرة العرب إلى أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين، وفي هذه الأرض نبتت السامية[20]، ومنها هاجرت بعد إضطرارها إلى ترك مواطنها القديمة لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره، منذ عصر الباليولتيك هاجرت في موجات متعاقبة حملت معها آلهتها، وأولها الإله "القمر" وحملت معها ثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام، ومنه القلم الفينيقي[21].

جزيرة العرب مهد السامية

على كل حال هناك أدلة دينية ولغوية، وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح إلى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين[22]، وقد عارض هذه النظرية طائفة من علماء الساميات، منهم العالم بلكريف الذي رأى أن إفريقيا هي المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين.

وقد كون رأيه من وجود تشابه في الملامح، وفي الخصائص الجنسية، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب[23] دفعته إلى القول بأن الوطن الأول للساميين هو إفريقية أما العالم جيزلند برنتن Brinton يرى أن شمال غربي إفريقية ولاسيما منطقة جبال الأطلس جعلها الموطن الأصلي للساميين وهذه النظرية تتسم بالضعف، ومن مواطن ضعفها أنها غضت الطرف عن الإعتبارات التاريخية وإستسلمت لدراسات لم تتضح بعد، فمن الممكن مثلا إرجاع ما لاحظه علماء اللغات السامية واللغة المصرية القديمة إلى عوامل

20. نفس المرجع جواد علي ص 223
21. نفس المرجع جواد علي ص 223
22. نفس المرجع ص 223
23. نفس المرجع ص 223

الهجرات السامية من جزيرة العرب وعن طريق سيناء إلى إفريقيا مثل هجرة (الهكسكوس) وهم من أصل سامي جاءوا مصر من بلاد العرب وقد ثبت أيضا من تحقيق العلماء أن كثيرا من الألفاظ المصرية القديمة التي كانت تطلق على الأقسام الشرقية من الديار المصرية هي أسماء سامية.

وإذا سوغ علماء النظرية الإفريقية لأنفسهم الاستدلال على إفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية واللغات السامية مثلا، فان من الممكن إرجاع هذه إلى أثر الهجرات السامية في اللغة المصرية.

أما تقارب الحبشية من اللهجات العربية الجنوبية وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند فلا يكون دليلا قاطعا على هجرة الساميين من إفريقية عن الحبشة إلى جزيرة العرب، إذ يجوز العكس، وقديما هاجر الساميون[24] من العربية الجنوبية إلى الحبشة والساميون هم الذين كونوا دولة أكسوم التي كانت تتكلم باللغة (الجغرية)، وهي لغة سامية، كما أن قلمها الذي يشبه قلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي وكتابات (بها) (يجا) المكتوبة بالمسند، في حد داتها دليل على أثر العرب الجنوبيين في الأفارقة "الكوشيين" [25] نسبة لحضارة كوش وهذه الكتابات حديثة عهد بالنسبة إلى كتابات ا لسبئيين كما يمكن اعتبار تشابه أسماء بعض الأماكن القديمة في الحبشة مع نظائر لها في اليمن ووجود معبد في الحبشة خاص بالإله (المقة) إله سبأ العظيم[26]، أمور أخرى دينية و لغوية وأثرية واعتراف الأحباش منها اسمهم في اللغة العربية هي مقاطعة تقع في العربية الجنوبية في رأي أكثر العلماء وأن (الأجاعز) أصحاب اللغة الجعزية هم أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة، ووجود صلات قديمة بين الساحلين الإفريقي والعربي، إذا تمعنا في كل هذه الأمور بنظرة علمية، نجد أنها تجعل فكرة القائلين أن أصل الساميين من

24. نفس المرجع ص 237

25. نفس المرجع ص 237

26. نفس المرجع ص 237

إفريقية صعوبات ليس من السهل التغلب عليها، ولاسيما إذا أضفنا إليها الأثر الذي تركته اليهودية والنصرانية في الأحباش وفي الشعوب الكوشية الأخرى فقرب ثقافتها من الثقافة السامية وأثر لغتها، وهو أثر يجب أن يقام له وزن عند بحث هذا الموضوع ثم أن كثيرا من علماء الانتربولوجيا يرون أن إفريقية تأثرت بالدماء الآسيوية أما تأثيرها في دماء أهل الشرق الأدنى وفي دماء سكان جزيرة العرب، فقد كان قليل لقد دخلت إليها دماء شعوب الشرق الأدنى من البحر المتوسط ومن طور سيناء ومن مضيق باب المندب، و يظهر أثر هذا الاختلاط واضحا في إفريقيا الشرقية وإفريقيا الشمالية[27]، و مازال هذا التأثير واضحا حتى اليوم[28].

وهناك نظرية لها صبغة جدية، وهي تتمثل في أن اللغة البربرية هي جزء من اللغات الحامية السامية، وحسب أنصار هذه النظرية فإنه توجد بنيوية عميقة في الجانب النحوي syntaxiques بين اللغات الحامية والسامية علاوة على أن هناك عدد كبير من الجذور الكلامية أو الأصول الكلامية تعد مشتركة بين اللغات الحميرية والحامية والعربية والبربرية. وهكذا نجد أن الأبجدية البربرية أي تيفيناغ والكتابة الليبية قرابة شديدة مع الأبجدية العربية الموجودة في الجزيرة العربية[29].

هيرودوت والليبيون القدماء

فيما يتعلق بالمصادر الإغريقية حول الليبيين يمكن أن نعتمد على أخبار الليبيين عند هيرودوت أبو التاريخ وهو مؤرخ إغريقي يعد من أقدم المصادر التاريخية الموثوقة عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ولد في هاليكارناس خلال عام 484 ق.م وتوفي في "توريوا" عام 425 ق.م ويعد هيرودوت من

24. نفس المرجع ص 237
25. نفس المرجع ص 237
26. نفس المرجع ص 237

الرحالين المشهورين في القديم، وتعرض في كتابه التاريخ العالمي إلى قضايا الصراعات والخلافات التي كانت قائمة بين شعوب الشرق القديم وأسهب في الحديث عن موضوع العلاقات بين الإغريق والفرس.

وتحدث في مؤلفه إلى تقاليد وعادات الليبيين، وكان يعتقد أن القبائل الليبية تتوزع على عدة مناطق فانطلاقا من مصر يسمى الليبيون الذين شاهدهم وكانوا يدعون بالإديرماشيديون وكانت لهم نفس تقاليد المصريين، ولكن لباسهم لا يختلف عن لباس بقية الشعوب الأخرى[30] في ليبيا، وتضع نساء هذه القبيلة خلخال نحاسي في كل ساق، ويطلقن شعورهن، وإذا أصابهن لإحداهن قمل في الرأس تمتص الواحدة منهن شعر الأخرى ثم تبصق ما تجده في شعرها، ومما أورد هيرودوت أخبار تخص تقاليد[31] الليبيين وهو أن الطفل عندما يبلغ أربعة أعوام تحرق أوردة الرأس والأصداغ أحيانا بقطعة صوف، ولهذا الغرض تجنبهم في وقت لاحق التهابات الرأس، ولكي يتمتعون بصحة جيدة[32]. وإذا نتج عن العملية هيجان عند الطفل فيعطى له دواء جاهز يتمثل في رشه ببول التيس.

ويمدح هيرودوت الليبيين الذين كانوا في رأيه أقوى شعب معروف صحيا[33]. أما تقديم القرابين فيجري بطريقة متبعة حيث تقطع أذن الضحية وترمى في أعلى المسكن أي في السطح ثم تلوي رقبة الحيوان[34] يقدم الليبيون القرابين إلى الشمس والقمر، بينما يتقرب السكان المقيمين على ضفاف

30. أنظر هيرودوت التاريخ العالمي المترجم إلى الفرنسية من الإغريقية قام بترجمتها بركيت A. Barguet صفحة 346 نشر كالمار 1964 بلجيكا وقمت شخصيا بالترجمة من الفرنسية إلى العربية لنصوص هيرودوت حول الليبيين وستنشر في وقت لاحق أخبار الليبيين عند هيرودوت في كتاب خاص باللغة العربية.

31. نفس المصدر ص 346.

32. نفس المصدر ص 346.

33. نفس المصدر ص 346.

34. نفس المصدر ص 346.

بحيرة تريتوننيس يقدموه ضحايا القربان إلى الآلهة أثينا، وتريتون وبوزيدون[35] الملابس الموجودة على تماثيل أثينا مستوحاة من ثياب الليبيات، غير أن لباس النساء الليبيات مصنوع من الجلود وأهدابه متكونة من قطع جلدية مستطيلة بلد جلود الثعابين، كما تضع الليبيات على فساتينهن قطعة من جلد الماعز بعد نزع[36]صوفها وتنميقها بالسيور وصبغها بالون الأحمر ويرى هيدوروت أن عويل وصياح نساء الإغريق أثناء أداء الطقوس الدينية يوجد نفس الأمر عند الليبيات اللواتي يقمن بذلك بصفة أكثر كما أن إستخدام أربعة خيول في جر العربة العسكرية هي صناعة فنية ليبية اقتبسها منهم اليونانيون[37].

الماكسيون (MAXYES) والفلاحة

في غرب نهر تريتون (Triton) هناك جماعة من الليبيين يفلحون الأرض ويبنون المنازل، إنهم الماكسيون الذين يطيلون شعورهم من الجهة اليمنى للرأس ويحلقون بقية شعرهم، ويدهنون أجسامهم بالزنجفر، ويزعمون أن أسلافهم من طروادة.

وبلادهم كباقي ليبيا من جهة الغرب، مليئة بالحيوانات المتوحشة، والغابات الكثيفة عكس بلاد الرحل من ناحية الشرق مسطحة ومكسوة بالرمال حتى نهر تريتون، وابتداء من هذا النهر في اتجاه الغرب نجد في هذه المنطقة[38]الليبية شعوبا مستقرة وجبالا تغمرها الحيوانات المتوحشة كالأسود، والثعابين الضخمة، والفيلة، والدببة والأفاعي السامة الغيرة والحمير ذات القرون ومخلوقات لها رؤوس كلاب ومخلوقات بدون رؤوس عيونها في صدورها (حسب الليبيين) كما كانت تعيش هناك[39] مخلوقات أخرى إلى جانب الرجال

35. نفس المصدر هيرودو ص346
36. نفس المصدر هيرودوت التاريخ العالمي ص346.
37. نفس المصدر هيرودوت ص346.
38. نفس المصدر ص347.
39. نفس المصدر ص347.

والنساء المتوحشين أما الرحل فلم يكونوا على علم بهذه الحيوانات بل كانت تعيش وسطهم حيوانات أخرى كالغزال ذات الأرداف البيضاء واليحمور والضبي والحيرم[40] ونوع من الحمير بحجم الثور بدون قرون وهو لا يشرب الماء، والضبع، والكبش الوحشي، وابن آوى، والنمر والتمساح البري الذي يبلغ طوله ثلاثة أذرع تقريبا ويشبه السحالي، والنعامة وثعابين صغيرة ذات قرن واحد[41] بالإضافة إلى هذه الحيوانات كانت تعيش حيوانات أخرى، ماعدا الخنزير البري والأيل اللذان لم يثبت وجودها في ليبيا[42].

ويرى هيرودوت أن اللوبيين الأوائل الذين جاءوا من الموطن المصري يدعون الأدريما شديون الذين كانت لهم على العموم نفس عادات المصريين، أما لباسهم فهو مثل لباس اللوبيين ونساءهم يضعن حلقة نحاسية في كل ساق (وهو معروف بالخلخال في أيامنا هذه)[43] والطريف في الأمر أن هيرودوت يذكر أن نساء هذه القبيلة الليبية كان لهن اهتمام كبير بشعورهن فعندما يلاحظن القمل في الرأس يلتقطنه بأسنانهن ويلفظنه أرضا.

ولعل هذه عادة خاصة باللوبيات وينفرد اللوبيون بعادة تقديم العذارى على أهبة الزواج للملك فإذا أعجب بإحداهن فض بكارتها، ويقع موطن الأدريما شديون بين مصر وميناء بلينوس Plynos ويورد هيرودوت لنا أخبارا عن القبيلة الليبية الجيلكاميون Giligames وهم يقيمون بالقرب من جزيرة أفروديسياس Afrodisaias ولهم نفس عادات اللوبيين الذين سلف ذكرهم.

أما النسامون الذين كانوا يقيمون في سرت الكبرى (NASAMONS) في الناحية الغربية فهيرودوت يقول أنهم يمثلون شعبا كبيرا، وكانوا يتركون

---

40. نفس المصدر ص347.

41. نفس المصدر ص347.

42. نفس المصدر ص347.

43.

قوافلهم على شاطئ البحر ويصعدون إلى بلاد أوجيلا لقطف التمور، لأن النخيل موجودة بكثرة ومثمرة ومن عادة هؤلاء اصطياد الجراد الذي يجففونه بأشعة الشمس ثم يطحنونه ويأكلونه بعد مزجه بالحليب. وكان من عادتهم تعدد الزوجات la polygamie كما أنهم يشتركون في مضاجعة النساء وعندما يريد أحدهم أن يجامع امرأة يشير إلى الموقع الذي اختاره بواسطة عصا[44].

وعندما يتزوج النساموني لأول مرة في حياته تسلم العروس نفسها لكل المدعوين في ليلتها الأولى[45]، وكل من يضاجعها يقدم لها هدية يأتي بها من بيته، ويمارسون طقوسهم الدينية عن طريق لمس قبور الأشراف ويقسمون بها، كما أنهم يتوجهون إلى نصب أسلافهم وينامون عليها بعد العبادة[46].

ويتحدث هيرودوت عن السيليون، والجرامانتيون Garamantes وهم يوجدون في منطقة فزان في الجماهيرية الليبية اليوم وتعتبر هذه الجهة مملوءة بالحيوانات المتوحشة ومن عادة الجرامنتيين حسب هيرودوت أنهم يتجنبون مصاحبة الناس ولا يملكون أي سلاح يذكر للدفاع عن أنفسهم[47].

ويذكر لنا هيرودوت الماسيون الموجودون في منطقة سيرت الصغرى (في أقصى غرب الجماهيرية حديثا) Maces ومن عادتهم حلق كل الرؤوس إلا الأعلى حيث يبقى الشعر ناميا وهم يحمون أجسامهم أثناء الحرب بجلود النعام، ويمر عبر أراضيهم نهر سينيبس Cinyps الذي يأتي من مرتفع يسمى هضبة غراس ليصب في البحر.

ويتحدث هيرودوت عن الأوزيين والأتاراسنتيين، ويخبرنا عن أحوال الكرامانت فقال أنهم كانوا في حالة حرب دائمة مع الإثيوبيين ساكني المغارات

44 أنظر هيرودوت الباب 172 من التاريخ العالمي في الفصل المتعلق بالليبيين القدماء- قمت بالترجمة الحرفية لهذا الفصل.

45. نفس المصدر البابـ172 أو الفقرة المرقمة بـ172.

46. نفس المصدر هيرودوت172.

47. نفس المصدر هيرودوت174.

الذين يستعملون أثناء الحرب العربات الحربية ذات أربعة خيول ولكن هؤلاء الإثيوبيين الذين سلف ذكرهم أسرع الناس جريا حسب علم هيرودوت[48]، وهم يأكلون الثعابين والزواحف، أما لهجتهم فهي غريبة وتشبه الصيحات الحادة للخفافيش[49].

ويحدثنا هيرودوت عن الأتارانت الذين لا يحملون أسماء خاصة بهم ماعدا إسم القبيلة السالف ذكرها. وهم يكرهون الشمس لحرارتها المفرطة[50]. ويقولون أن الشمس تعذبهم وترهق بلدهم[51] أما الأطلنطيون حسب هيرودوت فهم لا يأكلون أي شيء يمت إلى الكائنات الحية كما أنهم لا يحلمون أثناء النوم، وتصور هيرودوت هذا فيه بعض المبالغة، مع العلم أن الأطلنطيين هم السكان الذين كانوا يقيمون في الصحراء الغربية اليوم، ويذكر هيرودوت أخبارا حول بعض عادات اللوبيين المقيمين بين مصر وبحيرة تريتونيس حيث يعيش اللوبيون الرحل الذين يأكلون اللحم ويشربون الحليب لكنهم مثل المصريين يمتنعون عن أكل لحم البقر ولحم الخنزير تمجيدا للألهة إيزيس المصرية.

تقوم نساء قبيلة السيرنيين بالصيام وتنظيم الحفلات ويمتنعن عن أكل لحم البقر والخنزير[52]. ويحدثنا هيرودوت عن النسامون الذين يدفنون الموتى جالسين ثم يعرج على الماكسيين الذين يقطنون المنازل ويحلقون كل رؤوسهم ماعدا الجهة اليمنى، كما أنهم يدهنون أجسامهم بالزنجفر (السكنجبر)[53].

48. نفس المصدر الباب187.
49. نفس المصدر الباب187.
50. يقع موقع الأتارانت في الصحراء الوسطى أنظر كامبس ماسينا أو بداية التاريخ بالفرنسية ص
51. نفس المصدر الباب184.
52. نفس المصدر الباب186.
53. نفس المصدر هيرودوت الباب191.

مع العلم أن موطن الماكسيين حاليا هو شمال الجريد في تونس ويذكر هيرودوت الجيسانتيون الذين يربون النحل الذي ينتج عسلا غزيرا في بلادهم، ويقال أن لديهم عمال مهرة يتقنون أعمالا كثيرة، وهم كذلك يدهنون الأجسام بالزنجفر، ويأكلون القردة الموجودة بوفرة في الجبال المجاورة[54].

أما عن الوطن الليبي الكبير فيرى هيرودوت أن هذه البقعة من العالم سكنتها أربعة شعوب هم الليبيون والأثيوبيون الذين يسكنون شمال وجنوب ليبيا، وهناك شعبان أجنبيان هم الفينيقيون والإغريق[55].

إذا انتقلنا من هيرودوت كمصدر إغريقي حول أخبار اللوبيين أي سكان بلاد المغرب القديم إلى المصادر العربية التي سبق لي التعرض إليها في مقام سابق فذكر أبي الحسن الوزان قائلا حول أصل البربر أو اللوبيين فقال: ولم يختلف مؤرخونا كثيرا في أصل الأفارقة، فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى إفريقيا حين طردهم السبئيون (الحميريون) الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل طردهم من قبل الإثيوبيين منها، بينما يدعي فريق ثالث أن[56] الأفارقة كانوا يسكنون بعض جهات آسيا فحاربتهم شعوب معادية لهم، فلجؤوا إلى الفرار إلى بلاد الإغريق الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إليها[57] فإضطروا إلى عبور بحر المورة واستقروا أما الأفارقة السود بمعنى الكلمة، فإنهم جميعا من نسل كوش بن حام بن نوح، ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود، فإنهم[58] ينتمون إلى تقريبا إلى نفس الأصل، ذلك أن الأفارقة البيض لما أتوا من فلسطين ينسبون إلى مصرائيم بن

---

54. نفس المصدر هيرودوت الباب192.

55. نفس المصدر هيرودوت الباب197.

56. الحسن بن محمد الوزان وصف إفريقيا ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر دار المغرب الإسلامي ص35.

57. نفس المصدر ص35.

58. نفس المصدر الوزان وصف إفريقيا ص35.

كوش وإما من بلاد سبأ، والمقصود هو سبأ بن هامة[59] بن كوش[60] انتهى حديث الوزان.

- وسبأ هذا مذكور في التوراة، لكن السبئيين في القرآن الكريم هم رعايا بلقيس، ملكة اليمن التي جاءت إلى سليمان (الآية 22 من سورة النمل، و15 من سورة سبأ) وسبأ في الرواية العربية هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أول ملوك اليمن عاش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد(20قرنا ق م)، فهو كان موجودا فعلا من الناحية التاريخية، تفرق أولاده العشرة بعد سيل العرم فكانوا أصولا تفرع منها سكان الجزيرة العربية[61].

ومادمنا في هذا المقام المتعلق بالأصول العرقية للبربر وأهالي الجزائر القدماء وهم معروفون بالنوميديين فلابد من ذكر بعض المعلومات الحديثة في هذا الشأن.

والمعطيات التاريخية المتعلقة بأصول الإنسان المغربي في العهود القديمة للإنسان النوميدي، أو الجزائري الممتدة إلى الحقبة الباليوتيكية حوالي 500ألف سنة ق. م تعتبر فترة غابرة وليس للمؤرخين وعلماء الآثار أي فكرة عن وجود الإنسان الذي عاش حينئذ، اللهم إلا بعض بقايا من عظام وأدوات كان يستعملها.

وبعض أثار حيوانات كانت موجودة يومئذ وهي كلها غير كافية للبرهنة على جذور الإنسان المغربي والجزائري في العهد القديم[62]

أما الإنسان الذي له رابطة بالجزائري الحديث بدأ شكله كإنسان اليوم في الظهور خلال الحقبة النيوردتالية أي حقبة ما قبل التاريخ الذي ظهر حوالي

---

59. نفس المصدر ص35.

60. نفس المصدر ص36.

61. أنظر تعليق المترجمان محمد حجي ومحمد الأخضر لكتاب الوزان وصف إفريقيا حول ملكة سبأ في صفحة35 وصفحة36.

62. أنظر أحمد حسين سليماني مقالته من أجل رؤية لتاريخنا في مجلة الثقافة العدد 998/ص59.

100ألف عام ق.م و30ألف عام ق.م، ثم نجد فيهما بعد ظهور إنسان مشتى العربي الذي قام بتكوين الحضارة الأيبومورسية والحقبة القفصية في7000 ق.م، ويرى بعض المؤرخين أن السكان الأصليين في العهد القديم ينتسبون إلى إنسان المرحلة القفصية[63] أي البربر القدماء، ثم تأتي الحقبة الممتدة من الوجود الفينيقي القرطاجي في البلاد المغربية ما بين القرن الثالث عشر ق.م إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد أي حتى 146 ق.م تاريخ دمار قرطاجة وقد جرى امتزاج في الدم بين القرطاجيين والليبيين القدماء.

ومما يجب ذكره أنه وقعت هجرات متوالية من المشرق القديم نحو المغرب القديم ونزوحات نحو البلاد المغربية في عهود ما قبل التاريخ أي قبل ظهور الكتابة على مسرح التاريخ، ثم في المراحل التاريخية فكان إستيطان الفينيقيين وبعدهم جاء الرومان والوندال، ثم العرب الذين هم من أصل سامي، وعناصر أخرى من العنصر الهندو-أوروبي مثل الإغريق، وقد وقع امتزاج وإختلاط بين العنصر اللوبي المحلي والعنصر السامي، المتمثل في القرطاجيين والعرب والكل ساميون[64].

أما العنصر الهندو-أوروبي فكان لهم اختلاط في الدم بشكل نسبي جدا مع العنصر المحلي وهذا ما يفسر وجود الجنس الأشقر في بعض جهات الوطن الجزائري اليوم في شرق البلاد أو غربه ووقع تزاوج بين الجزائريين والمغاربة أقصد أهالي المغرب العربي (وهي تونس ليبيا الجزائر والمغرب الأقصى) مع المستوطنين الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب العربي بعد سقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي، والذين نقلوا أساليب وعادات وتقاليد وطبائع مستمدة من الحضارة العربية الإسلامية إلى بلادنا المغربية،

---

63. نفس المرجع ص59.

64. نفس المرجع ص59.

ويرى أحد المؤرخين[65] وهو ستيفان قزال صاحب تاريخ إفريقيا الشمالية القديم، أن الأندلسيين الذين نزحوا إلى بلاد المغرب العربي اشتغلوا بالتجارة وزراعة البساتين والحقول وأنه كان يميزهم عن الأهالي الجزائريين شكلهم الفيزيولوجي المميز[66] حيث تجدهم وسيمي الطلعة ولون بشرتهم أكثر بياضا.

اللوبيون في المصادر القديمة

وتعد الكتابات المصرية تسمية ليبيا إلى اللغة المصرية وأنها أطلقت في عهد الفرعون مرنبتاح (Merneptah) في حوالي1220 ق.م حيث وردت في نقش هيروغرافي يمجد انتصارات ذلك الفرعون على الليبيين الذين غزوا مصر من الغرب[67]. وهناك من المؤرخين من يريد إعادة تسمية ليبيا إلى إسم ملكة كانت تحكم شعبا يقطن إلى الغرب من وادي النيل أو يمكن أن يكون الاسم قد استنبط من إسم ربة كانت تعبد في المنطقة[68].

أما الأساطير اليونانية فتقرن بين لوبة وبين الربة يوربا (أوروبا) التي اشتق منها القارة الأوروبية. ويرى الضابط ف. بيشي (F.W.Beechy) أن اسم ليبيا يمكن أن يكون ساميا ويعني أرض الأسود لأن كلمة "لوبة" تعني اللبؤة أي أنثى الأسد، أما لوب فهي تعني العطش والجفاف[69] ووردت أيضا الإشارة إلى اسم اللوبيين في كتاب التوراة (سفر التكوين 13، XI) وذلك تحت اسم ليباهيم، واحتوى سفر الوقائع (3، XII) بدوره على تسمية اللوبيين ووصفهم بالجنود

---

65. نفس المرجع ص59 وأنظر أيضا ستيفان قزال تاريخ إفريقيا الشمالية القديم.

66. نفس المرجع ص59.

67. د. محمد الصغير غانم، الرموز الكتابية الليبية في شمال إفريقيا، ص9 مجلة التراث تصدها جمعية التراث والتراث الأثري لمنطقة الأوراس العدد 10 جويلية 1999 باتنة.

68. نفس المرجع ص9.

69. نفس المرجع ولمزيد من التفاصيل أنظر المرجع :

F.W.Beechy, Proceedings of expedition to explore of the northeru Caastof Africa from Tripoli East ord London 1928 p599.

المحاربين ضمن جيش فرعون مصر شيشنق (من أصل ليبي) في معاركه ضد الملك العبراني رحبعام بن سليمان الحكيم[70]. وأشار المؤرخون الكلاسيكيون (الإغريق والرومان) إلى اسم ليبيا والليبيين غير مامرة في كتاباتهم التي كانت في كثير من الأحيان متحاملة.

ونضرب مثلا على ذلك بما ذكره المؤرخ سالوسيت حيث قال: كان سكان إفريقيا الأوائل من اللوبيين والجيتولين (سكان الصحراء) وهم أقوام وبرابرة يتغذون بلحوم الحيوانات المتوحشة أو بأعشاب المروج على شكل قطعان الماشية، لا يحكمهم أمير ولا العادات أو القانون بل كانوا يعشقون المغامرة ومتفرقين بحيث لا يتوقفون إلا إذا داهمهم ظلام الليل[71].

ويواصل صلوسيتيوس إستنادا وإعتمادا على ما ورد من الكتب البونية حول سكان إفريقيا الأولين قائلا: فما أن توفي هرقيلس باسبانيا حتى تصدعت صفوف جيشه، وكان يضم شعوبا مختلفة، إختفى الرأس، فبات المتنافسون يتجاذبون الجيش، كل واحد منهم يريد الإستئثار بالقيادة، ومن عناصر ذلك الجيش ميديون وفرس وأرمن، عبروا البحر على متن سفن ونزلوا إفريقيا واحتلوا الربوع الساحلية على أن الفرس فضلوا الاقتراب من المحيط وقلبوا مراكبهم واتخذوا منها أخصاصا، وذلك أن الخشب الصالح للبناء لم يكن متوفرا في تلك المنطقة وكانوا لا يستطيعون الحصول عليه من اسبانيا لا عن طريق الشراء ولا عن طريق التبادل: فالبحر بامتداده وجهلهم للغة كانا عقبتين تحولان دون كل تجارة[72].

---

70. أنظر د. محمد الصغير غانم، الرموز الكتابية ص10.

71. نفس المرجع د.غانم ص11 وأنظر لمزيد من التفاصيل

Salluste, La guerre de Jugurtha Traduction F.Richard.Edi.FLAMARION, paris 1968, p96. XVIII

72. د. محمد حسين فنطر الحرف والصورة في عالم قرطاج ص95. ومن هذا الكتاب نجد الترجمة الحرفية لنص صالستيوس.

ثم اختلطوا بالجداليين شيئا فشيئا عن طريق المصاهرة ولما كانوا يكثرون من الترحال بحثا عن أرض تناسبهم إتخذوا إسم النوميديين، هذا ويلاحظ حتى اليوم أن بيوت الريفيين النوميديين التي تسمى مفاليات تشبه السفن بأشكالها المستطيلة وأضلعها المقوسة.

وانضم اللوبيون إلى الميديين لأن ديارهم كانت أقرب إلى الشمس لا يبتعدون عن مناطق الحر[73] الشديد وسرعان ما شيدوا المدن الحصينة.

ولما كان لا يفصلهم عن اسبانيا إلا مضيق تمكنوا من إقامة علاقات تجارية وتبادل معها، وطرأ عل إسم الميديين تحريف أدخله اللوبيون الذين عوضوه باسم ماووريين وسرعان ما عظم شأن الفرس، وفي زمن لاحق هاجرت جالية من الشباب النوميديين تحت ضغط النمو الديموغرافي[74].

إن السعي وراء معرفة الأصول ومولد الأحداث قضية حديثة، فلم يزهد فيها جيل من الأجيال التي تعاقبها واختلاف بيئتها بل ستبقى مغرية شذبة عطرة كتفاحة حواء.

ويبدوا أن الكتب البونية التي إستمد منها[75] صلوستيوس أخبار الإفريقيين قديمة أو قل فيها ما يعكس ظروفا تعود إلى ماضي سحيق ولعلها ترقى إلى عهد المراكز الفينيقية الأولى فتراها تشير إلى توحش البلاد وسكانها وكأن الفينيقيين أتوا إفريقيا لنشر حضارة متطورة متفوقة فلا تفوتهم مناسبة دون التنويه بدورهم وبالفضائل[76] الحضارية التي أتوا بها وغرسوها.

وكان الأفارقة قبل الحضور الفينيقي القرطاجي يتميزون بالخشونة والتوحش يقتاتون من لحوم الحيوانات البرية ومن أعشاب المروج كالقطعان.

---

73. نفس المرجع ص95.
74. نفس المرجع ص95.
75. نفس المرجع ص97.
76. نفس المرجع ص97.

كما سلف ذكره اعتمدنا على نص صالستيوس، وقد رسم أصحاب هذه الكتب البونية ملامح الجداليين واللوبيين طبقا لرؤيتهم[77] مستندين إلى عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية، فيبدوا إقتصاد هؤلاء الأفارقة الأولين تخريبيا أي كانوا يعيشون على حساب المحيط صيدا وجنيا ولم يكن لهم في هذه الرؤية نظام سياسي وكأن مجتمعهم فوضوي على غرار المجتمعات البدائية خلال العصور الحجرية[78].

ويرى د.فنطر أن هذه الرواية المتعلقة بالأفارقة التي أوردها صالستيوس إعتمادا على كتب قرطاجية لا تخلوا من تجاوز وإفراط وتعتيم. فقد تستولي الدهشة على الفينيقيين الذين كانوا يحلون بإفريقيا ويجدون سكانا يعيشون ظروف عصر الحجر المصقول متأخرين عن ركب الحضارة المشرقية بما لا يقل عن ألفي سنة[79].

أما من حيث أصولهم ففي النص إشارة إلى نواة صريحة تتكون من عضوين وهما الجداليون واللوبيون، ثم إنضم إليهم آخرون أتوا من الشمال ومن الشرق الأدنى على وجه الخصوص وقد يكون ذلك عبر الصحراء وقد يكون بحرا على متن سفن وأطواف تحتذي السواحل وتتعقب الجزر[80].

ولا شك أن القارتين الأسيوية والأوروبية ساهمتا في نحت ملامح ما قد يجوز تسميته العرق المغربي ذاك الذي نوه القدماء بوحدته وتعدديته وتشعبه قبائل وأقوام كما يتجلى بوضوح في كتابات هيفاتيوس الميليتي وفي تاريخ هيرودوت فالكتب البونية التي إستفاد منها صلوستيوس خلال القرن الأول قبل المسيح يبدوا أنها كانت تلاخيص ومصنفات وضعها إفريقيون[81] استنادا إلى

77. نفس المرجع ص96.

78. نفس المرجع ص96.

79. نفس المرجع ص97.

80. نفس المرجع ص97.

81. نفس المرجع ص 97.

كتب ودراسات قرطاجية ولعلهم أثروها بإضافات لا نستطيع حصرها فضلا عما حدث إبان تقديمها لصلوستيوس مترجمة إلى اللغة اللاتينية.

ومهما يكن من أمر ففي كتاب يوغرطة ومضات تمكن من إستشفاف عناصر فينيقية أو بونية صريحة منها تلك التي تنوه بحضور الفنيقيين وتشير إلى إفريقية ليؤسسوا هيبون وهدرميتوم ولبدة [82].

فالكتب البونية كانت تزخر بأخبار عديدة تخص الظروف التي حفت بتأسيس قرطاجنة، ولكن صلوستيوس فضل السكوت عنها لأسباب منهجية وخوفا من الإبتعاد عن القضية التي تولى معالجتها وهي حرب يوغرطة[83].

قضية الكتابة الليبية

مشكل حروف اللغة الليبية

تعد حروف النقوش الليبية في شمال إفريقيا من بين المصادر الكتابية الهامة في فترة التاريخ القديم، غير أن الوصول إلى فك رموزها لا يزال يتعثر إلى يومنا هذا رغم ما يربو عن ثلاثة قرون من الزمن على بداية المحاولات الأولى التي جرت بهدف الوصول إلى قراءتها[84].

وفي هذا الصدد نذكر بأن المحاولات الأولى كانت تتعلق بنقيشة دوقة الأولى وتعود إلى سنة 1631 م وقد قام بها رحالة يدعى توماس داكروس الذي أخذ نسخة طبق الأصل (un calque) للنقيشة وقدمها إلى أحد مواطنيه، وهو العالم بيراز (Perese) الذي انكب على دراستها، وبعد ذلك بحوالي قرنين من الزمن عمل السيد توماس ريد (Thomas Read) قنصل بريطانيا في تونس على إقتطاع اللوحة الحجرية التي تحمل نص دوجا (Dougga) المشار إليه

82. نفس المرجع د. فنطر حول نص ص97-98.

83. نفس المرجع ص98.

84. د. محمد صغير غانم، الرموز الكتابية الليبية في شمال إفريقيا، ص11.

وحملها إلى بريطانيا[85]، وكان بعمله ذلك قد تسبب في إلحاق بعض الأضرار بالبناء التذكاري الذي علقت به النقيشة[86].

وبعد وفاة توماس ريد وضعت اللوحة الحجرية المذكورة في المتحف البريطاني بلندن تحت (رقم 494 495) وهي موجودة به حتى يومنا هذا ولا تزال تحمل نفس الرقم. ومما يجب ذكره أنه تواصل جمع النقوش الليبية فيما بعد من قبل الضباط الفرنسيين الذين كانوا مع جيوش الإحتلال الفرنسي في بلاد المغرب العربي، ففي سنة 1867م قام الضابط الفرنسي فيدارب (herbe-Le général faid) بجمع الكثير من النقوش الليبية من منطقة عنابة وسوق أهراس وساعده في ذلك الطبيب روبود (Dr Reboud) الذي جمع هو الآخر العديد من النقوش التي وجدت بالحدود الجزائرية التونسية[87]. كذلك اكتشف النقش الثاني المزدوج اللغة(بونية- ليبية) في دوجة نفسها وذلك سنة 1905 من قبل مصلحة الآثار القديمة للإدارة الاستعمارية وقد وضع بعد ذلك في متحف باردو بتونس العاصمة، ومنذ ذلك الوقت نشطت أعمال الجمع ودراسة النقوش الليبية مما ترتب عنه بداية التفكير في جمعها في مجلد خاص وقد توفرت شروط ذلك للباحث الفرنسي شابو(Chabot) الذي أصدر مجلده الكبير سنة 1940 جمع فيه ما يزيد على حوالي 1120 نقش ليبي التقطت في غالبيتها من الشرق الجزائري ثم شمالي غربي تونس، وضمن هذه المجموعة وجد حوالي 20نقش مزدوج اللغة (بونية-ليبية ثم لاتينية-ليبية)[88]. ويلاحظ بأنه أضيفت فيما بعد إلى أعمال شابوما جمعه الباحث لجالون (L.Galand) والمتعلقة بالنقوش القديمة التي عثر عليها في المغرب الأقصى. وفك رموز الكتابة

85. نفس المرجع ص12.

86. نفس المرجع ص12.

87. نفس المرجع ص12.

88. نفس المرجع د.غانم ص13 وأنظر أيضا
J.B.CHABOT Recueil, Des inscriptions libyques. Imprimerie nationale Paris

الليبية لا يزال لم يتحقق بعد وذلك على الرغم من الجهود التي بذلت في هذا الميدان ومن بين العلماء الذين شاركوا في هذا المجال نذكر العالم الفرنسي فو دوصولصي (F. DE Saulcy) الذي كان أول من انكب على دراسة نقش دوجا جادة أن يعطيها المعنى القريب من محتواها وقد انطلق هذا العالم من مقارنة أسماء الأعلام لواردة في النصبين الليبي والبوني، وبالتالي توصل إلى وضع أبجدية ليبية تكاد تكون تامة. كذلك نذكر ما قام به في الميدان فيما بعد كل من الطبيب جوداس(Dr Judas) وتوفار(A.Touvar) وجورج مارسي (G.Marcy)[89]. علاوة على ذلك يضاف الدراسات الجادة التي قدمها كل من شابو بجمعه للنقوش الليبية وكذا ج. فيقري أستاذ الساميات بجامعة السوربون وجالون[90] من نفس الجامعة المشار إليها وقد قام هذان الأخيران بدراسة النقوش الليبية التي جمعت من منطقة المغرب الأقصى، سيما نقيشة ليكسوس الشهيرة المزدوجة اللغة(ليبية-بونية)[91].

ولم يخف الباحثون الذين درسوا نقوش الكتابة الليبية الصعوبات التي واجهتهم في ميدان فك رموزها وذلك لعدة أسباب منها:

1. جهلهم للغة التي تؤدي معناها هذه الرموز لاسيما أن الكثير من أسماء الأعلام التي وجدت في النصوص المزدوجة لم تبق على حالها كما هي موجودة في النص البوني أو اللاتيني بل كتبت بلغتها الأصلية الليبية التي لم يبق لها ذكر إلا في صفحات مجلدات التاريخ.
2. صعوبة فك رموز وقراءة الكتابة الليبية التي لازالت تتعثر حتى يومنا هذا وبقاءها في ميدان التخمين فقط، لاسيما بالنسبة للنصوص غير مزدوجة اللغة.

---

89. نفس المرجع السابق د .غانم ص14.

90. نفس المرجع ص14.

91. نفس المرجع ص14 لمزيد من التفاصيل أنظر

- G. Marçais, l'épigraphie ((berbère numidique et saharienne annales de l'institut d'études orientales Alger 1936, P.140-146,
- et J. G. Février,histoire de l'Ecriture-payot, Paris1984, P. 321 et suite

3. اختلاف وتنوع حروف النقوش الليبية من منطقة جغرافية إلى أخرى، مما جعل الباحثون غير قادرين[92] على ضبط أبجديتها مثل بقية اللغات المعاصرة لها.
4. تغير طريقة كتابة النصوص الليبية وفقا للمكان والزمان واللغة المصاحبة لليبية في النصوص المزدوجة فقد تتجه الكتابة من اليمين إلى اليسار وقد يحدث العكس إذا كانت الكتابة مصاحبة لنص لاتيني[93].
5. أن قصر النصوص الليبية فيما عدا المزدوجة اللغة منها يشكل هو الآخر عائقا كبيرا في ميدان اكتشاف أسرار اللغة الليبية.
6. اقتصار تناول النصوص الليبية للجانب الجنائزي والإهدائي دون غيره من جوانب الحياة اليومية المتنوعة للمغربي القديم[94].
7. الانقطاع التام بين اللغة الليبية القديمة في شمال إفريقيا واللهجات المحلية الموجودة في بعض المناطق منها.

ومعظم النقوش الليبية في الجزائر كانت قد التقطت من الركن الشمالي الشرقي بداية من غارديماو التونسية ومنطقة الشافية وبوحجار، ثم أولاد بشيح وتمتد جنوبا حتى تبسة وتعم منطقة الأوراس وسطيف. ويقل عددها كلما اتجهنا من بجاية غربا حيث لا يزيد عددها عن سبعة أو ثمانية نقوش في الغرب الجزائري[95]، وتتناثر في المغرب الأقصى حول المستوطنات الفينيقية البونية[96].

وتاريخ ظهور الكتابة الليبية يبقى غير مؤكد، إلا أن بعض المؤرخين منهم كامبس (G. Camps) يحاول إعادة بداية ذلك إلى حوالي القرن السادس قبل

92. نفس المرجع السابق د.غانم ص15.
93. نفس المرجع السابق ص15.
94. نفس المرجع السابق ص15.
95. نفس المرجع ص19.
96. نفس المرجع ص19.

الميلاد ولا يقدمون لذلك أدلة يمكن الاعتماد عليها في تأييد ما ذهبوا إليه[97].

وتقدم النقوش الليبية-النوميدية بدورها القرن الثاني قبل الميلاد (139 ق.م) كحد أقصى حتى الآن لظهورها (النقيشة الثانية لمجمع النقوش لمؤلفه(L. Chabot)[98].

صلة اللغة الليبية باللهجات المحلية الأمازيغية

وفيما يخص صلة اللغة الليبية القديمة باللهجات الأمازيغية الحالية الذي تحدث عنها سالم شاكر Salem CHAKER وهو أحد الباحثين في ميدان التراث الأمازيغي انطلاقا من اللهجة القبائلية، وذلك في كتابه (نصوص في اللغة البربرية ص249) حيث قال: أن وضع اللغة الليبية محير للغاية ومتناقض في نفس الوقت حيث أننا نملك مجمعا هاما للنقوش الليبية من بينها عدد لا يستهان به من النقوش المزدوجة اللغة (ليبية-بونية و ليبية-لاتينية)[99]، بالإضافة إلى أننا أصبحنا نعرف جيدا القواعد الحديثة التي ترتكز عليها اللغة، ومع ذلك، فإن النقوش الليبية لا تزال غير قابلة للترجمة[100].

97. نفس المرجع ص19.

98. نفس المرجع ص19.

99. نفس المرجع السابق د. غانم ص28.

100. نفس المرجع السابق ص28.

الفصل الثاني

حياة سيفاكس، هذا الملك المجنى عليه

سيفاكس ملك المزسيليس

سيفاكس يعد ملكا عظيما، إعتلى عرش نوميديا الغربية، وكانت عاصمته سيغا وفيها إلتقى صيفاك في 206 ق.م سيبيون الروماني وسدربعل القرطاجي، وقد تم العثور على نقود ضربت بإسم سيفاكس والتي تبين أن الملك في ذلك العهد، هو الوحيد الذي له الحق في صنع المسكوكات، ومجموعة النقود التي عثر عليها تبين لنا الملك صيفاكس وإبنه فرمينا على وجه النقود التي تم سكها، ويدل ذلك على أن صيفاكس كان على رأس القبائل الواقعة في المنطقة الوهرانية[1].

ويعد سيفاكس أول زعيم يحصل ويتمتع بلقب ملك، وضرب النقود بإسمه وكان عاهلا قويا، وإن حمله التاج على رأسه جعل منه متساويا أو في نفس المستوى مع الملوك الهلنستيين.

ورغم أنه تزوج من سوفونيسب الأميرة القرطاجنية، ومع هذا فقد بقي مستقلا حيال وطن زوجته، وقامت روما وقرطاجنة، وهما الدولتان العظيمتان في حوض المتوسط بالتسابق في كسب صيفاكس كحليف لهما[2] ولقاء القمة

1. انظر د.محفوظ قداش، الجزائر في التاريخ بالفرنسية ص59، وانظر أيضا د.غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية ص60.

2. نفس المرجع ص59، محفوظ قداش.

الذي جمعه بسيبيون وأسدربعل جعل منه قوة ثالثة مهيمنة على منطقة البحر المتوسط الغربي.

ليست لنا معلومات دقيقة حول التنظيم الإداري للمملكة النوميدية لسيفاكس، ولكن دراسة النقود التي نجدها باسم سيفاكس وابنه فرمينا، تبين لنا أن ابنه كان شريكه في الحكم وأن الحروب التي خاضها سيفاكس ضد قرطاجنة وروما وماسينيسا كانت كأسباب رئيسية في تدهور وإضمحلال مملكته.

في عام 213 ق.م، أرسل الرومان إلى سيفاكس ضباطا يعلمون جنوده وحارب سيفاكس غايا وكان رئيس جيشه ابنه ماسينيسا وعمره لا يتجاوز سبعة عشر عاما، فانتصر ماسينيسا وأخرج سيفاكس من عاصمته سيغا، فذهب إلى موريطانيا الغربية وجمع من أهلها جيش توجه به لمحاربة ماسينيسا، لكن سيفاكس لم يفلح في النصر.

بعد انتصار ماسينيسا، صارت مملكة غايا تمتد من الملوية غربا إلى الحدود الشرقية، أي منطقة عنابة والكاف، وكان صدربعل القرطاجني بالأندلس، فجاء مددا لماسينيسا على سيفاكس، وبعد الإنتصار عاد إليها بجيوش كثيرة تحت قيادة ماسينيسا .

وقام سيفاكس وهو أعظم ملك (إقليد) في مازيسولة بدور عظيم[3]، فمدت إليه قرطاجنة يدها تطلبه المعونة وزوجته فتاة من أعلى طبقة أرستقراطية، وكان صدربعل قد وعد ماسينيسا بأن يزوجه ابنته سوفونيسب، ولكن عندما يئس من مناصرته للقرطاجنيين عدل عن مصاهرته وزوجها إلى صيفاك عدو ماسينيسا، واتخذ القائد القرطاجني هذه الطريقة لكسب صداقة صيفاكس، فنجح في مبتغاه، وصدق صيفاك في صداقته للقرطاجنيين، وبدأمساره لمحاربة ماسينيسا، الذي نصب نفسه ملكا على الماسيليس، فانتصر صيفاك عليه وانتزع منه أغلب مملكته، ففر ماسينيسا وإعتصم ببعض الجبال وذلك سنة

3. انظر مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم ص174-175 .

205 ق.م، ومن معتصمه هاجم تراب قرطاجنة.. ومناطق من التراب القرطاجني فأثار قرطاجنة عليه، وبعد ذلك رغبت قرطاجنة أن يقضي سيفاكس على ماسينيسا قضاء مبرما، فلبى طلبها وأرسل جيشاتحت قيادة بوكار، فشد الخناق على ماسينيسا وفتك برجاله وأصابته جروح عميقة أعجزته عن أي مقاومة، فرمى بنفسه في واد، ونجا بعدما قطع الضفة الأخرى، في ناحية قليبية من التراب التونسي. وبعد الخيبة التي أصابت ماسينيسا، لجأ إلى مغارة بسفح جبل ريثما يلتئم جرحه[4]، ويستعيد قواه، وذاع أنه توفي، ولكنه كان يسعى سرا في جمع الجنود، وبعد إستراحة ظهر أمام الملأ من الماسيلس ففرحوا وابتهجوا بوجوده، وبعد مدة وجيزة جمع 6000 من المشاة و4100 من الفرسان.

ولم يكن سيفاكس غافلا عنه، فجمع جيوشه وقسمها إلى جيشين أحدهما برئاسته والآخر تحت قيادة إبنه فرمينا، وكان ماسينيسا بالجبال التي هي موجودة بين قرتا وهبون، قصده صيفاك واصطدمت الجيوش[5] وحمي وطيس الحرب، وأسفرت عن نجاح صيفاك وهزيمة ماسينيسا، ففر إلى بلاد السرت الصغرى (قابس).

إستقر سيفاكس بمملكة ماسيلس ومازيسيلس، بعدما استقر بهما غولة، واتسع نطاق مملكة صيفاك، فاتخذ قرتا عاصمته سنة 204 ق.م، وبينما هو على هذا الحال من تمتع بمملكة عريضة، وماسينيسا في حالة تشرد في الجبال والفيافي؛ إذ نزل سيبيون الإفريقي بجيشه في إفريقيا[6] فلاح بارق الأمل لماسينيسا، فبعث هذا الأخير أنصاره لنجدة سيبيون.

وأرسل صدربعل بن جسقون القرطاجني إلى صهره وحليفه سيفاكس فجاءه بستين ألف مقاتل، ونزل في مركز خاص ولم يختلط بين القرطاجنيين

---

4. نفس المرجع ص175.
5. نفس المرجع ص175.
6. نفس المرجع ص175.

والرومان، فأظهر سيبيون الإنهزام كنوع من الحيلة، أتاه سيفاكس وخاطب محاربيه في الصلح[7]، وبينما هم يتفاوضون إذا بسيبيون دخل بين الجيشين المتحالفين، وحال دون اتصالهما ببعضهما البعض، وفي الليل هجم مع قومه على صدربعل وماسينيسا مع قومه على صيفاك، وأحرقوا عساكر هذا الأخير والمتحالفين معه من القرطاجنيين، فكانت وقيعة كبرى ومصيبة ألمت بسيفاكس والقرطاجنيين وجرى ذلك عام 203 ق.م.

وشجع هذا الإنتصار سيبيون على فتح قرطاجنة، ولكن لم يرد أن يورط نفسه فيها قبل استئصال أنصارها من البربر[8]، فجهز جيشا لحرب سيفاكس بقيادة ماسينيسا، فالتقى الملكان البربريان بجموعهما، فكب بسيفاكس جواده في المعركة، فأخذه ماسينيسا أسيرا، وذهب به إلى قيرتا واحتال لدخولها فدخلها والتقى سوفونيسب وأراد أن يتزوج بها فلم يقبل سيبيون ذلك، خشية أن تستميله عنه إلى قومها، ولكن انتهى الخلاف بينهما بقتل ماسينيسا سوفونيسب وبعث بسيفاكس إلى روما، ومات بها سجينا عام 201 ق.م.

خلاف سيفاكس مع قرطاجة

على كل حال فإن علاقة الصداقة بين قرطاجة ومملكة سيفاكس لم تستمر على ما هي عليه، بل حصل خلاف بين الدولتين أدى إلى وقوع حرب بينهما بسبب إنحياز قرطاجة إلى الملك جايا ملك نوميديا الشرقية، ولم يستمر الخلاف المشار إليه فترة طويلة، وذلك لأن قرطاجة كانت قد أدركت خطأ سياستها إتجاه الملك سيفاكس الذي[9] أبدى ميولا وإنحيازا نحو أعدائها الرومان، فعدلت عن خطتها السياسية تلك وتراجعت عن مساعدة ملك الماسيل، وأكثر من ذلك اقتربت أكثر من سيفاكس فزوجته بالأميرة القرطاجية سفونيسبة التي أصبحت تشاركه الحكم، كما سلف ذكره.

---

7. نفس المرجع ص175-177.
8. نفس المرجع ص177.
9. د محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية ص60.

ركز المؤرخون الأجانب على زواج سفونيسبة من الملك سيفاكس وذكروا أن هذه القضية هي التي كانت تحرك ماسينسا للإنتقام من سيفاكس، كما سندوا سفونيسبة أدوارا خطيرة في توجيه الحرب ضد الرومان والملك ماسينسان إلى غير ذلك من الحجج التي تجرد الملكين ماسينسا وسيفاكس من مسؤوليتهما كممثلين لقبيلتين كانتا تتصارعان على الحدود بينهما والسيادة على بلاد المغرب القديم[10] منذ وجدت، غير أن أهدافها كانت تلتقي في رفع شعار إفريقيا للأفارقة، ويرى د. محمد الصغير غانم لا تمثل قضية زواج سيفاكس من صفونسب إلا الجانب العاطفي في الموضوع الذي لا يصمد أمام الأهداف السامية التي عاش من أجلها العاهلين والمتمثلة في الدفاع عن التاج والأرض.

ولو أني أميل إلى فرضية أن صفونسيبة كان لها بعض النفوذ في سلطة القرار على سيفاكس أثناء وجودها كزوجة للملك النوميدي، ففي هذه الحالة يصبح للجانب العاطفي دور في قرارات الملك على العموم.

لأن هناك بعض المصاهرات في التاريخ القرطاجي والليبي كان لها صبغة سياسية وتبين لنا أنه وجد نوع من الإندماج العرقي القرطاجي مع الليبي، ويمكن أن نضرب مثلا عن ذلك بالظاهرة البونية وتتمثل في الزواج الذي كان سائدا بين القرطاجنيين أحفاد الفينيقيين والنوميديين، ولدينا حالة سوفونسب الأميرة القرطاجية الحسناء السالف ذكرها التي جرى الوعد بتزويجها في بداية الأمر بالملك ماسينيسا.

ولكن لأسباب سياسية جرى تزويجها سيفاكس، لأن العاطفة قد تؤثر على أصحاب القرارات السياسية وهذا ما كانت ترمي إليه قرطاجنة من هذا الزواج السعيد.

هناك ملك نوميدي آخر وهو أوزالسيس عم ماسينيسا، فقد إختار زوجة له امرأة قرطاجية من عائلة كبيرة ومشهورة وهي قريبة حنبعل La Niéce d'Hannibal.

10. نفس المرجع ص60.

أما أميلكاربركا، فقد زوج إحدى بناته إلى أمير نوميدي هو نرفاس، هذا مع العلم أن المؤرخين بوليبيوس وتيتليفيوس وإبيانوس يتحدثون عن الزواج الذي جمع ابنة الإقليد ماسينيسا مع أحد أعيان قرطاجة وهذا الحدث جرى في فترة تتمثل ما بين إنتصار زاما في 201 ق.م وموت ماسينيسا في 148 ق.م ومعنى ذلك أنه جرى في الفترة التي أراد العاهل النوميدي أن يكون له أنصارا، وقبل بداية الحرب البونية الثالثة كان هنالك في العاصمة القرطاجية حزب قوي بشكل نسبي، والذي كان يعمل من أجل التعاون مع ماسينيسا في سبيل توحيد المملكة النوميدية الكبرى، هذا مع العلم أنه جرى زواج الأميرة النوميدية ابنة ماسينيسا[11] إذا نظرنا إلى هذا الأمر من الناحية التاريخية نجده يدخل في نطاق سياسة التحالف والإغراء التي مارسها الملك نفسه ماسينيسا من أجل القبول به في المعسكر القرطاجي، مع العمل على نسيان مشاركته في معركة زاما بجانب سيبيون الإفريقي.

وحاول سيفاكس أن يحسن إلى قرطاجة، فأعاد لها الأملاك التي إقتطعها منه جايا أثناء حروبه معها وذلك سنة 220 ق.م ثم حاول من جهة أخرى أن يتوسط بينها وبين روما في النزاع القائم بينهما[12].

ومن شروط نجاح سيفاكس في وساطته هذه كان من الواجب عليه أن يحافظ على توازن بين دولتين عظيمتين اللتين تتسابقان على كسب تحالفه وذلك لأهمية موقع دولته من الناحية الجغرافية، حيث كانت بموقع وسط بين شبه جزيرة إيبيريا والمنطقة التي سيختارها الرومان لمعاركهم الأولى بغية إجبار حنبعل للعودة إلى شمال إفريقيا.

---

11. انظر بالفرنسية: François Décret Mohamed Fantar l'AfriqueDu nord dans l'Antiquité P59

ولمزيد من التفاصيل: انظر: Appien lib,99,et (tité-live Epit), OROSE III 22,859

12. نفس المرجع السابق غانم ص60

دور سيفاكس في حسم الخلافات بين قرطاجة والرومان

كان لسيفاكس دور ومهام سياسية ووساطة في الخلاف الذي جمع قرطاجة والرومان إبان الحرب البونية الثانية، وقام بهذا الدور الدبلوماسي لأنه كان مقتنعا بوجود خطر وكارثة ستمس منطقة إفريقيا الشمالية مستقبلا في حالة إحتلال الرومان للبلاد النوميدية، وإنزال الجنود بالمنطقة على يد سبيون بوبيليوس الذي يمتاز بدهائه السياسي والذي وضع خطط عسكرية تحقق أهداف الرومان، فكان سيفاكس يعتقد أن أمل شمال إفريقيا أصبح مهددا وأن الممالك الوطنية النوميدية ستؤدي ثمن الإصطدام العسكري بين قرطاجة وروما على أرض إفريقيا عاجلا أو آجلا.

وفي الطرف الروماني[13] شجعت انتصارات إليبا بأسبانيا الرومان على المضي في الإستيلاء على المجال القرطاجي، لكن هذه المرة كانوا يميلون إلى نقل الحرب إلى إفريقيا الشمالية، بذلك وجب عليهم إيجاد مؤيدين وأتباعا في المنطقة نفسها يعتمدون عليهم في شل حركة القرطاجيين في عقر دارهم، وما دمنا في هذا المقام نود التذكير أن المؤرخ الروماني تيتيوس ليفيوس ذكر أن الملك سيفاكس كان قد اتصل بالرومان عن طريق إرسال سفراء لهم وقد رحب مجلس الشيوخ بذلك، محاولة منهم إيجاد حليف لهم في شمال إفريقيا، ولذلك كلفوا ثلاثة نواب من المجلس بحمل هدايا للملك سيفاكس تمثلت في معطف أرجواني اللون ومعقد من العاج وكأسا من الذهب يزن خمسة أرطال وبعض من الهدايا الأخرى التي كان البعض منها موجها لشخصيات مازسيلية كانت تعمل في حاشية الملك، ومن ناحية أخرى عمل سيبيون الذي كان يعسكر في شبه جزيرة إبيريا والذي يعتبر مهندس نقل الحرب إلى شمال إفريقيا على اتصال بسيفاكس وكسب صداقته ولذلك نراه يرسل له بقائده لاليوس ليفاوضه في توطيد عرى الصداقة للرومان والوقوف إلى جانبهم ضد القرطاجيين[14].

13. نفس المرجع ص61 ويمكن العودة إلى F.Décret et M.Fantar Op Cit لمزيد من التفاصيل.

14. د محمد الصغير غانم، نفس المرجع. ص 61.

سيفاكس ووساطته في مؤتمر سيغا في سنة 206 ق.م

قدم سيفاكس شرطا على المبعوث الروماني بأن يلتقي بالقائد سيبيون نفسه، وفي هذا الإطار انتقل سيبيون إلى مدينة سيغا Siga عاصمة سيفاكس الواقعة على نهر التافنة تلبية لطلب مادام الأمر يهم مصلحة الرومان. وفي مدينة سيغا التي لا تبعد عن ساحل البحر إلا بمقدار 04 كم، التقى القائد الروماني سيبيون بالقائد القرطاجي صدربعل بنجيسكون الذي حل في نفس الوقت بها هل تم ذلك عن طريق الصدفة؟ أم أن سيفاكس كان قد رتب لذلك مع القائد القرطاجي؟[15].

على كل حال فإن القائدين الروماني سيبيون والقرطاجي عزربعل كانا قد التقيا في ضيافة الملك سيفاكس وقد تفاوض الثلاثة في شؤون إنهاء العداوة التقليدية والحرب الدائرة بين روما وقرطاجة على سيادة البحر المتوسط.

غير أن القائد سيبيون صرح لمحاوريه أنه لا يملك أية عداوة شخصية من القائد القرطاجي صدربعل، لكنه لا يستطيع البث في قضية يعود الحل والعقد فيها لمجلس الشيوخ والشعب الروماني[16].

وبعد ذلك تفرق الجميع دون إيجاد حل لتلك الحرب التي أقلقت الجميع مع العلم أنه في حقيقة الأمر أن سيفاكس كان يدرك ويلات تلك الحرب إذا انتقلت إلى إفريقيا الشمالية، كما أنه كان يأخذ بعين الإعتبار قوة الخصمين المتصارعين ألا وهما قرطاجة والرومان وعلاقة ذلك بمملكته المحايدة حتى تلك الفترة من سنة 206 ق.م ولذلك كان يحاول جاهدا أن ينهي ذلك النزاع عن طريق التفاوض والمصالحة. وكان سيفاكس يتصف بالرزانة وحصافة النظر

15. نفس المرجع د.محمد الصغير غانم ص62 انظر:
STRABON Géographie XVII 39 Pline L'anciens V.19

16. انظر: د.محمد الصغير غانم، نفس المرجع ص62 وقد اعتمد د.غانم على مصدرين هما:
STRABON Géographie XVII 39 Pline L'anciens V.19

للأشياء وتغليب العقل على العاطفة في كثير من الأحيان، وورد ذكر اسمه في النصوص القديمة، كما جاء ذكره في النقوش البونية (س ف ق ه م ل ك ت) وتعني سيفاكس الأمير أو مملكة سيفاكس، وقد كان نموذج الدولة الذي يسعى إلى تطبيقه في مملكته هو تقليد للمؤسسات الدستورية القرطاجية[17] وكذا إضفاء الطابع الهلنسيتي من حيث المظهر لاسيما فيما يخص الملك شخصيا الذي كان دوره يتسم بالحكمة والتعقل اللذان يتصف بهما رؤساء القبائل في نوميديا حين ذاك، ولعله يتفوق عليهما بالدهاء السياسي ومرونة ربط العلاقات مع جيرانه الأقوياء.

توحيد نوميديا على يد سيفاكس

نجح سيفاكس في توحيد نوميديا قبل ظهور ماسينيسا على مسرح الأحداث، وجعل من اللامركزية كنظام إداري في مملكته بعد إجراء توحيدها وجعل من مدينتي سيغا وقيرتا كعاصمتين ملكيتين يسيرهما موظفون سامون محليون يعينهم الملك علاوة على مجالس شبه قبلية ورجال دين، وجباة ضرائب وضباط في الجيش يشترط فيهم أن يكونوا مؤيدين ومناصرين للملك، وسك سيفاكس عملته الخاصة في مدينة سيغا وكان له بها مصنع خاص بضرب العملة[18].

وفي مدينة سيغا وسيرتا، كان يستقبل فيهما السفراء والمبعوثين الخاصين والرؤساء الذين كان يتعامل معهم، كذلك كان يلتقي فيهما برؤساء مقاطعات المملكة من أمراء ورؤساء قبائل، حيث كان يزودهم بالتعليمات الضرورية لتسيير شؤون المملكة النوميدية[19]. وازدهرت الدولة النوميدية الغربية في

17. د.محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية ص63

18. د.محمد الصغير غانم، نفس المرجع ص64

19. انظر د. محمد الصغير غانم، نفس المرجع ص64 ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى المصدر الذي إعتمد عليه د.غانم وهو:

TITUS LIVIS, XXVIII,17; Polybius, 24,GSELL Stephane, ATLAS Archéologie, N°1, Gsell, HAAN, T. III, P13

عهد سيفاكس وإتسعت رقعتها بعد أن بدأت تميل إلى القرطاجيين في صراعهم مع الرومان.

وكان سيفاكس قد عمل بالتنسيق مع قرطاجة من أجل وضع مخطط مجابهة ضد الرومان وكان عليهما أن يعملا لوضع حد لنشاط ماسينيسا في المنطقة وتجنب تقربه إلى الرومان، وهو الذي ظهر لهم كعنصر فعال يمكن أن يستغله سيبيون بوبيليوس في الوصول إلى أهدافه.

على العموم كان هناك تخوف من انضمام ماسينيسا إلى القائد الروماني، كانا يعملان على خلق حواجز أمام الجيوش الرومانية وأعني بذلك سيفاكس وقرطاجة.

تحالف قرطاجة مع سيفاكس

بعد لقاء صدربعل بن جيكسون القرطاجي والملك سيفاكس ثانية في سيغا ودراستهما لنتائج المؤتمر الدولي الذي جرى في عام 206 ق.م حول إمكانية وضع حد للصراع التقليدي بين روما وقرطاجة والذي كان بمثابة تقرير مصير لهذه المواجهة المباشرة، مع العلم أن ماسينيسا بدأ تحركات بعد وفاة والده جايا محاولا الوصول إلى كرسي العرش، ومن أجل ذلك بدأ يقترب من الرومان[20].

كل هذه المعطيات آنف ذكرها أدت إلى إمضاء إتفاقية تحالف بين القرطاجيين والملك سيفاكس ،التزم فيها هذا الأخير بأنه في حالة مهاجمة الرومان لشمال إفريقيا، فإن الجيش المازيسيلي سيحارب إلى جانب القرطاجيين، ومن جهتهم قرر القرطاجيون عقد قران أو تزويج الملك سيفاكس بالأميرة صوفنيسبة بنت صدربعل التي خطبت قبل ذلك إلى الأمير

---

20. نفس المرجع د.محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية ص65 وهناك مرجع آخر ل د.غانم هو علاقة نوميديا بالرومان ص17 مجلة التراث، العدد الثاني مطبعة الشهاب باتنة 1987.

ماسينيسا عندما كان ضابطا في الجيش القرطاجي بإسبانيا، واعتبر المؤرخون أن زواج الأميرة بالملك النوميدي له صبغة سياسية أكثر منه عاطفي[21].

ويعتبر ذلك من ناحية أخرى إبتعاد القرطاجيين عن ماسينيسا وإشارة واضحة لإطلاق يد سيفاكس على نوميديا الشرقية[22] وضمن هذا الإتفاق المشار إليه بعث الملك سيفاكس في عام 204 ق.م مبعوثين إلى القنصل الروماني سيبيون الذي كان موجودا بجيشه في سراقوصة يعلمونه أنه إذا نقل الرومان الحرب إلى إفريقيا الشمالية فإن جيوش الملك سيفاكس ستعلن الحرب إلى جانب القرطاجيين ضد الرومان[23].

المجابهة المباشرة بين سيفاكس وماسينيسا

قام ماسينيسا بهجومات متكررة على قرطاجة وأولئك الذين تحالفوا معها في بلاد ماسيليا، فناشدت قرطاجة الملك سيفاكس باعتباره صهرا ومتحالفا معها لرد تلك الإعتداءات، مع العلم أنها كانت في حالة حرب ضد روما التي انصبت كل طاقاتها واهتمامها حولها، كلف سيفاكس القائد بوكار (Bucar) لدخول الحرب ضد روما بعدما زوده بفيالق من المشاة والفرسان[24].

بعد مرور أيام شتت جيوش سيفاكس جنود ماسينيسا، ولم يفلت من تلك المعارك الحربية إلا ماسينيسا بعدما أصيب بجروح بليغة، حتى إعتقد بوكار أن ماسينيسا قد مات، وأخبر سيفاكس بوفاة ماسينيسا وشاع خبر وفاة الملك ماسينيسا في أوساط النوميديين قاطبة، وحجب ماسينيسا نفسه عن الأنظار مدة من الزمن، ثم بعد شفائه من جراحه عاد إلى ساحة الوغى، وإتبع حرب العصابات

---

21. A.Berthier, la Numidie, Rome et Maghreb P; 34-35.

22. د.محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية ص66.

23. نفس المرجع غانم. ص، 66.

24. شارل أندري حوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالي البشير بن سلامة.

فاحتل المنطقة[25] الواقعة بين عنابة وقيرتا، وبعد ذلك بدأ يزحف نحو غرب نوميديا، وبعدما لاحظ سيفاكس الحرب المعلنة من ماسينيسا ضده وتهديداته المستمرة، أخذ الأمور بمأخذ الجد وكلف ابنه فرمينا Vérmina بمباغتة جنود ماسينيسا من الوراء، وهاجمه بعد ذلك بجيوش كبيرة من الأمام، وكل ذلك أدى إلى فقدان ماسينيسا كل جنوده وفر بعد ذلك إلى خليج سرت في الجماهيرية الليبية الحالية وبقي هناك ينتظر فرصا جديدة للعودة إلى وطنه المفقود نوميديا، وبسبب الصراع القائم بين قرطاجة وروما كل هذا جعل سيفاكس يفكر في الوسائل الفعالة لإيجاد حل مناسب للمشاكل التي تمس سلامة قرطاجة مع إبقاء علاقة حسنة مع روما وذلك حسب ما هو معتاد منذ عام 213 ق.م وهو لقاء القمة الذي جمعه بالقائد الروماني سيبيون في الجزيرة الإيبرية[26]، ومع هذا فضل سيفاكس اختيار التحالف العلني مع قرطاجة، حيث أن مصير بقاء مملكته ووجوده كان مرتبطا بها أشد الإرتباط[27]، وحاول سيبيون الإغريقي إقناع الملك سيفاكس عن العدول بمناصرة القرطاجيين ولكن دون جدوى، فقد رفض هذا الإقتراح، وأرجع بوليبيوس سبب فشل القنصل الروماني في إقناع سيفاكس إلى قوة شخصية زوجته سوفونسيبة التي كان لها تأثير شديد على سيفاكس في اتخاذ القرارات الكبرى.

مكانة الأميرة سوفونسيبة القرطاجية

أخبارها في الروايات الأدبية القديمة والحديثة

لقد كانت سوفونسيبة من شهيرات قرطاج، وزاد من رفع شأنها المؤرخون القدامى، ومنهم بوليبيوس وتيتوس ليفيوس وديودوروس الصقلي وإبيانوس[28]،

---

25. د.محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية ص67 وانظر أيضا المرجع الذي اعتمد عليه د.غانم G.Camps, Massinissa P 168.

26. Warmingtor, carthage P.24

27. Id Ibid P24

28. انظر د.محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في عالم قرطاج ص25/ أليف منشورات البحر المتوسط تونس 1999.

وتوارث الناس الحديث عنها، وأقدمهم يعود إلى القرن 2 ق م وهو بوليبيوس، ولعله تعرف على من عاصر حسناء قرطاجة، وقد ولد بوليبيوس في مدينة يونانية تدعى ميجالوبوليس سنة قبل معركة زاما، وتوفي وقد تجاوز الثمانين من عمره، أما حديثه حول سوفونسيبة فورد في السفر الرابع عشر من تاريخه[29].

وهناك من المؤرخين المتأخرين الذين إعتنوا بأخبار هذه المرأة القرطاجية، منهم المصنف زونراس وهو يوناني الأصل، عاش في القرن الثاني عشر بعد الميلاد، وقد نقل ما أورده مؤرخ يوناني يدعى ديون قسيوس وهو أصيل مدينة نيقيا البيثينية، وعاش فيما بين سنة 155 ق.م وسنة 235 ق م وكان يعرف بولائه للنظام الروماني حتى أصبح من أعيان الإمبراطورية، وما فتأ المؤرخون المعاصرون يولون أخبار سوفونسيبة إهتماما فائقا فأرادوا التعرف عليها بتصور لملامحها الشخصية وتقييما لمنزلتها ضمن المجتمع القرطاجي وتقديرا للدور الذي قامت به لما تزوجت الملك النوميدي سيفاكس[30]، وأصبحت تؤثر بكل مفاتنها الجمالية والثقافية داخل القيصر المسيصولي بمدينة سيجن أو بمدينة كرطن، وقد أعطّ المؤرخ ستيفان كزال وجلبار بيكار مكانة خاصة للأميرة القرطاجية.

ومن أحدث ما كتب حول هذه الشخصية النسائية إشارات أفردت لها من قبل سارج لانسال في كتاب تناول فيه سيرة حنبعل وقد صدر بباريس سنة 1995.[31]

كما تعرض المؤرخ يان لي بوهيك إلى سوفونسيبة في كتاب حول تاريخ قرطاجة العسكري، نشر بباريس سنة 1996م[32].

---

29. نفس المرجع ص25.

30. نفس المرجع ص25.

31. انظر د محمد حسين فنطر ص25 ولمزيد من التفاصيل لا بد من الرجوع إلى كتاب:

S.Lancel, Hannibal, Paris, Faijard, 1995.

32. أورد د. محمد حسين فنطر كتاب ين لي بوهيك بالفرنسية كما يلي:

Yann le Bohec, Histoire militaire des guerres puniques, Paris, éd, du Rocher, 1966.

وكان لسوفونسيبة أصداء في الأدب والفنون الغربية ومنها مسرحية من تأليف بيار كورناي تعود إلى سنة 1663.

وتناول هذه الشخصية التاريخية الكاتب الفرنسي جان ميري وبنى حولها مسرحية مأساوية سنة 1634م، وفي القرن الثامن عشر حظيت سوفونسيبة باهتمام وعناية الفيلسوف الفرنسي فلتير سنة 1770، مع العلم أنه عاش ما بين (1697-1778).

كما ألهمت الشاعر الإيطالي فتوريو ألفياري سنة 1784 قد تطول قائمة الروائع التي مسرحت شخصية سوفونسيبة، ومنها رواية تخصها بالذكر لأن فيها نحتت ملامح البطلة بطريقة جمعت بين التاريخ والأسطورة الموروثة وخيال المبدع، إنها رواية مسنسن البربري الجزائري حسبا ونسبا، وهي من تأليف أديبة فرنسية تدعى ماري فرانس بريس لانس[33]، وصدرت بباريس سنة 1990 وما دامت الرواية قائمة حول الملك النوميدي الشهير وحول الملحمة التي عاشها ليسترد عرشه، ويعيد بناء مملكة أجداده، كان لا بد من توظيف سوفونسيبة القرطاجية تلك التي رفع التاريخ ذكرها وخلد المؤرخون اسمها وذاع صيتها في مختلف الأصقاع وعلى تعاقب الأجيال.

وفي هذه الرواية لماري فرانس بريس لانس ترافق الفتاة سوفونسيب أباها إلى مدينة سيجن عاصمة الملك سيفاكس، وكان القرطاجيون يرغبون في التحالف معه وقوفا في وجه الرومان: السفينة البونية تشق عباب البحر وعلى متنها عزربعل بن جر سكن وإبنته سوفونسيبة تجاذبه أطراف الحديث حول المهمة الخطيرة التي أنيطت بعهدتها، وتنوه الأديبة بريس لانس بجمال سوفونسيبة وما يتضمنه ذلك الحسن من قوة إغراء، تزوج العاهل سيفاكس

33. انظر د.فنطر، الحرب والصورة في عالم قرطاج ص26 وقد ذكر لنا المرجع الفرنسي الدكتور فنطر واسم الأديبة وعنوان الرواية هي كما يلي:

Briselance, Massinissa, le berbère èdi de la table ronde, Paris 1990.



سوفونيسب يقدم له السم لكي تجرعه، على يد الملك ماسينيسا.

اللوحة أعاد رسمها الفنان سيمون فرانسوا العجوز (باريس 1706- لندن - 1774)، وقد تم رسم هذه اللوحة إعتمادا على رسم الفنان لوكا جيوردانو رسام ونحات ايطالي، 1632-1700،

النوميدي فاتنة قرطاجة وأصبحت سيدة القصر، طلباتها أوامر مطاعة، فكانت دائما وراء الملك تغريه وتحرضه على مواصلة القتال مشدودا إلى صفوف قرطاجة حتى الهزيمة وسقوطه بين يدي شيبيون، وكان غريمة ماسينيسا صانع النصر الروماني، قد أبلى وأبلت فرسانه البلاء الحسن.

وبقيت الملكة سوفونسيبة في قرتا تنظم المقاومة والدفاع، إستطاعت من ربط الصلة بالأمير النوميدي، فلما فتح المدينة كان اللقاء مثيرا وقد إستقبلته بجمالها ومفاتنها جاثمة على عتبة البلاط النوميدي في ثوب فضفاض، ولم يستطع تأجيل زواجه منها، فكان زواجا لم يحظ برضى شيبيون، وتستغل الأديبة الفرنسية ماري فرانس بريس لانس من هذه الظروف لترسم مشاهد رائعة تصور الحبيبين وتصور قساوة القضاء والقدر والصراع العنيف[34]، ولما آثر العريس لعروسه موتا يضمن الكرامة لها والحرية أرسل إليها كوبا لم تتردد في احتساء محتواه قائلة: "لا تبكي سوفونسيبة، إنك تموتين موت الأمجاد "[35].

ليس المجال هنا للتعليق على ما ورد في هذه الرواية حول سوفونسيبة، فلا شك أن الكاتبة الفرنسية إستفادت مما تضمنته كتب المؤرخين القدامى، وأفضت عليها من المحيط ومن خيالها ما قد نقبله عند إحتكام العقل، وأيا كان الأمر، فالثابت أن حسناء قرطاجة مازالت حية في الذاكرة تثير وتلهم.

وعلى العموم فإن المبدعين يطلقون العنان لجود الخيال الذي يتجاوز حدود التاريخ، فالمؤرخ يحترم الشواهد الموثقة والحقائق التاريخية كما جاء ذكرها في المصادر، وهذا لا يمنعنا من تصور بعض الفلتات التاريخية لدى المؤرخين القدامى ذوي ميول معينة فيلجأون إلى إستغلال سخاء الخيال وكنوزه[36] الرائعة ليصبح الحدث التاريخي أكثر قدرة على الإقناع والإثارة.

---

34. د محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في عالم قرطاج ص27.
35. نفس المرجع ص27.
36. نفس المرجع ص27.

ولقد ورد إسم سوفونسيبة لدى المؤرخين القدامى اليونانيين واللاتين مع عناصر ضئيلة تعرف بعض جوانب هذه الأميرة الحسناء، وجاء ذكر إسمها في صيغة سوفونسيبة، ففي قرطاجنة كانوا ينادونها صفنبعل، إنه اسم ثيوفوري يتركب من مادة صفن ومن الإسم بعل، ومادة صفن تحتوي على معنى الحماية والوقاية، فصنبعل يعني رعي بعل أو رعية بعل[37]، وعن نسبها تفيد المصادر أنها تنتمي إلى أسرة مجيدة، كان أبوها عزربعل بن جرسكن عبد مقرت ممن يتصدرون الحياة السياسية في قرطاج[38].

وكان والد سوفونسيبة وهو عزربعل بن جرسكن يعمل ضمن بعض التيارات السياسية المسؤولة فلا ريب أنه إستطاع الوصول إلى الهياكل الفاعلة في قرطاجة ولعله كان عضوا بمجلس الشيوخ توكل إليه مهمات سياسية ودبلوماسية، فهل كان من المقربين إلى حنبعل القائد المشهور؟ أو هل كان من الذين يناصرونه في قرطاجنة ؟ ذاك هو إذن عزربعل أبو سوفونسيبة. أما عن أمها وبقية أفراد عائلتها فليس لدينا شيء مفيد.

متى ولدت سوفونسيبة؟ سؤال تعسر الإجابة عليه بكل دقة على أن سياق الأحداث يسمح بتأريخ ميلادها حوالي سنة 221 ق.م وقد تكون ولدت في السنة التي أصبح فيها حنبعل قائدا أعلى للجيوش القرطاجية في إسبانيا[39].

وإعتنى والدها بتربيتها وتثقيفها، وقد نهلت من رحيق الأدب والفن عن طريق معلمين فلاسفة وأدباء[40] مرموقين، فكانت تحسن لغات عصرها علاوة على الرقص والموسيقى فولت بمثابة أديبة حسناء يطمئن إليها فكر وعقل وقلب المرء.

---

373. نفس المرجع ص27.
38. نفس المرجع ص27.
39. نفس المرجع ص28.
40. د محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في عالم قرطاج ص28.

وكما هو معلوم أن الأسر الميسورة في قرطاجة كان لها وعي كبير وإهتمام واسع بتربية البنين والبنات وتسعى إلى تزويدهم بثقافة غزيرة وصحيحة تعمل على دخول معترك الحياة وتجعل منهم زينة الدنيا ومفخرة.

وسوفونسيبة امرأة كاملة الأوصاف خلقا وسيرة، وقد أخذت بألباب الناس إعجابا وإنبهارا في قرطاجنة، وإفتتن فتيان المدينة البونية أيما إفتتان وسار على منوالهم الأمراء والملوك الذين شاهدوها عن كثب، وقد كان للأميرة الحسناء شعور وإحساس بمدى جمالها مع العلم أن والدها كان من قادة قرطاجنة يومذاك، فكانت تسند إليه مهمات خطيرة في العواصم النوميدية، وفتحت أمامه أبواب القصور للقاء الملوك والأمراء[41] ورؤساء القبائل ضمن سياسة قرطاجية هدفها الحفاظ على الصداقة النوميدية.

ولعله كان يستضيف أبناء الملوك والأمراء النوميديين ويعمل على تكريمهم وتكوينهم تكوينا قرطاجيا يجعلهم يميلون إلى قرطاج وحضارتها ويتمرسون على العيش في كنفها ومحيطها.

وممن جاءوا إلى قرطاجنة لينهلوا من معين حضارتها ويتدربوا على أساليب العمل فيها والترف يجدر بنا ذكر الأمير مسنسن، قيل أنه تعرف على سوفونسيبة الحسناء فهام بها، وقيل أن أباها وعده بتزويجه إياها فتحمس الأمير وهو في عنفوان شبابه، وهكذا ذهب إلى إسبانيا على رأس كتيبة من الفرسان الأشاوس منضما إلى الجيش القرطاجي وساهم في معارك شتى حتى أصبح معروفا لدى القيادة الرومانية بشجاعته وإقدامه وطموحه، فلا غرو أن تعمل مصالحها المختصة على ربط الصلة به وتحاول إغراءه بما قد لا يستطيعوه القرطاجيون لا سيما في ظروف مكنت الرومان من التفوق في إسبانيا واعدا إياه يد المساعدة في إفريقيا.

وفيما يخص سوفونسيبة فلعله أدرك أن حلفا بين قرطاج والملك سيفاكس لن يخلو من زواج سياسي، وتكون الأميرة الحسناء مرشحة لمثل تلك الظروف،

41. نفس المرجع ص28

وعلى كل حال فلقد ارتمى مسنسن بين يدي شيبيون وألقيت سوفونسيبة في أحضان الملك سيفاكس فزفت له سنة 205 ق.م وتعاقبت الأحداث بصفة سريعة ومريعة وانهزم سيفاكس وسقط أسيرا جريحا، ومثل مغلولا في موكب أقيم احتفالا بانتصار شيبيون في معركة زامة سنة 201 ق م.

سيغا عاصمة ملكية

بالنسبة إلى مدينة سيغا العاصمة الملكية لسيفاكس، فهي تقع على ضفاف نهر سيغا، وهي قريبة من مصبه، والذي يشهد ارتفاعا كبيرا في مستوى الرمال.

وجاء ذكر مدينة سيغا في القرن الرابع قبل الميلاد من المؤرخ بسودوسيلاكس[42]، وهي المدينة التي تعتبر امتدادا لمحطة فنيقية كانت موجودة في البداية بجزيرة رشقون، والتي جرى تحويلها من الجزيرة إلى أرض اليابسة.

ضريح سيغا الملكي

في ضاحية سيغا يوجد ضريح بني رينان الذي بني في قمة مرتفع جبلي يقدر علوه ب 221م. وهذا الضريح الجنائزي له شكل ذو طابع لوبي قديم والمعرف بالبازينة (Bazina)، ويمتاز بحجمه الكبير، وجرت حفريات أثرية حول هذا الضريح فويمه (Vuillemot) ما بين 1961-1962، وتم إعادة البحث الأثري فيه ما بين 1977-1978 على يد فريديريك راكوب (Friedrich Rakob)[43]، ويصعب إعتبار الضريح كمدفن للملك سيفاكس، الذي وافته المنية في إيطاليا بمدينة تيبور (Tibur) حتى إنه يقال والله أعلم أن الجمهورية الإيطالية أدت

42. Voir Jean Pierre, la porte syphax et son royauume P86.
l'Algerie au temps des royaumes Numides, SOMOGY edit d'art Paris 2003.
Et voir aussi LIPINSKI, 1922 PP 308-309 n∝23.
43. Id Ibid la porte P 90.

تكاليف جنازته ومراسيم دفنه. والمؤرخ والأثري فويمه (Vuillemot)[44] يعتقد أن الضريح يخص إبن سيفاكس وهو فرمينا 191-201 ق.م أما كامبس (G.Camps) فيرى أن الضريح بالذات جرى بناؤه في عهد سيفاكس عندما كان على قيد الحياة، بينما البناء التحتي أو السفلي تم تحويله، واستعمل في القرن الثاني قبل الميلاد.

وهناك تساؤل مطروح هل الحفريات التي أجريت كانت كاملة أم لا؟ وهل كان هنالك جثمان الملك المتوفى قابعا في داخل الضريح كما كان الأمر قائما في ضريح الخروب حيث عثر على قبر ضيق موجود[45] تحت المبنى الرئيسي للخروب؟.

على كل حال فإن ضريح بني رينان قد تهدم على يد عاهل بل ملك منافس الذي كان يكن حقدا وكراهية للملك الذي بنى الضريح[46]. وقد جرى ذلك ما بين 108-106 ق.م حيث أن الملك بوخوس القديم إستولى على الجزء النوميدي من مملكة سيفاكس الذي تخلى يوغرطة له[47]، وهذا ما يعتقده المؤرخ الفرنسي كامبس في هذا الشأن.

هذا ومما يجب ذكره أن الطابع العمراني للضريح مستوحى من خارج نوميديا، ويشهد بشكل ظاهر لعظمة عاصمة المملكة المازيلسية وتفتح ملوكها على الحضارة القرطاجية (البونية) التي كانت سائدة في ذلك العهد[48].

---

44. Id Ibid P 90.
45. Id Ibid la porte P 90.
46. Id Ibid la porte P 90.
47. Id Ibid P 90.
48. Id Ibid P 90.

الفصل الثالث

الملك ماسينيسا (240 ق.م - 149 ق.م)

مكانة ماسينيسا في التاريخ

ولد ماسينيسا بن قايا في 240 ق.م، وعاش مدة من الزمن في قرطاجنة، وكانت يومذاك من أجمل المدن العالمية في العهد القديم، عاصمة إمبراطورية بحرية، يعد ماسينيسا واحدا من ملوك نوميديا العظام، ذاع صيته في أرجاء العالم القديم.

كان ملكا قويا وطموحا، ضحى بكل نفيس من أجل ترسيخ الوحدة الترابية للمملكة النوميدية، حارب سيفاكس ملك نوميديا الغربية، فانتصر عليه فاستطاع بذلك توحيد كل نوميديا تحت رايته. وكان يحضر المعارك الحربية ويقودها بنفسه.

وعيبه الوحيد في حروبه، أنه اختار التحالف مع روما العدوة اللدودة لنوميديا ضد القرطاجيين الذين كانت تربطهم أواصر الدم والحضارة مع النوميديين.

وعمل ماسينيسا كل ما في وسعه من أجل ربط علاقات جيدة بالرومان واليونان في سبيل وصوله إلى غايته، وهو القضاء على قرطاجنة فحقّق ما أراد.

وقد إعتمد في ملكه على قاعدة إقتصادية وإجتماعية ثابتة، وذلك لأنه رأى أن تكوين جيش بري وأسطول بحري يتطلب وجود خزينة يتم تمويلها بصفة منتظمة.

واعترضت ماسينيسا في أول وهلة عراقيل، منها طبيعة النظام الإجتماعي والإقتصادي الذي كان قائما في نوميديا، وهو نظام ثنائي، يتمثل في وجود الحياة الزراعية القائمة على الإستقرار، إلى جانب الحياة الرعوية التي تتطلب التنقل المستمر.

وإذا كانت الحياة الزراعية سجلت تطورا ملموسا قبل عهد ماسينيسا، فإن هذا الملك قد حقق خطة كبرى في طريق تحقيق ما يلي:

أولا: تعويد النوميديين على النظام؛ فالزراعة كانت - وما تزال - خير علم للنظام، نظرا إلى ارتباط إنتاجها بمواعيد معينة من السنة.

ثانيا: تعويد سكان نوميديا على حياة الاستقرار، لأن الزراعة تفرض على من يعنى بها أن يستقر في انتظار المحصول، ومع طول الوقت يتولد التعلق بالأرض الذي يكون هو أولى مراحل التعلق بالوطن.

ثالثا: تحويل النوميدي من شخص يصعب اللحاق به جبائيا، إلى مصدر منتظم من مصادر الخزينة.[1]

ويبدو أن ماسينيسا قد بذل جهودا خارقة في سبيل تحقيق هذه الغاية، وأنه قد حقق عدة منشآت للري، نسبت خطأ للرومان وأنه إستثمر مساحات شاسعة من الأرض، مع العلم أن ماسينيسا كان يملك أرضا واسعة صالحة للزراعة، ويذكر لنا ديودور الصقلي، أنه ترك بعد وفاته لكل واحد من أبنائه قطعة أرض تتكون من 10.000بليترا (Plitre)، أي 875 هكتارا تقريبا مع ما يلزم الأمر من أدوات ومواد زراعية.

وقد كان لماسينيسا أربعة وأربعون ولدا، مات أكثرهم قبل أن يصلوا إلى مرحلة البلوغ. وحسب ديودور الصقلي، فقد بقي منهم عشرة عند وفاته.

---

1. أنظر كتابي ماسينيسا ويوغرطة الطبعة الأولى 1991 ديوان المطبوعات الجامعية ص24، ومحمد الإبراهيمي، الجزائر، في ضوء التاريخ ص79، وإلى مقالة في مجلة التاريخ الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية، العدد 21، حول ماسينيسا، ص7-15/ عام 1986.

وهكذا، فإن مساحة الأراضي التي تركها بعده لا يمكن تقسيمها على ورثته العشرة من أبنائه، بل أكثر من ذلك عددا، ولكن مع الأسف لا نستطيع أن نعرف بالضبط مجموع الأراضي التي كان يمتلكها ماسينيسا بالضبط.

وعلاوة على ذلك، نجد أن ماسينيسا كانت في حوزته أراضي العرش، التي كان ينفق بواسطة مدخولها جزء من نفقات الجيش والقصور الملكية.

جمل ماسينيسا مدينة سيرتا بما أنشأ فيها من مباني فخمة، كما أنه عني كثيرا بالاقتصاد والتجارة، وكان من يقظته الحربية وشدة حذره، إنشاؤه لأسطول ضخم وجيش منظم وضرب السكة باسمه، وكثيرا ما عمل على توحيد المغرب العربي القديم وجمعه على دولة واحدة وإبعاد الأجنبي عنه؛ فلقد أجمع أهل التاريخ على مدحه والثناء على أخلاقه وسجاياه.

ومن الناحية الدينية، نرى ماسينيسا يحول إعتقاد رعاياه، ذلك الاعتقاد الذي أعطاه شكلا أسمى وأرقى وأقرب للمدينة، فحمل النوميديين على عبادة آلهة اليونان مثل سيريس، ود يمييتر وقورية؛ إذ أن كل مدينة تعبر عن طموحها وأمانيها، تعبيرا دينيا ملائما، والذي يلائم القرويين هو تقديس إله " الزراعة والفلاحة ".

على كل حال، فإن الإقليد ماسينيسا، والاقليد كلمة ليبية معناها الملك أو رئيس فيدرالية قبائل؛ إذ كانت الممالك تتكون من تكتل عدد من القبائل والتفافها تحت سلطة قائد واحد هو الاقليد.

إن ماسينيسا كان يحب الظهور كملك عظيم أو ربما في صورة إله، فقد بدأ يظهر تقديس الملوك المتألهين في عهده، في خلال حكمه وبعد موته بعشر سنين، أقيم له معبد بدوقة وكانت النظرية التي نادى بها ماسينيسا علانية أمام الأجانب سواء كانوا فينيقيين أو رومانيين هو أن إفريقيا للأفارقة.

حروب ماسينيسا

كرس ماسينيسا شبابه لمحاربة أعدائه التقليديين، ملوك مملكة ماسينيسا، وهي نوميديا الغربية، وقد تمثل الفصل الأخير من هذه الحروب في إنتصاره على سيفاكس، ملك نوميديا الغربية، إلا أنه رغم نجاح ماسينيسا في بسط نفوذه على مملكة غريمه، فإن فرمينا إبن سيفاكس ظل يحكم في بعض جهات مملكة أبيه وحاول التقرب من روما، كما ساهم في توجيه بعض قواته إلى قرطاجنة، وهذا يسمح باستنتاج أن فرمينا قد ظل يحكم في بعض الجهات الجنوبية من مملكة ماسينيسا؛ إذ أن هناك شهادات قاطعة، تؤكد نجاح ماسينيسا في بسط نفوذه إلى نهر ملوية غربا، ويبدو من المؤكد أن ماسينيسا إستولى على الجزائر الوسطى عام 201 قبل الميلاد، واستطاع هذا الأخير، بفضل تحالفه مع روما من جهة ومع باغا ملك المور من جهة أخرى، أن يفرض على فرمينا عزلة ساعدت ماسينيسا بالقضاء، على مملكة نوميديا الغربية قضاء تاما في حدود عام 150 ق.م، أي بعد مرور نحو خمسين سنة على انهزام سيفاكس ودخول ماسينيسا ظافرا.

أما ظروف توسع ماسينيسا شرقا، فيبدو أنها معروفة أكثر من عمليات التوسع في إتجاه الغرب، ذلك أن المنطقة الشرقية كانت قد دخلت في دائرة التاريخ، رغم من أن المساحات التي استولى عليها ماسينيسا شرقا أقل من المساحات التي توسع فيها غربا، فإن المساحات الشرقية كانت ذات أهمية خاصة، نظرا إلى أنها خضعت لقرطاجنة وإستفادت من إمكانيات في الاستثمار أكثر، ولهذا لا يستبعد أن تكون هذه المناطق أكثر كثافة سكانية وأكثر ثروة. إلا أن توسع ماسينيسا في هذه المناطق لم يتم دفعة واحدة، ذلك أن القائد الروماني سيبيون الإفريقي، كان قد إعترف في معاهدة مع قرطاجنة عام 201ق.م، بأن ممتلكات ماسينيسا ثغرة يستطيع من خلالها أن يتوسع شرقا.

ويبدو أنه لم يحاول الإستفادة من هذه الثغرة القانونية فورا، لأنه كان مشغولا بتدعيم ملكه لأن التوسع في الناحية يساعده على شغل القبائل الموالية بالحرب، وعلى ترويض القبائل الأخرى، وبالتالي يعطيه قوة يسخرها فيما بعد شرقا..

حروبه لقرطاجنة

إنتظر ماسينيسا نحو ست سنوات قبل أن يشرع في محاربة قرطاجنة، واستغل لذلك أول فرصة سنحت، ممثلة في قرار قائد نوميدي متمرد اسمه افتير إلى طرابلس عام 195 ق.م فطلب ماسينيسا من قرطاجنة هذا الترخيص، لكن يبدو أن ماسينيسا انتظر بعض الوقت حتى يتم إبعاد حنبعل من المسؤولية ليجس نبض قرطاجنة، فاخترق أراضيها ولاحق القائد النوميدي المتمرد، وفرض الإتاوة على بعض المدن في الطريق، وعندما اشتكت قرطاجنة إلى روما رأت هذه عدم التدخل.

على كل، إنتظر ماسينيسا مدّة عشر سنوات أخرى قبل أن يقدم على محاولة توسع جديد في الأراضي الخاضعة لقرطاجنة، ففي عام 182 ق.م، احتل منطقة كانت تابعة لأبيه غايا وكان صيفاكس قد أعادها إلى قرطاجنة. على كل، نجد أن ماسينيسا، الملك الجزائري كانت له طموحات كبيرة، ولذا قام بمحاولة القرطاجنيين، وفي نفس الوقت عقد تحالفا مع روما (في حوالي 240 ق.م إلى 149 ق.م) وقد أراد بذلك أن يقوي مكانته كملك نوميدي يحكم كل البلاد الجزائرية تحت راية حكمه، وكان ذلك عن طريق عقد حلف مع روما التي كانت كدولة عظمى تهيمن على منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط، وعاد إلى قرطاجنة لأنه وجدها كمنافس خطير نحو طموحاته الهادفة إلى امتلاك أكبر قدر من الأراضي الزراعية، وكذا نحو فكرته في إنشاء مملكة قوية وكبيرة في البلاد النوميدية، أي كل شمال البلاد الجزائرية الحالية، والتي تشمل أيضا تونس الحالية التي كانت تعتبر آنذاك كتراب تابع للدولة القرطاجنية.

وإن الحروب التي خاضها ماسينيسا دامت حوالي خمسون سنة، أي طيلة حكمه وكانت هذه الحروب في أغلبها ضد قرطاجنة، التي كان في صراع معها وتعود إلى مطالبه الترابية. وكان يرى أن قرطاجنة اغتصبت منه تلك الأراضي التي كانت تابعة لأجداده.

وقد اعتمد في مطالبه الترابية على الجوانب القانونية الفعالة؛ حيث تبين أن قرطاجنة لم تحصل على تلك الأراضي التابعة لها إلا عن طريق العنف، وعلى أن أصل ملكيتها لها لا يتم إلا بالعدل.

والغريب حقا، أن ماسينيسا (حسب ابينوس)، قد تربى في قرطاجنة وزوج إحدى بناته إلى قرطاجني يدعى أدربعل، ومع العلم أن ازواليس عم ماسينيسا كان متزوجا بإحدى قريبات حنبعل، فرغم القرابة والجوار والنشأة التي جمعته بقرطاجنة، فإنه تنكر لكل ذلك في سبيل تدعيم و توطيد ملكه وتوسيع رقعة دولته، فهادن دولة قرطاجنة وأصبح حليفا لروما من أجل تحقيق أغراضه ومراميه.

وقد نجح فعلا ماسينيسا[2] في استرجاع مملكته وتوسيع حدودها بعد معارك وحروب ضد قرطاجنة والتي دامت نصف قرن كما ذكرنا ذلك آنفا، واستطاع أن يحصل خلالها على أراض خصبة وغنية كانت تابعة للدولة القرطاجنية، وذلك خلال فترة تمتد من 201 ق.م إلى 150ق.م.

ويضيق المقام عن ذكر كل المعارك التي خاضها ماسينيسا ضد قرطاجنة بالتفصيل، والتي كانت تهدف إلى ضم الأراضي التي اغتصبتها منه قرطاجنة والتي كانت تابعة لأجداده ولا بأس أن نذكر أهم هذه المعارك حسب التسلسل التاريخي:

في سنة 193 قبل الميلاد: غزا ماسينيسا أراضي سهل مجردة (أمبوريا) في سيرتا الصغرى.

---

2. الدكتور أحمد السليماني: قرطاجة والليبيون ص114 رسالة دكتوراه درجة الثالثة في التاريخ القديم بالفرنسية نوقشت في جامعة ليس عام 1981 موجودة بمكتبة معهد التاريخ بجامعة الجزائر.

وفي سنة 182 قبل الميلاد: احتل الأراضي التي أرجعتها قرطاجنة إلى سيفاكس[3].

وفي سنة 174 قبل الميلاد: إحتل ماسينيسا سبعين مدينة في وسط تونس وهناك مبالغة في عدد هذه المدن.

وفي سنة 162 قبل الميلاد: قام ماسينيسا ببسط نفوذه على أراضي التراب القرطاجني الواقعة في سهل مجردة.

وفي سنة 153 قبل الميلاد: حتى 152 قبل الميلاد، قام ماسينيسا بإحتلال الأراضي الموجودة في الهضاب الكبرى، وكذلك الأراضي الواقعة في توسكا.

وفي سنة 150 قبل الميلاد: قام بمحاصرة أورسكايا لا ندري مكان المدينة هذه بالضبط.

وبهذا التوسع الذي حقَّقه ماسينيسا في توسيع مملكته، جسَّم بذلك الشعار الذي رفعه " إفريقيا للأفارقة ".

دور ماسينيسا في معركة زاما

ومن المعارك التي لعب ماسينيسا فيها دورا بارزا، معركة زاما، وهي تدخل في نطاق الحرب البونيقية.

وتمثل هذه المعركة الفصل الأخير منها؛ فقد تحصل سيبيون الأميلي، القائد العسكري الروماني الذي أصبح قنصلا، عام 205 قبل الميلاد، على ترخيص مَجلس الشيوخ بتنظيم حملة ضد قرطاجنة داخل التراب الإفريقي، ونظرا لوجوده في أرض لا يعرفها، فقد حرص على ضمان حلفاء من بين النوميديين، وعلى هذا الأساس اتصل بكل من صيفاكس ملك مازيسيليا، أي نوميديا الغربية وماسينيسا ملك ماسينيسا، أي نوميديا الشرقية.

3. نفس المرجع ص116-117

لكن صيفاكس فضل التحالف مع قرطاجنة؛ إذ إلتقت مصلحتهما في إقتسام ملك ماسينيسا لكن هذا الأخير كان ما يزال له بعض الأتباع، فوضعهم ووضع خبرته بالأرض والسكان والقتال في خدمة سيبيون، وإستطاع الرجلان، سيبيون وماسينيسا أن ينتصرا على الفرق القرطاجنية في سهل مجردة.

واستدعت قرطاجنة حنبعل الذي كان موجودا في إسبانيا. وعندما التحق حنبعل بقرطاجنة، سارع سيبيون إلى اختيار موقع المعركة، فاتجه إلى الجهة الجنوبية الغربية من قرطاجنة؛ حيث التحق به ماسينيسا لكي يجبر حنبعل على الخروج إليه ومنازلته بعيدا عن قاعدته العسكرية في قرطاج، وقد وضع سيبيون الإفريقي مشاته في القلب، وجعل على يمينه الفرسان الإيطاليين بقيادة تيوتيوس، وعلى يساره الجيش النوميدي فرسانا ومشاة بقيادة ماسينيسا.

أما حنبعل، فقد وضع على مقدمة جيشه، صفا من الفيلة كي يعتمد عليها في رفع معنويات عدوه، إلا أن سيبيون كان قد احتاط لما يمكن أن تحدثه الفيلة من أثر، فأحدث ضمن الفرقة فجوات واسعة يمكن أن تتسرب منها الفيلة دون أن تدوس المقاتلين.

وهناك من يرى أن ماسينيسا هو صانع الإنتصار في زاما، فيمكن أن نستنتج من ذلك بأن خطة مواجهة الفيلة كانت من تدبير ماسينيسا وهي تتلخص أولا في إحداث تلك الفجوات الواسعة بين الصفوف، وفي بث الذعر في الفيلة بالأبواق، ثم تنظيم حركة إلتفاف تكمل عمل الفيلة عندما ترجع هذه على أعقابها، فأدخل بعضها الخلل على مسيرة جيش قرطاجنة وزحزح بعضها الآخر ميمنة وميسرة الجيش القرطاجني، وبعد أن شتتا جيوش الميمنة والميسرة، عادا في مناوءة مباشرة ليهاجما حنبعل من الخلف، وفي الوقت الذب كان فيه القائد القرطاجني يحاول التخفيف من وقع الصدمة، بتشديد الضغط على الجيش الروماني. لم ير حنبعل بدا من الإنسحاب، وذهب إلى سوسة ونصح حكومته بأن تفاوض روما وإنتهت المفاوضات إلى معاهدة 201 قبل الميلاد، التي تمنع قرطاجنة إعلان أية حرب داخل إفريقيا أو خارجها

دون إذن من روما، ونصّت في نفس الوقت على حق ماسينيسا في المطالبة بالأراضي الموجودة داخل الحدود القرطاجنية.

ولقد كان ماسينيسا رجلا يمتاز بالصرامة والجد، وكان في إستطاعته أن يبقى ممتطيا حصانه نهارا وليلا بدون أن يشعر بأي تعب يذكر.

مات ماسينيسا سنة 148 قبل الميلاد، تاركا وراءه أعمالا جليلة؛ فهو كان من كبار الملوك الذين حكموا بلاد المغرب كيوسف بن تاشفين المرابطي، والمهدي بن تومرت، وعبد المؤمن بن علي الموحدي الجزائري، الذين كانوا يشبهونه في عدة خصال.

وقد ترك ماسينيسا بعد موته سنة 148 قبل الميلاد، مملكة شاسعة، مترامية الأطراف إلى أبنائه الثلاثة مسيبسا، مستحنبعل و غولوسة، وقدم سيبيون الإيميلي إلى مدينة قرتا بطلب من الملك ماسينيسا لما أحس هذا الأخير بدنو أجله ووصل بعد موته بقليل، وقسم السلطة على الأمراء الثلاثة.

أخذ مسيبسا، وهو أكبرهم سنا، السلطة الإدارية ومستحنبعل السلطة العدلية أو سلطة العدالة، وغولوسة حصل على السلطة العسكرية وقيادة الجيش.

ورجع سيبيون بعد ذلك إلى محاربة القرطاجنيين وأخذ الملك غولوسة مع قواته العسكرية وفرسانه فكان له خير عون وأكبر مساعد على الإنتصار في الحرب البونية الثالثة التي انتهت بتهديم قرطاجنة.

وبعد ذلك الانتصار، اكتفت روما مبدئيا بالاستيلاء على أرض حكومة قرطاج (أفريكا)، لأن أبناء ماسينيسا كانوا كلهم طوع أمرها ورهن إشارتها، وكانت تعتبرهم تحت ظلها وحمايتها؛ فلم تر فائدة في زيادة الاستيلاء على مملكتهم، التي كانت تستغلها بدون عناء ولا كافة ولا نفقات، وكانت تعتبرها تحت تصرفها، مثلما كانت تصرفت في الملك غولوسة وفي قواته العسكرية، فربحت بهم الحرب ضد القرطاجنيين وخلفت روما لأبناء ماسينيسا بعضا

مما إحتلته كغنيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، فتركت لهم مكتبة قرطاجنة وتنازلت لهم عن بعض الأراضي.

وقام ماسينيسا بتشجيع استثمار الأراضي الزراعية[4] مما أدى إلى ازدهار الفلاحة النوميدية إزدهارا عظيما جعل من الأراضي التي افتكها من القرطاجنيين ملكا خاصا به استثمرها بنفسه[5] ويورد لنا ديودور الصقلي: أن ماسينيسا برع في الأعمال ذات الطابع الفلاحي.

وفي عهده لم يتوزع الفلاحون الجدد على المزارع تجنبا للمفاجآت، بل تجمعوا في قرى محصنة، وبهذه الطريقة عمل ماسينيسا على إدخال التمدن والحضارة على البربر، فأصبحوا بذلك متحضرين، كما لاحظ هذا الجغرافي الإغريقي سترابون[6]

واستوحى نظاما خاصا للمدن النوميدية من النظام القرطاجني في تسيير المدن الساحلية وقد مكنه ذلك من منح المدن الجزائرية نظاما قرطاجنيا، يعتمد على حكام يدعون الشفيط والجمع باللغة القرطاجنية شوفيتيم، وقام ماسينيسا بنشر عبادة الآلهة اليونانية سيريس (ceres) وقورية وديميتر في أوساط النوميديين[7] وسعى هذا الملك النوميدي أن يكون ملكا بمعنى الكلمة، وربما أراد أن يظهر بمظهر الآلهة[8] وعلى كل حال، فإن عبادة الإله الملك ظهرت وتركزت في عهده، فبعد مرور عشرة أعوام من وفاة ماسينيسا، أقيم لهذا الملك معبدا في دوقة (بالقرب من الكاف في التراب التونسي) وكان قد صلك أو صنع

---

4. أنظر كتابي ماسينيسا ويوغرطة ص29-30 وانظر شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، الجزء الأول/ تعريب البشير بن سلامة محمد مزالي، ص135.

5. أنظر جوليان نفس المرجع ص135.

6. نفس المرجع ص135.

7. نفس المرجع ص135-136.

8. *أنظر د/ محمد البشير الشنتي، قصية السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة ص38،* مجلة التاريخ، معهد التاريخ، العدد 1888/5.

نقودا تصوره على رأسه تاجا، مع العلم أن ماسينيسا كان له جيش وأسطول نوميدي لم يرق إلى مستوى الجيش القرطاجني وأسطولها البحري العتيد.

وجعل ماسينيسا قيرتا العاصمة الملكية من أرقى المدن العالمية يومئذ، وبنى فيها قصرا كان يؤمه ويأتيه الناس من كل حدب وصوب من جميع أنحاء العالم القديم، وكانت عاصمته قيرتا قبلة وملاذا أمينا ومرتعا للفنانين والموسيقيين الإغريق. ومما يدل على إعجاب اليونانيين بماسينيسا أن هناك أحد المعجبين الإغريق وهو " الدالي " الذي أقام للملك النوميدي في جزيرته مسقط رأسه تمثالا، تخليدا له على مآثره الكثيرة. وعمل ماسينيسا على أن يكون الحكم وراثيا لأكبر أبنائه مثلما هو معمول به في الممالك اليونانية. ولكن لم يستطع أن يحقق مبتغاه هذا، لأن الرومان وقفوا له بالمرصاد، فعارض سيبيون الإيميلي الروماني هذه الفكرة الملكية النوميدية وعمد إلى تجزئة المملكة النوميدية ولو أن هناك من يشك في تبعية الدولة النوميدية لروما. على كل حال، فقد اعترف مجلس الشيوخ الروماني وهذا نقلا لليفيوس عن بوليبيوس بوجود السيادة النوميدية على مملكة ماسينيسا[9] جاء فيها:

أرسل السيناتو بعثة لتهنئة ماسينيسا ليس لكونه سيطر على مملكة آبائه فحسب[10]، ولكن لأنه وسعها بضم القسم الأكثر غنى من مملكة صيفاك[11] (Livius, XXX VII, 53, 22).

ويفهم من بوليبيوس أن ماسينيسا ملك حر، ولكنه صديق للرومان، شأنه في ذلك شأن معاصريهم الملوك المتاخمين لحدود الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم فلا مجال لفكرة العطاء (Donation)، أي منحه المملكة من قبل الرومان التي روّج لها صلوستيوس وليفيوس. وفي هذا الشأن جاء عند

1. أنظر د/ محمد البشير الشنتي، مرجع سابق ص38.
2. نفس الرجع، ص38 مع العلم أن د/شنيتي اعتمد في روايته هذه على بوليبيوس، المجلد 8,1، XV
3. نفس المرجع، ص38.

بوليبيوس أن معاهدة السلم المبرمة بين روما وقرطاجنة عقب معركة زاما (202 ق.م) تضمنت مصالح المملكة النوميدية كطرف ثالث في النزاع ومنها: أن الممتلكات والحقول والمدن وجميع ما هو بحوزة ماسينيسا أو كان تابعا لمملكة آبائه يجب إعادته إليه (XV. 18.1).

أما إبيانوس، فروايته حول الموضوع تجعلنا نستنتج أن ماسينيسا[12] دخل الحرب الإفريقية البونية الثالثة كملك نوميدي قوي الجانب، وأنه دخلها إلى جانب حليفه سيبيون مخيرا على رأس جيش من رعايا مملكة أجداده الماسيليس، جيش مدَّرب في فنون وأساليب القتال التي تقتضيها الأرض الإفريقية، وأنه دخلها بعبقريته العسكرية وإقدامه دون أن يهمل نصائح حليفه سيبيون عندما كان محتاجا إليها،[13] وعرف كيف يتخلص منها عندما كانت تعوقه. وفي هذا السياق يدخل هجومه الانفرادي على خصمه سيفاكس ودخوله مدينة قيرتا وقبضه على سوفونيسب، أرملة الملك الأسير سيفاكس[14] وتزوج منها ثم قتل ماسينيسا هذه الأميرة الحسناء بدلا من تسليمها لحليفه الروماني سيبيون الذي ألح في طلبها،[15] وقد كان هذا الأخير يخشى على ماسينيسا من تلك السيدة القرطاجنية القوية التأثير، فينقلب ضده ويفسد خططه العسكرية في إفريقيا،[16] التي تضمنها هجومه المعاكس ضد القرطاجنيين.

ويقول ابيانوس، موضحا تصرفات ماسينيسا بأن الجنود[17] الرومان المصاحبين لجيش ماسينيسا لم يلعبوا دورا يذكر في المعارك التي دارت ضد

12. د/ محمد البشير الشنتي، مرجع سابق ص38.
13. نفس المرجع، ص38.
14. نفس المرجع، ص38.
15. نفس المرجع ص38.
16. نفس المرجع ص38.
17. نفس المرجع ص38.

صيفاك، وأن ماسينيسا هو الذي تمكن من الانتصار على[18] عدوه أسره، وأنه قرر إرساله إلى حليفه سيبيون بمحض إرادته وليس قائدا لجنود الرومان، ليليوس هو الذي أجبره على ذلك[19] وأن رفضه لتسليم سوفونيسب نابع من كونه اعتبر نفسه صاحب الحق الأول في غنائم المعركة التي انتصر فيها لما أصر حليفه على المطالبة بها، جرعها السم بدلا من وضعها غنيمة بيد سيبيون،[20] الذي فهم ماذا يرمي إليه ماسينيسا من فعلته، فغض الطرف عنه ولم يعاتبه عنه.

ومما يدل على استقلالية المملكة النوميدية، أن ماسينيسا وضع في أصبع إبنه الأكبر خاتم الملك[1] فيدل هذا على أولويته في الخلافة شرعا، لكنه فضل أن يبقى الإعلان عن ذلك إلى حين حضور ممثل روما ليشهد الأمر ويعبر عن اعتراف مجلس الشيوخ الروماني بذلك.

على كل حال، فإن شؤون المملكة النوميدية لم يحدث فيها تغيير بعد وفاة ماسينيسا، ثم أن مكيبسا ما لبث أن بقي وحيدا بعد وفاة أخويه ولم يتدخل الرومان في إضافة شخص أو أكثر شريكا له في قيادة المملكة النوميدية، مما يرجح القول باستقلاليتها ويكون القيادة العليا فيها كانت لمكيبسا ولم يكن أخواه سوى مساعدين له[21].

وإذا عدنا إلى المعطيات الأثرية وعلى رأسها مسكوكات المملكة النوميدية، فإننا لن نعثر على قطع تنسب إلى غلوسا أو مستبعل، في حين توجد قطع نسبها المختصون لمكيبسا، وهو ما يدل على أنه تمتع بلقب الملك من دون أخويه[22]، ثم إن النقود الملكية وغير الملكية المنسوبة للمدن العائدة لتلك الفترة، لا تحمل إشارات يفهم منها أي وجه من أوجه التبعية أو الارتباط مع الرومان[23].

18. نفس المرجع ص38.
19. نفس المرجع ص38.
20. نفس المرجع ص38.
21. نفس المرجع ص38.
22. نفس المرجع ص38.
23. نفس المرجع ص38.

ومن مزايا نظام ماسينيسا أو مزايا عهده، أن نوميديا عرفت ازدهارا كبيرا وسط سلطانه في أرجاء واسعة تمثل الجزائر الحالية، مع جزء من تونس الحالية، جلب ماسينيسا أموالا ضخمة من هذه الأراضي الشاسعة، وأنفق على جيشه المقدام وعمم الفلاحة وشجع العمران[24]

وساهم الود والخوف لدى رعاياه في تعلقهم بملكهم، وتواصلت عبادته على مر العصور[25] وهو يشبه في هذا الجانب ملوك الفراعنة في مصر القديمة، الذين كانوا بمثابة ملوك آلهة مقدسين في نفس الوقت كأخناتون ورمسيس الثاني وغيرهما.

ويوجد في الخروب بالقرب من مدينة قيرتا (قسنطينة) ضريح من الحجارة المنحوتة مستوحى في بعض الجوانب من النمط الإغريقي الفني، يدعى صومعة الخروب وقام بترميمه فنانون 1915-1916 من القرن الحالي أثناء أعمال ترميم هذا الأثر الفني القديم، اكتشف قبر في هذا الأثر التاريخي[1] مع متاع كثير (سلاح وآنية طعام وغيرها) وحوض من فضة مملوء بالرماد، ويحتمل أن هذا الرماد قد يكون ما بقي من جثة الملك ماسينيسا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العصر والموقع والفن المعماري وعادة ما يتم إحراق الموتى في ذلك العصر. ويرجح أن يكون ذلك مدفنا للملك ماسينيسا، الذي أراد أن يطل على عاصمة مملكته في موقع ممتاز هو كدية الخروب، لتذكره الأجيال القادمة بما فعله من إنجازات معتبرة ومآثر خالدة.

أود في الأخير أن أذكر أن ماسينيسا رغم تحالفه مع الرومان[26]، فإنه تأسف على نية الرومان وما كانوا يهدفون من تدمير قرطاجنة وإزالتها من الوجود، وكانت له في أعماق نفسه كراهية للرومان، وهذا ما يفسر تكوين ابنه

---

24. أنظر شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، الجزء 1، مترجم إلى العربية، ص/137.

25. نفس المرجع ص138.

26. أنظر شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 138.

مستنبعل على تربية وثقافية يونانية محضة لكي ينهل من المعين الحضاري الهلينستي وكوجه من المعارضة للثقافة الرومانية الدخيلة على وطنه النوميدي الغالي.

مملكة ماسينسن من خلال النقائش البونية: الأنصاب المكتوبة في معبد الحفرة بقسنطينة نموذجا

رب سائل لماذا اخترت الكتابة والبحث في موضوع مملكة ماسينسن من خلال الأنصاب البونية المكتوبة في معبد الحفرة بقسنطينة أي قيرتا القديمة؟.

والجواب على ذلك هو أنني اخترت هذا الموضوع الشائك والصعب لأني وجدت فراغا كبيرا ونقصا ملحوظا في الدراسات المتعلقة بالبحث في آثار مملكة ماسينسن من الناحية الإيبكرافية ولا سيما أن علم الإيبكرافية أي علم الكاتبات القديمة قد عرف تطورا كبيرا بفضل علماء أجلاء من فرنسا وبريطانيا والدانمرك والسويد ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بجان فرانسوا شومبوليون الذي استطاع أن يفك اللغة الهيروغليفية بمعية ومساعدة علماء من بريطانيا وفرنسا وغيرهما، ولا ننسى دور التحكم ومعرفة لكنة اللغة الفينيقية واللغات الشرقية الأخرى في الاطلاع على مكنونات النقوش الفينيـ-قية البونية التي بواسطتها نستطيع أن نحل كثيرا من الغموض والألغاز العالقة بتاريخ نوميديا القديمة أي الجزائر القديمة وتاريخ إفريقيا الشمالية.

وقبل الحديث في النقوش المكتوبة التي عثر عليها علماء الآثار في قسنطينة (بعضها عن طريق الصدفة)، وتواصلت عمليات التنقيب على هذه النقائش إعتمادا على المادة التاريخية والمواقع الأثرية التي حددها العالم المؤرخ ستيفان قزال صاحب كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية في ثماني مجلدات وهو مؤلف الأطلس الأثري، فرأيت قبل دراسة هذه النقائش التي تذكر لنا مملكة ماسينسن التي عثر عليها في معبد الحفرة، فوجدت ولا بأس أن أعرج وأمهد لدخولي في صلب الموضوع على الحديث عن تاريخ وظروف نشأة

البحث في النقائش البونية التي أمدتنا بمادة تاريخية هامة تخص تاريخ قرطاجة ونوميديا وتطور الممالك النوميدية في بعض الوجوه التي تشكو من ثغرات تاريخية بليغة.

مكانة النقائش البونية

وهناك من يرى في هذا السياق أن إفريقيا الشمالية دخلت إلى المرحلة التاريخية بعدما تعرف عليها الفينيقيون وأقاموا فيها، وأصبحت لهم في سواحل هذه البلاد مصارف ومخازن ومدن وقرى، مع العلم أن الإشراقة الكبرى تحققت بعد إنشاء قرت حدشت (أي قرطاجة) باللغة الفينيقية.

ومن نتائج الحضور الفينيقي والقرطاجي وإنتشار الكتابة في مختلف ميادين الحياة من تجارة وإدارة وتوثيق، وكتب الذين عاشوا في هذه الربوع الفينيقية القرطاجية[27] ودونوا تجاربهم الدينية والدنيوية وانتقل الحرف إلى المصانع والمتاجر والمعابد والمدافن علاوة على المدارس وفضاءات تضمن ظروف الإبداع، وتجاوز الحرف الديار الفينيقية البونية ليندس وينتشر في الممالك النوميدية مصولية كمملكة ماسينسن أو مسيصولية كمملكة سيفاك وابنه فرمينا فيما بعد، بل تجاوز تخوم هذه الممالك ليصل إلى دنيا الماووريين[28] حتى أصبحت دور الكتب تعج بوثائق ومصنفات مختلفة الأغراض أشير إليها مرارا وتكرارا في روايات أوردها قدماء الإغريق والرومان.

وقد أضرت عوائد الدهر بالكتب القرطاجية فذهب جلها غذاء النار التي أضرمتها الجيوش الرومانية في قرطاجة بأمر من قائدها سيبيون إمليانوس إبان الحرب البونية الثالثة (149 ق.م – 146 ق.م) وحول بعضها إلى القصور

27. أنظر د. محمد حسين فنطر، حول النقائش البونية، ص1، إفريقية سلسلة مجلة الدراسات الفينيقية البونية والآثار اللوبية، عدد 11/ المعهد الوطني للتراث، تونس.

28. نفس المرجع، ص1، ولمزيد من التفاصيل التي أوردها د. فنطر:
Karchrdon, voir S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tome I, 1913, et Voir Auguste Audolleu, Carthage romaine, Paris 1901, Page 1 No 1.

النوميدية فتوارثها الملوك والأمراء وتذكر المصادر القديمة أن الدولة الرومانية وضعت يدها على الموسوعة الزراعية التي صنفها ماجون القرطاجي وكانت هذه الموسوعة تضم ثمانية وعشرين سفرا تناولت الأرض والفلاحة ولكن لم يبق منها إلا ست وستون فقرة توشي بأغراض الموسوعة وأهدافها: ففيها فصول مطولة حول الزراعات الكبرى، أما عن كتب البونيين الأخرى وقد كانت كثيرة العدد مختلفة الغرض فلم يبق منها إلا بعض إشارات عابرة تضمنتها مصنفات الأقدمين[29] ومن بقايا تلك الكتب البونية أختام من طين ساعد الحريق الذي إلتهم قرطاج على تمتنيها فضمن لها البقاء وهي أختام ترتدي شكل أقراص عليها صورا مختلفة كانوا يختارونها لأهداف يعسر علينا التعرف والوقوف كنهها[29]

فما تبقى من كتابات البونيين يتمثل في نقائش سطرت على مواد قادرة على الصمود كالحجارة بأنواعها من كلس ورخام وحجر رملي وغيرها وهذه نقائش أخرى سطروها على العظام والعاج والطين المفخور، وصفائح معدنية، ونقود ومجوهرات نذكر منها نوطا من ذهب عثر عليها في أحد القبور القرطاجية[31]، هذا وتوجد نقائش بونية سطرت على الرصاص أو على الجلد، ثم لابد منذكر النقائش التي حفرت على واجهات بعض الأضرحة وتلك التي كتبت بالقلم والحبر على جدران بعض الغرف الجنائزية وغيرها تحكي الحروف الفينيقية أو على شاكلة الحروف الفينيقية، ونقائش حروفها نسخية مختزلة وعرفت عامة بالنقائش البونية الحديثة، وسميت كذلك لأنها أدركت أوج انتشارها بعد سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م مع العلم أن الحرف النسخي المختزل كان معروفا عند القرطاجيين قبل سقوط مدينتهم ولا أدل على ذلك من وجوده على أنصاب أقيمت في قدس بعل حمون قربانا وإجلالا له ولرفيقته

29. نفس المرجع د. فنطر ص2.

30. نفس المرجع ص3.

31. نفس المرجع ص3.

تانيت وتجدر الإشارة إلى نقيشة حروفها نسخية مختزلة سطرت بالقلم والمداد الأحمر على جدار غرفة جنائزية تم العثور عليها في مقبرة بونية تابعة لمدينة قليبية العتيقة، وكان الإغريق يسمونها إسبيس وتعود النقيشة إلى ماين نهاية القرن الثالث ق.م وبداية القرن الثاني ق.م.[32]

ولقد عثر على نقائش بونية في تونس، والجزائر، والمغرب الأقصى، هذا فيما يخص جنوب غرب حوض المتوسط، وقد حظيت قرطاجة بنصيب الأسد للنقائش البونية، وهناك حضور في مدن ومواقع عديدة منها وتيكة وسوسة والديماس والتلالسة وجرجيس[33] وقليبية وكركوان وقربة...الخ.

ولم يتولى الدارسون إحصاء النقائش البونية التي عثر عليها في تونس، ولكن من الثابت إنها آلاف فمنها ما سجل في القسم الأول من ديوان النقائش السامية Corpus Sémitique وبلغ عدد النقائش البونية التي يضمنها هذا القسم ما ينيف عن خمسة آلاف، وهي مجموعة تم العثور عليها في خرائب قرطاجة العتيقة، ومعلوم أن أخرى عديدة أنجبتها حفريات قرطاجة، ولم يتم ضمها إلى الديوان[34] السالف ذكره، وقد عثر على مجموعات أخرى في العديد من المواقع بعضها نشر وبعضها ما زال يترقب دارسا أو ناشرا يتولى التعريف بها والاستفادة منها، فليس أحد يستطيع اليوم تقديم كشف شامل لضبط عدد النقائش البونية الموجودة في تونس والحفريات الجديدة هي التي تمدنا بالجديد وتثري الرصيد.[35]

بالنسبة إلى النقوش البونية الموجودة في الجزائر القديمة والتي كشفها المنقبون الأروبيون، ويعتبر معبد الحفرة في قسنطينة (وهو بيت القصيد في بحثنا هذا) أي قيرتا القديمة يعد من أكبر المخزونات على المستوى العالمي من ناحية

---

32. نفس المرجع ص3.

33. نفس المرجع ص3، ولمزيد من التفاصيل أنظر: Voir J.G.Fevrier, Histoire de l'Ecriture, Paris

34. نفس المرجع ص5.

35. نفس المرجع ص6.

قيمة ودلالات هذه النقوش والتي أخذت حيزا هاما في دراستنا، مع العلم أن منطقة قالمة وإيجيلجيلي، وسكيكدة وسيغن وتيبازة وقوراية بالقرب من شرشال ويول والطارف وإيسكوم وكلها بمثابة مواقع أثرية تحتوي على نقائش بونية تحتاج إلأى حفريات جديدة (وسنقوم بذلك في إطار فرقة البحث إن شاء الله)، وتوجد مواقع تحتوي على نقائش مزدوجة عثر عليها المنقبون مكتوبة باللوبية والبونية وهي موجودة في دوقة وتيبور سوق، ومكتار، وبرج هلال، وعين الكبش، وعين ناشمة، وعثر أيضا على نقوش مزدوجة ليبية بونية في مشتة بني وكدن، وفي سيغوس Sigus، علاوة على ما عثر عليه في ليكسوس[36] من نقيشة مزدوجة ليبية بونية ذكرها كالاند وزنيسر في مقالة نشرت في مجلة سيمتيكا (بالفرنسية) . L.Galand- M.Sznycer, la bilingue Libyque de Lixus,Sénitica, XX, 1970, P.5-16

أما النص المزدوج الليبي البوني الذي عثر عليه المنقبون في كعفون بالوطن التونسي الشقيق لم يتم نشر تفاصيله بعد.

مملكة ماسينسن من خلال المصادر التاريخية والأثرية

المصادر المتعلقة بماسينسن هزيلة وضعيفة بل قل فقيرة، ونعني بذلك المصادر الأدبية والوثائق الأركيولوجية أي الأثرية المتعلقة بهذا الملك العظيم ماسينيسن، وقد قام ستيفان قزال[37] Stephane Gsell ببعث وإحياء واستنطاق النصوص القديمة[38] الإغريقية واللاتينية التي تسلط الأضواء أو تكشف على بعض الأحداث التي تخص حياة ماسينسن[39] من خلال المغامرات والأحداث التي شارك فيها في غرب المتوسط، فماسينسن ومعاصروه من الأفارقة[40] والبونيون

36. نفس المرجع ص7.

37. نفس المرجع ص7.

38. Voir Mansour GHAKI, répartition des inscriptions Libiques, P104-105, Africa- Institut du Patrimoine Tunis

39. Id Ibid,P.105.

40. Voir Camps Gabriel, Massinissa on début de l'histoire P. 185, Lybica- Bulletin de service des Antiquités- Archéologie- Epigraphie, Tome VIII, Alger 1er Semestre 1960.

أي القرطاجيون دخلوا إلى التاريخ عن طريق الحروب البونية، بحيث أن حكم ماسينسن الطويل من الناحية الزمنية لم يتم توضيحه إلا من خلال فتراته الأولى والنهائية المرتبطة بنهاية الحرب البونية الثانية أي سنواته الأخيرة التي أدت إلى مرحلة تحضير روما لتهديم قرطاجة[41]

وهناك مصادر تاريخية قديمة نستطيع بواسطتها أن نطلع على بعض المظاهر الفزيولوجية والطبائع التي كانت تميز شخصية الملك ماسينسن، جاء ذكرها على يد بوليبيوس، وإبيانوس، وسيسرون وروناراس[42].

المصادر الأثرية والإيبكرافية بماسينسن

فيما يخص المصادر الأثرية وهي تتعلق أساسا بالوثائق الأركيولوجية والإبيغرافية المتعلقة بماسينسن فهي جد هزيلة وقليلة جدا[43]، فهذا الملك العظيم لم يترك إلا آثارا مادية ضئيلة، ولسنا متأكدين من معرفة قبره، ونتقبل بدون حجة قاطعة أو برهان حقيقي على أن صومعة الخروب هي مدفنه الذي وضع فيه نعشه، ومن جملة الوثائق المعاصرة لدينا بل في حوزتنا المسكوكات النوميدية التي تعود إلى عهد ماسينسن، وتوجد قطعة نقدية تحمل إسم ماسينسن إعتمادا على مازار J. Mazard[44].

ويأتي بعد ذلك كمصادر النصب البونية في معبد الحفرة[45] بقسنطينة التي هي موضوع دراستنا[46] حيث نجد بعض هذه الأنصاب قد تم تأريخها[47] حسب

41. Id Ibid P. 185, et voir aussi pour avoir plus d'informations sur la destruction de Carthage:

وانظر لمزيد من التفاصيل:

42) Ptolémé, Evergete Muller, Fragments historiques P 187, No 7.

43) Tite- Live- Epitome du Livre L.

44) Tite XXXI, 11, 19, 4 (en 200), XXXII, 27, (2 en 198) et XXXVI, 3, 1, et 4, 3, en 191, XLII, 6, 1, en 171, 170.

45. جاء في ذكر روايتهم في كتاب قزال ستيفان تاريخ إفريقيا الشمالية، ج III ص 301–304.

Gsell, Stéphane, Histoire Ancienne de l'Afrique de nord, P 301-307.

وقد نقلنا ذلك اعتمادا على مرجع رئيسي وهو كامبس قابرييل/

Camps Gabriel, Massinissa, P 186.

46. Voir Camps Gabriel, Massinissa, P186.

47. Voir MAZARD corpus Nummorun Numodiae Mauretaniaeque No 17.

سنوات حكم الملك ماسينسن[48]، علاوة على ذلك توجد النقيشة المشهورة التي اكتشفت في معبد دوقة وهي بمثابة تشييد معلم من قبل أهالي مدينة دوقة في العام العاشر من حكم مكيبسا، والجزء اللوبي من هذه النقيشة تعد بمثابة الوثيقة الوحيدة التي تعطينا الشكل اللغوي اللوبي لاسم ماسينسن[49]، أما النقوش الأخرى فهي بونية، وإغريقية، ولاتينية[50].

هذا مع العلم أن النقوش الإغريقية التي تذكر ماسينسن فهي معاصرة له أو جاءت بفترة قليلة بعد وفاته[51] وهي عبارة عن مدح وثناء للملك ماسينسن عثر عليها في ديلوس ببلاد الإغريق وقد قام بإقامة هذه النقيشة الملك نيكوميد الذي كان ملكا على بتينه Bithynie.

وهناك نقيشة بونية جديدة Néopunique أي كتبت بلغة قرطاجية متأخرة بعد سقوط قرطاجة وهذه النقيشة هي بمثابة تمجيد "جنائزي" للملك مكيبسا، وقد جاء ذكر الملك ماسينسن في هذه النقيشة وتوجد نقيشة لاتينية من روما تعود إلى نفس العهد تذكر الملك النوميدي ماسينسن الذي حكم[51] مدة طويلة في الجزائر القديمة وجعل قيرتا عاصمة ملكه.

---

48. Camps Gabriel, Massinissa, P186.

49. Id Ibid, P186.

50. اعتمادا على كامبس في كتابه ماسينيسا فقد أورد لنا المرجع الرئيسي الذي أورده حول النقائش الإغريقية التي جاء فيها ذكر الملك ماسينسن:

Roussel et J.HATZfeld, dans Bulletin de correspondance hellenisque, TXXIII, 1909, P473-522, les autres textes figurent dans les inscriptions Graecae, II, 968 (Athemes. XI 1115 et 1116 (Delos))

51. يرى المؤرخون الفرنسيون الذين بحثوا في أصل تسمية نوميدي ونوميدا Numida أن النعت اللاتيني أي الروماني للنوميدي ومنهم كامبس الذي يعتقد وينفي أن هذا النعت جاء أصلا من التسمية الإفريقية Nomades، ويرى كامبس في كتابه ماسينيسا (ص152، بالفرنسية الذي سلف ذكره في المراجع عدة مرات أن بعض الشعراء اللاتين قد أوردوا الإسم الإغريقي نوماد Nomade منهم فرجيل في لانيادة IV, 320, 535, Silus, Italicus VI, 675, Martial, XII, 26, 6Vergile, En ide,.. ويى كامبس أنه توجد مجموعة بئيسة تتكون من الصيادين بدائيين جدا يحملون اليوم في موريتانيا إسم نومادي Nomadi بل يلقبون بهذا الاسم سالف ذكره، وإرتبط اسم نومادي بالرعي.

51. Voir Camps Gabriel, Massinissa, P187.

وعثر على نقيشة لاتينية في قرطاجنة الجديدة بالأندلس أي إسبانيا الحالية Nova Carthago، وهي تورد لنا شجرة النسب ليوبا الثاني[52].

وإن الوثائق الإبيكرافية أي النقوش المكتوبة وضحت لنا أمر كتابة اسم ماسينسن بينما نجد أن المؤرخين الفرنسيين كتبوه بالسين المفتوحة في الأخير مع حذف النون أي ماسينيسا ومن المؤرخين الذين ساورا على هذا المنوال نذكر منهم: ستيفان قزال، وشارل أندري جوليان، وبريتي، ومزارد، وبما في ذلك المستشرقين مثل هاليفي Halevy وديسو Dussand وشابو J.B.Chabot وفيفريي وكلهم يذكرونه (أي ماسينيسا) على نفس التركيب الإسمي وهو ماسينيسا بفتح السين فقط.

وإن النون الموجودة في النطق اللوبي لاسم ماسينسن يدل على وجودها في الأصل في النطق البربري، وقد ذكرت صحيحة كما هي في الأصل في الأنصاب البونية بمعبد الحفرة في قسنطينة أي ماسينسن وهذا ما سنتعرف عليه في دراستنا للنصب التي جاء فيها ذكر الملك النوميدي في مقام لاحق من دراستنا هذه.

وإن ماسينسن تعني سيد الجميع، وسعى هذا الملك أن يكون ملكا بمعنى الكلمة، وربما أراد أن يظهر بمظهر الإله[53] وعلى كل حال فإن عبادة الإله الملك ظهرت وتركزت في عهده، فبعد مرور عشرة أعوام من وفاة ماسينيسن أقيم لهذا الملك معبدا في دوقة بالقرب من الكاف في التراب التونسي، والذي شاهدته أثناء زيارة سياحية وأثرية له، وصورته بآلة التصوير، وكان ماسينسن قد صك أو صنع نقودا تصوره وعلى رأسه تاجا، مع العلم أن ماسينيسن كان له جيش وأسطول نوميدي لم يرق إلى مستوى الجيش القرطاجي وأسطولها البحري العتيد.

52. Id Ibid P187.

53. أنظر : د. محمد البشير الشنيتي، قضية السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة، ص38/ مجلة التاريخ/ معهد التاريخ العدد 5-1988.

وجعل ماسينسن قيرتا العاصمة الملكية من أرقى المدن العالمية يومئذ، وبنى فيها قصرا كان يؤمه ويأتيه الناس من كل حدب وصوب من جميع أنحاء العالم القديم، وكانت عاصمته قيرتا قبلة وملاذا أمينا ومرتعا للفنانين والموسيقيين الإغريق[54]، وعمل ماسينسن أن يكون الحكم وراثيا لأكبر أبنائه مثلما هو معمول به في الممالك اليونانية، ولكن لم يستطع أن يحقق مبتغاه هذا لأن الرومان وقفوا له بالمرصاد، فعارض سيبيون الإيميلي الروماني هذه الفكرة الملكية النوميدية وعمد إلى تجزئة المملكة النوميدية ولو أن هناك من يشك في تبعية الدولة النوميدية لروما، على كل حال، فقد اعترف مجلس الشيوخ الروماني وهذا نقلا عن ليقيوس عن بوليبيوس بوجود السيادة النوميدية على مملكة ماسينسن جاء فيها:

أرسل السيناتو بعثة لتهنئة ماسينيسان ليس لكونه سيطر على مملكة أبائه فحسب، ولكن لأنه وسعها بضم القسم الأكثر من مملكة صيفاك ويفهم من بوليبيوس أن ماسينسن ملك حر، ولكنه صديق للرومان وشأنه في ذلك شأن معاصريهم (الملوك المتاخمين لحدود الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم فلا مجال لفكرة العطاء (Donation) أي منحه المملكة من قبل الرومان[55] التي روج لها صلوستيوس وليقيوس وفي هذا الشأن جاء بوليبيوس أن معاهدة السلم المبرمة بين روما وقرطاجة عقب معركة زاما 202 ق.م تضمنت مصالح المملكة والحقول والمدن وجميع ما هو بحوزة ماسينسن أو كان تابعا لمملكة آبائه و يجب إعادته إليه.

54. نفس المرجع ص38 ولمزيد من التفاصيل أنظر، Livius, XXXVII, 53, 22.

55. يورد لنا قزال رواية صلوستيوس وليقيوس ومفادها أن ماسينيسا حصل على لقب ملك ابتداءا من عام 203ق.م على يد القنصل سيبوس بعد هزيمة وأسر سيفاك، أنظر قزال ستيفان كتابه تاريخ إفريقيا الشمالية الجزء 3 صفحة 240 بالفرنسية:

Voir Gsell Stephane, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tome3, P240.

أما أبيانوس، فروايته حول الموضوع تجعلنا نستنتج أن ماسينسن دخل الحرب الإفريقية (البونية الثالثة) كملك نوميدي قوي الجانب، وأنه دخلها إلى جانب سيبيون مخيرا على رأس جيش من رعايا مملكة أجداده الماسيليس، جيش مدرب في فنون وأساليب القتال التي تقتضيها الأرض الأفريقية، وأنه دخلها بعبقريته العسكرية وإقدامه دون أن يهمل نصائح حليفه سيبيون عندما كان محتاجا إليها، وعرف كيف يتخلص منها عندما كانت تعوقه[56]، وفي هذا السياق يدخل هجومه الانفرادي على خصمه سيفاكس ودخوله مدينة قيرتا وقبضه على سوفونيس، أرملة الملك الأسير سيفاكس وتزوج منها ثم قتل ماسنيس هذه الأميرة الحسناء عن طريق احتسائها السم في كوب بدلا من تسليمها لحليفه الروماني.

وساهم الود والخوف لدى رعايا الملك ماسينسن في تعلقهم بملكهم، وتواصلت عبادته على مر العصور وهو يشبه في هذا الجانب ملوك الفراعنة، الذين كانوا بمثابة ملوك الفراعنة في مصر الفرعونية، الذين كانوا بمثابة ملوك آلهة مقدسين في نفس الوقت.[56]

ويوجد في الخروب بالقرب من مدينة قيرتا (أي قسنطينة اليوم) ضريح من الحجارة المنحوتة يدعى صومعة الخروب وقام بترميمه فنانون فرنسيون ما بين 1915 و 1916 من القرن العشرين. أثناء أعمال ترميم هذا الأثر الفني القديم، اكتشف قبر هذا الأثر التاريخي مع متاع كبير، يتكون من سلاح وآنية طعام[3] وغيرها وحوض من فضة مملوء بالرماد.

ويحتمل أن هذا الرماد قد يكون ما بقي من جثة الملك ماسينسن[58] إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العصر والموقع والفن المعماري، وعادة ما يتم إحراق

56. أنظر د. الشنيتي ص38 المرجع السابق الذي يورد (POLUBIUS XV, 18.1).

57. نفس المرجع السابق د. الشنيتي ص38

58. Voir Gsell Stéphane, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tome III, P321 et voir aussi Camps G. Massinissa, P 194.

الموتى في ذلك العهد القديم، ويرجع أن يكون ذلك مدفنا للملك ماسينسن الذي أراد أن يطل على عاصمة مملكته في موقع ممتاز هو كدية الخروب، لتذكره الأجيال القادمة بما فعله من إنجازات معتبرة ومآثر خالدة أود أن أذكر بهذه المناسبة أن ماسينسن رغم تحالفه مع الرومان، فإنه تأسف على نية الرومان ما كانوا يهدفون من تدمير قرطاجة وإزالتها من الوجود، وكانت له في أعماق نفسه كراهية للرومان، وهذا ما يفسر تكوين لبنه مستنبعل على تربية وثقافة يونانية محضة لكي ينهل من المعيش الحضاري الهلينستي، وكوجه من المعارضة الرومانية.

تفاسير الأنصبة البونية التي ورد فيها الملك ماسينسن بمعبد الحفرة بقسنطينة

قبل الخوض في تفاسير الأنصبة البونية وهي أنصبة ندرية التي ورد فيها ذكر الملك ماسينسن لابد من تقديم نظرة وجيزة حول تاريخ اكتشاف نصب معبد الحفرة، ويعد الباحث الفرنسي دولامار Delamar هو أول من بحث في ميدان الآثار بشكل[59] منظم بقسنطينة ما بين 1840م-1845م عندما رسم في لوحته رقم 129 ثلاثة نصب فينيقية.

وجمع كوستة الأثري الإيطالي ما بين 1875م - 1887م مجموعة أثرية تحتوي على مائة وثلاثين (130) نصبا نذريا التقطت من مرتفع الحفرة، وكانت هذه النصب التي عثر عليها كوستة موزعة في منطقة واسعة، وأرسل جزء من هذه المجموعة الأثرية، إلى متحف اللوفر، فقد تحصل على حوالي 135 قطعة منها وذاك بعد وفاته في عام 1877م، هذا ومما يجب ذكره في هذا المضمار أن كوستة باع عددا كبيرا من النصب النذرية إلى متحف قسنطينة الذي أنشئ[60] في عام 1855م.

---

59. أنظر د. محمد الصغير عانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، ص198.

60. نفس المرجع ص 198

وهكذا أصبح لقسنطينة الفضل الكبير في مجال الآثار البونية وهي موجودة في مواقع أثرية وهي عبارة عن نصب وشواهد دينية بونية وبنية جديدة، وجدت على يد الأثريين في موضع الصخرة، وكدية عطي، وموقع المقبرة الأوروبية، وموقع المنظر الجميل، وموقع المنصور وموقع الحفرة، وموقع قطاع معبد الحفرة قد أظهر إلى حيرز الوجود عددا من الشواهد البونية ويعد بذلك أهم قطاع فيما يخص الآثار والنتائج المحققة على مستوى قسنطينة وذلك قبل الاكتشافات التي وقعت في 1950،[61] والتي تعتبر إيجابية جدا أما الاكتشافين الهامين اللذان وقعا جرى على تباعد زمني يقدر بخمسة وسبعين عاما فالاكتشاف الأول جرى في 1975 أما الثاني فوقع في 1950.

هذا مع العلم أن كوستة قد وجه نداءات إلى وزير البناء الفرنسي حينذاك لمساعدته على أخذ صور طبق الأصل (Estampage) لكتابة النصب التي جمعها، قدمها في شكل جيد إلى جمعية النقوش السامية التي لم تتأخر بدورها في قراءتها وتوضيحها.

أما الضابط الفرنسي Marchaut فقد تبرع بجزء من مجموعته الأثرية لمتحف اللوفر وكان ذلك في 1890، وقد قام الأب الكاهن Abe caheu بمحاولة فك رموز حوالي 32 نصبا من مجموعة كوستة، منها نقوش بونية وبونية جديدة كان ذلك في 1887، وذلك في الجزء الرابع من مدونة النقوش السامية.[62]

---

61. نفس المرجع ص172.

62. Voir Abe Cahen Inscription Puniques et Néopuniques de Constantine (EL HOFRA) R.S.A.C.T, XIX, 1878, P 252-283 cis T1, Fase IV.

ووردت نقوش كوستة في أعمال الباحث الألماني ليدز بارسكي الذي حاول أن يترجم بعض من تلك النقوش التي درست فيما بعد من ليدزيارسكي ثم سجلت في مدونة النقوش السامية Semitique Corpus.

ودرس مجموعة كوستة الأستاذن برتاندي وسيزار (Betandy et Szncer).

ويستفاد من دراسته معبد الحفرة البوني كان يمارس نشاطه الفكري والثقافي بداية من القرن الثالث قبل الميلاد.

واعتمادا على كتاب بريتيي وشارليي المعنون معبد الحفرة بقسنطينة، Berthier et Charlier Sanctuaire d'el HOFRA de Constantine. فقد استطعنا قراءة النصوص المكتوبة بالبونية الموجودة على الأنصاب النذرية بدون اعتماد على الشرح الفرنسي إلا نادرا، وهذا للتعود على قراءة النص البوني بصفة مباشرة وترجمته إلى اللغة العربية مع مقارنة المصطلحات الفينيقية أو البونية الموجودة مع ما هو موجود في اللغة العربية، وهناك تقارب بين اللغة القرطاجية واللغة العربية من ناحية المرادفات والاشتقاقات اللغوية.[63]

تفاسير الأنصاب

فيما يتعلق بالنقيشة المكتوبة بالقرطاجية (أو البونية) رقم Pun - PL VIII, B 56 فأولا قبل قراءة وشرح النص البوني الوارد في النصب النذري هذا لابد من ترجمة النص المكتوب، وهو كما يلي: السطر الأول ورد فيه ما يأتي كترجمة من البونية إلى العربية:

1- لأدن لبعل حمون ملك أثر نذر.
2- أث نذر بد عشترت بن عبد ملقارت.
3- ديرح مفع لفنو بحات (ت) أربع.
4- م ست لملكت نسمع قال برك.

1 [illegible]
2 [illegible]
3 [illegible]
4 [illegible]

هذه النقيشة كتبت من قبل شخص يدعى بدعشترت بن عبد ملقارت الذي كتب هذا النصب في شهر مفع من سنة إحدى وأربعين من اعتلاء حكم

---

63. حدد بريتيي وشارليي في كتابهما معبد الحفرة البوني، تواريخ ونقوش وهي تحمل الأرقام التالية: 56 و57 و58 و 59 و60 و61 و62 و63 و64 يضاف إليها نقوش كانت قد اكتشفت قبل ذلك من قبل ل. كوستة وكانت أحد عشرة من تلك النقوش قد تناولت فترة الخمسة عشر سنة الأخيرة من حياة الملك ماسينسن الذي حكم ستة وخمسون سنة، أنظر لمزيد من التفاصيل:

A.Berthier et Abe Charlier, le sanctuaire d'El HOFRA à constantine, P 59-61, Paris, 1955, Arts et Métiers Graphique.

ماسينسن وهو عبارة عن دعاء إلى بعل حمون ما نذره بدعشترت بن عبد ملقارت وقد جاء ذكر تحديد تاريخ اعتلاء ماسينسن للحكم النوميدي كإقليد أو ملك حيث أن ماسينسن هناك من يرى حصُل على المبايعة ولقب ملك (ولو أني لا أوافق على هذا الطرح) من القنصل الروماني[64] سيبيون في 203 ق.م بعد هزيمة وأسر الملك سيفاك

وإذا اعتبرنا عام 202 ق.م - 203ق.م كنقطة انطلاق لحكم ماسينسن (ولو أنها أقدم)، فإن ما جاء في النقيشة وهو عام إحدى وأربعين من حكم الملك ماسينسن معنى هذا أنه تتطابق مع 162 ق.م -163 ق.م وهذا يدل على أننا أمام نقيشة هي الأقدم على الإطلاق في قسنطينة قيرطن أو قيرتا وسنتعرف في النقائش اللاحقة التي سندرسها على أنها جاءت في وقت متأخر مقارنة مع النقيشة رقم 56 آنف ذكرها.

على كل حال تنتهي النقيشة النذرية بدعاء بعدما تضمنت في البداية الإهداء والعريف بصاحب الندر، وينتهي نص النقيشة: نسمع قال برك ومعناه لتسمع صوته وتبارك.

وهذه النقيشة أي النصب رقم 56 تبين لنا بشكل جلي وبالدليل أن الملك ماسينسن قد حكم فعلا في قيرتا أو قيرطن، وجعلها عاصمة ملكه، وهي دليل قاطع على حكمه للملكة النوميدية علاوة على المصادر المتابية كشهادة تيت ليفيوس الذي يبين ويذكر لنا تقديم القنصل الروماني لقب ملك إلى الإقليد ماسينسن (ولو أن هذه البيعة مشكوك في صحتها وقد بينت ذلك سالفا في مسألة السيادة النوميدية). فتوجد إذن مصادر كتابية ومصادر أثرية حول عرش الملك النوميدي أو ملكية نوميدية قائمة بذاتها قام أثناءها الملك ماسينسن بدور رئيسي وبارز في حركة التاريخ السياسي النوميدي في الجزائر القديمة.

---

2. Voir Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, TIII, P 240 et voir aussi Tite-Live XXX-16, 1, 17, 1.

ومن خلال النقيشة رقم 56 نلاحظ أنه جاء ملك تر والمقصود هنا، هو بعل حمون الذي يعني إله وملك الدار السفلى أي دار الآخرة، وتر ربما المقصود بها ملك الدار، فمصطلح ملك هنا لا تعني الملك ماسينسن بالبونية، وإنما المقصود هو الملك بعل حمون أي الإله بعل حمون أي ملك الدارين أو ملك العالم السفلي ولا تعني الملك ماسينسن الذي سيأتي ذكره في نقائش لاحقة، والذي هو رئيس الدولة النوميدية، فشرح لفظ ملك لغة هو من بيده زمام أمور الدولة أي الذي يرأس المملكة النوميدية، ولكن معنى الملك هنا في النقيشة رقم 56 هو بمثابة إله، والمقصود هو الإله بعل حمون وليس الملك ماسينسن وهنا يظهر الفرق في لب النص البوني.

تفسير النقيشة البونية رقم Puni, Pl, X, B 57

جاء في هذه النقيشة ما معناه باللغة العربية :

1- ندر أت ندر بدعشترت.

2- بن عكبر لبعل.

3- حمس ليفح بعلوت.

4- خمسه أربعة ست لمد.

نلاحظ في هذه النقيشة غياب حمون مع بعل، ولا ندري ما هو السبب الذي جعل صاحب النقيشة لا يذكر إسم إله قرطاجة كاملا أي بعل حمون، على كل حال فإن النقيشة تذكر وتشير إلى أن هذا الدعاء الذي قدمه رجل يدعى بدعشترت بن عكبر قد جرى في عهد حكم ماسينسن، ولو أنه لم يجر ذكر لاسم الملك النوميدي، ولكن جاء ذكر ملك والمقصود هنا هو الحكم الملكي بدون شك، ويختلف المفهوم عما جاء في النقيشة السالفة رقم 56 التي ورد فيها بعل حمون ملك الدار السفلى فالمقصود في النقيشة رقم 56 والنقيشة رقم 57 واضح في هذا المضمار لأن الملك في نقيشتنا هذه، هو الحاكم الملك ماسينسن صاحب السلطة الفعلية وقائد الدولة النوميدية الذي وصل إلى قمة

الحكم عن طريق الوراثة وهي ميزة أساسية في النظام الملكي، وقد فرض ماسينسن نفسه عن طريق الدخول في صراع مع قوى عظمى هي قرطاجة وروما ودخل في حرب مع ملك مجاور له وهو الملك سيفاك، فالوراثة في السلطة لم يحصل عليها ماسينسن بصفة عفوية وتولية شرعية سدة الحكم بصفة سليمة، بل وصل إلى الحكم عن طريق إنتزاع هذه الشرعية بالقوة، ولم يصل بالقناعة السياسية والوسائل السلمية وفرض نفسه في الحكم فرضا فكان منحاه لاعتماد على القوة ولم يكن الأمر اختياريا.

تفسير النقيشة البونية رقم (Pun (PL, IX, A 58

1- لأدر لبعل حمون أت ند

2- ر متأليم بن سفط بعشرون.

3- ثمان لهرح مرفام بسست أ.

4- ربعيم ست لملك مسنس.

5- ن همملكة ن سمع قال.

6- برك.

في هذه النقيشة البونية أن النص كاملا بجملة مفيدة تفيد أن صاحب الدعاء المقدم إلى بعل حمون وهو متتأليم بن سفط وقد سجل الإهداء هذا بتاريخ شهر مارفام.

ويظهر جليا ذكر الملك ماسينسن مع العلم أن معنى الملك في الفينيقية له نفس المعنى في اللغة العبرية وفي اللغة العربية أيضا، وهذا يدل على الروابط اللغوية التي تجمع اللغات السامية أو الكنعانية بعضها مع بعض.

وهناك من يرى أن توظيف مصطلح ملك يجري في غير معناه المقصود وهو قيادة الدولة على أساس وراثي حيث يذكر لنا في هذا المقام شابو[1] Chabot في مصنف أو مجموعة النقوش اللوبية هذا ما أورده بيرتيي

1. Voir Chabot, Corpus sémitique.

وشارليي[2] Recueil des inscriptions Libyques على أن نقوش معلم دوقة المكتوبة باللغة البونية واللغة اللوبية قد جرى فيها ذكر ستة أشخاص جرى نعتهم في النقيشة بملوك والذين هم ليسوا بملوك في الواقع مما جعل بيرتيي وشارليي يعتقدان أن مفهوم الملكية في البونية مملكة فهذا المصطلح له معنى في البونية أكثر من مفهوم ملك3 بل يتعداه إلى معنى آخر، وربما يقصد فيفريي هنا أن المعنى الآخر هو الحاكم الذي لا يصل إلى مرتبة الملك بالمفهوم السياسي المعروف ولكن لا يذكر لنا ما هو هذا المعنى الآخر مع الأسف مما يجعلنا نبحث في حيرة من القصد المعنوي للفظ ملك في اللغة البونية فهل الحكام العاملون في داخل تراب يعدون ملوكا يا ترى.

وفي نطاق النقاش حول المعنى الأصلي لما جاء في النقيشة رقم 58 الذي ذكر فيها الملك ماسينسن يرى فيفريي أن المقصود هنا هو الأمير ماسينسن le princes Massinissa وليس الملك ماسينسن ويزعم فيفريي[65] أن لفظ أمير أنسب في تحديد المعنى أحسن من توظيف ملك، وهذا تفسير غريب من قبل فيفريي وأنا لا أوافقه فيما ذهب إليه في تحليله واستنتاجه لأنه جاء في النقيشة رقم 58 تحديد الإطار الزماني والإطار السياسي للملك ماسينسن[66] وقد حكم فعلا وكانت له عاصمة ملكية، وتم تحديد في النقيشة المدة الزمنية التي نقشت فيها النقيشة وهي سنة ستة وأربعون من حكم الملك ماسينسن فتاريخنا معروف أن هذا الملك أو الإقليد وصل إلى الحكم نتيجة صراع سياسي وحربي مع روما وقرطاجة وسيفاك، وانتصر في هذا الصراع وأصبح ملكا فلماذا ينقص من قيمته وقوته السياسية[67] كملك اعتلى العرش النوميدي، واعتقد أن لقب أمير لا يلائم مقام ماسينسن لأنه كان ملكا وليس أميرا، مع العلم أن فيفريي لم يذكر المرادف اللغوي البوني[68] لمصطلح أمير في اللغة

65. Voir Berthier et charlier, sanctuaire d'EL HOFRA de Constantine P54.
66. Id Ibid, P54.
67. Voir Berthier et charlier, sanctuaire d'EL HOFRA de Constantine P54.
68. Id Ibid, P54.

القرطاجية التي هي امتداد مباشر للغة الفينيقية، وفي اللغة العربية يوجد فرق شاسع بين مفهوم الأمير ومفهوم الملك، وكلمة ملك لها نفس المعنى تقريبا في العربية والفينيقية فهي تعني الحاكم بأمره أي رئيس الدولة، ثم تعني أيضا الإله في العربية والفينيقية، فجاء في القرآن الكريم (ملك السموات والأرض).

وفي الأنصاب البونية في معبد الحفرة ورد ما معناه ملك العالم السفلي، فالمعنى والمقصود في اللغتين واحد فالملك معناه من بيده السلطة الدنيوية والدينية معا وهناك تقارب أو قل قرابة لغوية بين العربية والفينيقية فإذن نفس الدلالات موجودة في اللغتين، ولا أظن أن معنى الأمير له نفس معنى الملك في اللغة الفينيقية وهي لغة الأصل للقرطاجية، على كل حال لم يكن ماسينسن أميرا بل ملكا يحكم البلاد النوميدية شرقا وغربا.

تفسير النقيشة رقم (Punique Planche. LX. B 59

1- ....

2- أت ندر ....

3- أسمن بعشر م ....

4- بسبعة أربعم ست لملـ.

5- لكم مسينسن_هملـ.

6- كت سمع قال برك.

النص المكتوب في النقيشة رغم بعض الكلمات مبتورة فإنه يؤكد حكم ماسينسن في العام السابع والأربعين من حكمه كملك وهو إعتراف صريح بالمملكة النوميدية، وجاء في النقيشة صاحب الندر حيث سقط صاحبه الأصلي وبقي أبوه الذي ذكر باسم عبد أسمن وينتهي النص بـ سمع قال برك ومعناه لتسمع صوته وتبارك.

على العموم فإن الأفكار ناقصة بسبب نقص الجمل المفيدة في النقيشة ولكن يمكن اعتمادها كمصدر فيما يخص التأكيد على تاريخ فترة معينة من حكم الملك ماسينسن وكذا التعرف على صاحب الإهداء في النص البوني رغم البتر الذي وقع للنقيشة.

تفسير النقيشة رقم (Punique PL. X. C 62

- لملك ماسنسن نسمع قال.

ملك ماسينسن أي من حكم الملك ماسينسن لتسمع صوته وتبارك، وفي هذه النقيشة تأكيد على أن ماسينسن هو الذي يحكم في قيرتا والنص صغير ومختصر ولكنه يؤكد على سلطان الملك ماسينسن بشكل واضح وبلا غموض.

خلاصة القول:

إن النقوش المكتوبة في معبد الحفرة بقسنطينة والتي جاء فيها ذكر المملكة النوميدية والملك ماسينسن الذي حكم فيها، يعد كل ذلك دليل قاطع وبرهان على وجود مملكة ماسينسن التي كان لها أبلغ الأثر في مسيرة التاريخ السياسي والاجتماعي والحضاري في الجزائر القديمة وهذه النقائش تبين لنا التأثير والنفوذ البوني (أي القرطاجي) في قلب الجزائر القديمة وتتمثل في قيرتا أي قسنطينة في القرن الثالث ق.م، فالنصوص المكتوبة هي قرطاجية وليست لوبية.

وهنا تظهر أهمية ووزن الذخائر الأثرية في معبد الحفرة البونية لمدينة قسنطينة التي هي إمتداد للعاصمة الملكية القديمة ألا وهي قيرتا أو قيرطن كتعبير صحيح وإن البحث الأثري حول النصب في إطار فرقة بحثي وهو مشروع الرصيد الحضاري البوني في الجزائر القديمة سيعمل على تعميق



صورة الملك ماسينيسا

البحث في الذخيرة الكبيرة التي مازالت لم تبحث والتي هي موجودة في متحف قيرتا ومواقع أثرية أخرى في قالمة وإيجيلجيلي وبني صاف ورشقون فالبحث العلمي يستطيع أن يزيل كثيرا من العوائق نحو تحقيق رؤيا جديدة للتاريخ البوني في الجزائر القديمة والسلام.

النصب التذكاري المكتوب بالبونية الجديدة في يول القديمة

أول من قام بدراسة للنصب التذكاري المكتوب بالبونية الجديدة هو فيليب برجي Philippe Berger حيث قام في القرن الماضي في حوالي 1887-1888 بدراسة إيبيكرافية أي دراسة للكتابة الموجودة في النصب التذكاري والذي عثر عليه في يول القديمة أي شرشال[69]، ويحتوي النص البوني الجديد على كتابة قام بفك رموزها فيليب برجي والذي وجد صعوبة كبيرة في قراءة النص، وفي هذه النقيشة نقرأ إسم الملك مكيبسا والذي عثر عليها في شرشال (يول القديمة IOL) جوليا القيصرية (Juliscasaer) التي كانت أحد أهم مراكز العظمة النوميدية.

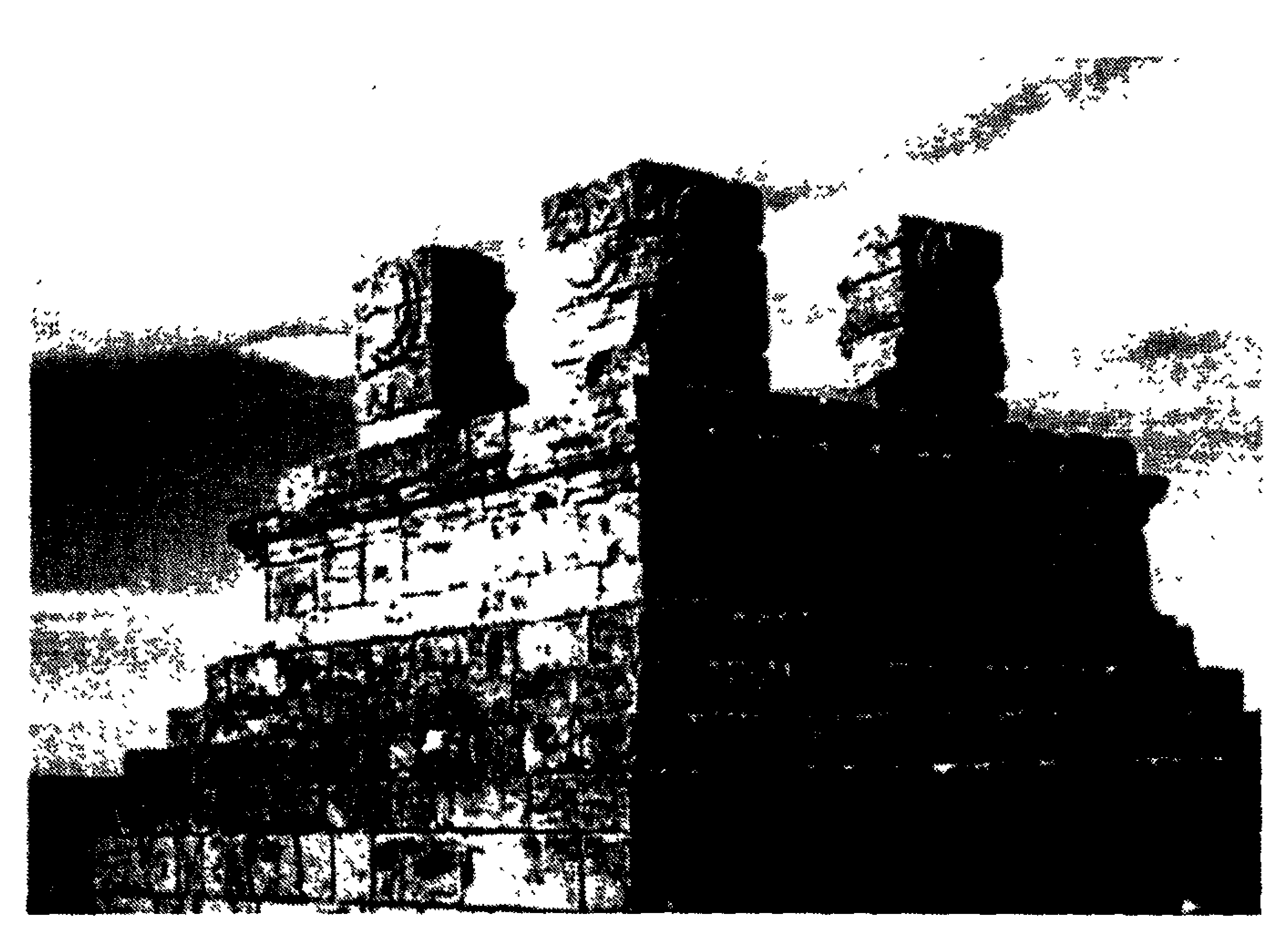
ومما يلفت الإنتباه هو جمال النقوش التي عثر عليها، والتي حصل عليها شميتر SCHHAMITTER قابض الجمارك في شرشال في القرن الماضي، والتي قام بتسليمها إلى متحف اللوفر[1]، والتي هي موجودة الآن. وقام السيد حوزي Mr HEUZEZ بوضع نسخ لنقيشة شرشال وهو الذي ساعد من أجل دراسة النقيشة إعتمادا على الأصل مع العلم أن النصب المكتوب بالبونية الجديدة يتكون من إحدى عشر سطرا بكتابة بونية جديدة، والتي تم نقشها على لوحة من الرخام الأبيض الجميل علوها 0.30 سنتيم وعرضها 0.22 سنتيم ويحيطها شكل تزييني وقد أصاب النقيشة كسر مس الأسطر السبعة الأخيرة[70] مما أدى إلى اكتشاف الغموض في بعض أجزاء النقيشة وقام فيليب برجي

69. Voir Philippe Berger, inscription Néopunique de Cherchel en l'honneur de Micipsa, extrait de revue d'Assyriologie et d'archéologie orientale 2 année 1888 No 2/Paris, ENEST - 1889.
70. Id Ibid P 1

بترجمة نقيشة أو نصب شرشال التي لا تعني ترجمة كلية للنقش بأكمله ولكن للأسطر الأولى فقط والتي هي تفيدنا رغم النقائص الملحوظة في هذا المضمار.

أود أن أشير إلى قصة العثور على نصب شرشال كما يوردها لنا فيليب برجي[71] حيث أن النقيشة كانت ضمن ممتلكات معمر إسباني يدعى ماركادال MARCADAL الذي كان يملك مزرعة عنب والتي تبعد بخمس مائة متر على يسار الطريق الرابط بين شرشال وتنس على الضفة اليمنى لوادي القنطرة، على بعد كيلومترين من مدينة شرشال وقد انتحر المعمر الإسباني وماركادال الذي كان قد سبق له أن اهتم كثيرا بمزرعته التي غرس فيها دوالي العنب وأثناء عمله هذا عثر على كثير من الآثار القديمة في مزرعته والذي تم الاستمرار فيها بشكل كبير لأن أرضه كانت موجودة في موقع مقبرة لم يتم حفرها بشكل معمق، وهكذا قام العمال من الأهالي الذين كانوا يعملون في مزرعة المعمر ماركادال حيث عثروا على آثار كبيرة قام ببيعها إلى صانع ساعات بشرشال يدعى لكحاط LKHAT وعند هذا التاجر الصغير عثر السيد شميتر CHMITTER النقيشة المصنوعة بالرخام[72]، والتي أصبحت ملكا له وقد قص صاحب متجر الساعات كيف حصل على النقيشة التي كانت في حوزة المعمر الإسباني ماركادال.

71.Id Ibid P 2.
72. Id Ibid P 2.3



ضريح صومعة الخروب بناحية مدينة قسنطينة اليوم.

الفصل الرابع

يوغرطة

مقاومة البطل يوغرطة ضد الرومان

ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد على أرض الجزائر مملكة نوميديا الشرقية، التي تدعى ماسولة، ومملكة نوميديا الغربية أي مازيسولة؛ فالمملكة الغربية يحدها شرقا رأس بوقرعون شمال قسنطينة، وكانت قيرتا (قسنطينة) جزء من هذه المملكة في عهد سيفاكس وكانت سيغا في غرب البلاد تعد كعاصمة ملكية ثانية.

وكان سيفاكس أمير المملكة الغربية ذو نفوذ كبير، مما أدى إلى إقتراب قرطاجة منه وطلبت يد مساعدته ونتج عن هذا التقارب زواج سيفاكس من فتاة جميلة تنتمي إلى الأرستقراطية القرطاجية. أما مملكة نوميديا الشرقية فكانت أقل مساحة، تشمل القسم الشرقي من منطقة قسنطينة.

وتقلصت حدودها الشرقية بسبب التوسع القرطاجي، ومن جملة أمراء المملكة الشرقية غايا وماسينيسا الذي سعى إلى توحيد كل المملكة النوميدية، سواء منها الشرقية أو الغربية، راميا إلى توحيد كل البلاد تحت راية وسلطة واحدة، ونجح فعلا فيما ذهب إليه ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان فيما بعد؛ حيث ظهرت روما كقوة عسكرية وسياسية بعد سقوط إمبراطورية قرطاجة في 146 ق.م، أدى وجودها إلى هيمنة واسعة لأراضي المغرب القديم، أدت إلى

---

1. انظر كتابي عن ماسينيسا ويوغرطة الصادر من ديوان المطبوعات الجامعية 1991/ ص34.

انتفاضات شعبية كبيرة قادها أبطال جزائريون مثل يوغرطة وتاكفاريناس تعبر عن مدى تعلق الجزائريين القدماء بمبادئ الحرية والإستقلال ورفض الإستعمار الأجنبي ويدل على وعي بالذات عميق ومتأصل عند الجزائريين.

حياة يوغرطة

ولد يوغرطة[1] في سنة 154 ق.م، وكان يمتاز بشخصيته الفذة والقوية، وكان يقوم بممارسة الرياضة بصفة دائمة، وكان يحب ويمارس إصطياد الحيوانات المفترسة كالأسد مثلا وأصبحت له مكانة رفيعة بين وطنه النوميدي بفضل خصاله الحميدة التي كان يتصف بها، وقد فرض يوغرطة نفسه على مسرح الأحداث في تاريخ نوميديا القديم لمقاومته الشديدة والرائعة ضد المحتل الروماني طيلة ستة سنوات من 111 إلى 105 قبل الميلاد وينتمي يوغرطة إلى أسرة أوراسية، تجمع ملوك نوميديا الشرقية ماسيلس أي ملوك الشرق الجزائري وجد على رأس هذه الأسرة الملك غايا، الذي عاش في 206 ق.م. أما قصة وصوله إلى حكم البلاد كملك نوميدي فلها جذور تاريخية تعود إلى فترة معينة؛ فنجد ماسينيسا عندما قرب أجله عمل على تقسيم الدولة النوميدية بين أبنائه الثلاثة الوارثين للعرش النوميدي، فحصل مسيبسا على منصب الشؤون الإدارية، وتولى كولوسا قيادة الجيش بينما حصل مستحنبعل على منصب العدالة، وبعد أمد وجيز إختطفت يد المنون كولوسا ومستحنبعل، فانفرد مسيبسا بالحكم وحده مدة ثلاثين سنة من 148 إلى 118 ق.م، وقامت أزمة حكم بعد وفاة هذا الأخير، أي مسيبسا لأنه قسم الحكم بين إبنه أذربعل وهيمبسال، فبقي صراع الحكم بين يوغرطة وأذربعل وانجر عن هذا إنقسام النوميديين، قسم مؤيد ليوغرطة[2] المعادي للرومان، وقسم آخر يؤيد أذربعل، وقامت حرب حامية الوطيس بين يوغرطة وأذربعل، وكان جيش يوغرطة محاربا وقويا، له دراية بقيادة الحروب، وبعدما خسر أذربعل في إحدى

2. انظر نفس المرجع ص34-35

المعارك أصبح يوغرطة ملكا على البلاد، وقام باعتقال أنصار أذربعل، وفر هذا الأخير إلى الإقليم الروماني، جزء من تونس الحالية، وبعدها ذهب إلى روما طالبا مساندة مجلس الشيوخ الروماني وكان بمثابة السلطة التنفيذية المعروفة اليوم، المتمثلة في مجلس الوزراء من أجل إيجاد حل لمشكلة العرش النوميدي، ولبى الرومان طلب أذربعل وقبل يوغرطة بواسطة روما والتي ترمي وتهدف إلى تقسيم المملكة النوميدية إلى جزئين؛ الجزء الشرقي يكون من نصيب يوغرطة والجزء الآخر يكون من نصيب أذربعل.

وبعد مدة وجيزة أعلن يوغرطة الحرب على أذربعل من جديد، لأن هذا الأخير حاول اغتياله والتقى الجيشان في ناحية لا تبعد كثيرا عن قيرتا وهي قسنطينة اليوم، وعندما جن الظلام وفي ساعة متأخرة منه انقض جيش يوغرطة على جيش أذربعل الذي كان في سبات عميق وفوجئوا بذلك فلم يستطيعوا حتى حمل الأسلحة لمواجهة الخصوم، فعمل ذلك على هزيمتهم ولاذ أذربعل بالفرار نحو مدينة قيرتا، حيث وجد حماية الجالية الرومانية المقيمة في المدينة.

وفيما يتعلق باعتراف مكيبسا بشرعية يوغرطة في العرش النوميدي، هناك مشكلة التبني التي هي مفتاح وراثة العرش الملكي، وقد دار جدال بين المؤرخين حول هذه القضية بالذات، فالمؤرخ الروماني سالستيوس عندما يثير مسألة التبني ليوغرطة، يستعرض الظروف التي كانت تحيط بمكيبسا عندما إتخذ قراره هذا لأبن لخيه يوغرطة الذي كان يمتاز بذكاء حاد وفروسية و-قدام على الشدائد وشعر مكيبسا بالأرتياح والطمأنينة من خصال إبن أخيه، ولكن مع مر السنين إنقلب هذا الملك على يوغرطة لأنه شعر بمنافسته لأبنيه أذربعل وهيمبصال، مما جعله ينقلب على يوغرطة وفكر في حل نهائي للتخلص منه فعمد في البداية إلى أن يقتله، ولكنه خاف من ثورة الأهالي عليه، ولكن وجد مخرجا في حرب نومانس كفرصة سانحة لوضع يوغرطة في فخ التصفية النهائية فبعثه على رأس فرقة نوميدية، ولكن يوغرطة أبدى في هذه الحرب بسالة شديدة ويقظة منقطعة

النظير أكسبته صداقة الرومان ونال مدح القائد الروماني سكيبيو ايميليانوس، الذي طلب من يوغرطة حمل رسالة إلى مكيبسا جاء فيها على الخصوص:

"لقد أبدى يوغرطة في معركة نومانس شجاعة كبيرة، إنها بشرى سارة أزفها إليك أيها الملك وليوغرطة خصال حميدة أدت به إلى الحصول على مكانة سامية ومرموقة وعزيزة عندنا، وسنقوم بكل ما في وسعنا ليقاسمنا مجلس الشيوخ والشعب الروماني هذا الشعور وباسم صداقتنا، أقدم لك تهاني الحارة، ويعد يوغرطة جدير بك وجدير بجده ماسينيسا"[3]. انتهت الرسالة.

وفي هذا الخطاب، يحض سكيبيو الملك مكيبسا بضرورة تبني يوغرطة وإشراكه في الحكم الملكي؛ فقد أورد سالستيوس أن مكيبسا عندما وصلته هذه الرسالة عدل عن رأيه السابق في يوغرطة وتبناه وأوصى له بالعرش مثت إبنيه أذربعل وهيمبسال والمفروض أن هذا التبني ليوغرطة جرى في ثلاثينيات القرن الثاني قبل الميلاد أي باثنتي عشرة سنة تقريبا وليس بثلاث سنوات قبل وفاة مكيبسا.

ولا يستبعد أن تكون رواية سالوست حول فكرة التبني واعتراف مكيبسا بحق يوغرطة في العرش صحيحة، ولكن يجب الفصل بين التبني والإعتراف به كوصية على العرش النوميدي، فالتبني جرى في 133 ق.م، بينما وراثة العرش وقعت في 120 ق.م[4]، لأنه كما هو معلوم أن الرومان بعد سقوط قرطاجنة المنافس العنيد والخطير للرومان، أصبح الملوك النوميديين تحت ضغط وتوجيه السلطة الرومانية، فرسالة سكيبيو من هذا المنطلق صحيحة من *الناحية التاريخية لأنه كان هناك* نوع من *الهيمنة* والخضوع في بعض الأحيان للقرارات السياسية على ملوك نوميديا، ولو أن هذا الخضوع رفضه

---

3. أنظر سالوست حرب يوغرطة ص8/7.

4 نفس المصدر ص9 وانظر ستيفان قزال، تاريخ إفريقيا الشمالية القديم، الجزء الخامس ص52 والجزء السابع ص141.

يوغرطة عندما أعلن الثورة على الرومان بحربه المشهورة التي خصص لها سالوست كتابا كاملا، يعد كمصدر رئيسي لهذا البطل الوطني الكبير.

أما مسألة الصراع بين يوغرطة وأذربعل وإرسال روما وفدا من عشرة أعضاء برئاسة لوكيوس أويميوس من أجل وضع حد للنزاع بين المتصارعين (وهذا يدل على مدى تدخل الرومان في شؤون المملكة النوميدية)، فجرى تقسيم المملكة بين الإثنين أي يوغرطة وأذربعل، فحصل كما هو معلوم الأول وهو يوغرطة على الجزء الغربي من نوميديا الأكثر ثراء والأوفر سكانا بفضل الرشوة التي أعطاها للوفد الروماني وهذا غير مستبعد، لأن يوغرطة عندما زار روما قال كلمته المشهورة، أن هذه المدينة معرضة للبيع إذا وجدت من يشتريها؛ فهذا يدل على ظاهرة الرشوة التي كانت متفشية في المجتمع الروماني بما في ذلك مجلس السينا أي مجلس الشيوخ، بينما حصل أذربعل على الجزء الشرقي من نوميديا ذات المناطق الجبلية الوعرة في نواحي قسنطينة وجبال الأوراس التي لا تعدّ كمناطق زراعية هامة مثلما هو الأمر في غرب البلاد الجزائرية، أي المنطقة الوهرانية والشلف وتيارت وتلمسان وبلعباس وعين تيموشنت. فحصل أذربعل على الجزء الشرقي الذي تنعدم فيه الفائدة رغم كثرة المدن والموانئ[5].

ولا أعتقد أن أذربعل أثناء التقسيم الذي إقترحه الرومان قد استفاد من خيرات الإقليم التونسي، فلم يكن تابعا إلى قيرتا بل كان تحت الهيمنة الرومانية، وهكذا فمن الناحية الجغرافية فالمنطقة الغربية من نوميديا في الجزائر الحالية أكثر ثراء من المنطقة الشرقية، وأقصد بذلك الجانب الفلاحي على الخصوص.

ومنح الرومان ليوغرطة الجزء الغربي من نوميديا، يعد كنوع من التفضيل لهذا الرجل الذي أبلى بلاء حسنا في معارك سابقة مع روما.

---

5. نفس المصدر ص9.

مع أن هذا التقسيم لم يرض عنه يوغرطة لأن قيرتا كانت عاصمة ملكية له موقع هام، مما جعله يرفض المبدأ من الأساس، فثار على أذربعل وحصل ما حصل من تطور الأحداث.

حصار سيرتا

بعد ذلك قرر عزمه على محاصرة مدينة قيرتا عن طريق مضيق موجود خارج المدينة، وأسرع في تنفيذ إجراءات الحصار، لأنه علم أن أذربعل ذهب إلى روما لإبلاغ مجلس الشيوخ الروماني بما وقع، فأرسل هذا الأخير مبعوثين عنه لإنهاء الخلاف بين يوغرطة وأذربعل، وطالب هذا المجلس الملكين المتحاربين إيقاف الحرب وتصفية الخلافات في إطار قانوني وبدون استعمال القوة.

وأجاب يوغرطة المبعوثين الرومان أنه لا يقبل دخولهم إلى قيرتا المحاصرة لأنه على حق ومطالبه مشروعة، ودام حصار قيرتا خمسة أشهر، وبعدما وجد أذربعل أن موارده تكاد تنفد وضعف أمله في الحصول على مساعدات نوميدية، عمل على طلب نجدة جديدة من روما لإغاثته، وخلال هذا الحصار قام رجلين من أنصار أذربعل في غياهب الظلام باختراق خطوط جيش يوغرطة التي تحاصر المدينة، ووصلوا بعد ذلك إلى الشاطئ الجزائري، ثم توجهوا إلى إيطاليا لتسليم رسالة أذربعل إلى مجلس الشيوخ الروماني، وأدت المسألة النوميدية إلى انقسام مجلس الشيوخ الروماني إلى طائفتين، طائفة ترى أنه لا بد من إرسال جيش روماني إلى قيرتا المحاصرة لإنقاذ أذربعل وتأديب يوغرطة، الذي لم يعمل بالمقترحات الرومانية الداعية إلى تقسيو نوميديا إلى شطرين، الأول تحت إشراف يوغرطة والثاني تحت إشراف أذربعل. أما الطائفة الثانية من مجلس الشيوخ فكانت تفضل حل المسألة بصفة سلمية بين المتحالفين، وجرى الإتصال فعلا مع يوغرطة لإخباره بما قرره مجلس الشيوخ الروماني، ولكن هيهات فلم يفلحوا في إقناعه لرفع حصار قيرتا ورفع العزلة عن أذربعل، وعندما وجدوا أن كل مقاومة لا تجدي نفعا، فما كان منهم إلا أن طالبوا أذربعل بالإستسلام

ليوغرطة ولكن شريطة أن لا يمسه بسوء، ورغم المعارضة (معارضة أذربعل) لاقتراح الجالية الرومانية، فقد رضي هذا الأخير وسلم نفسه.

يوغرطة في سيرتا منتصرا

بعدما سلم أذربعل نفسه إلى يوغرطة[6] دخل هذا الأخير إلى مدينة قيرتا وقام بتعذيب أذربعل وقتل جيشه كل من وجدوه حاملا سلاحا، سواء كانوا نوميديين أو تجارا إيطاليين.

ووقعت المواجهة المباشرة بين يوغرطة والرومان وهاجم يوغرطة الجالية الرومانية المقيمة في قيرتا مما جعل روما تدخل في الحرب ضده، وهكذا قرر مجلس الشيوخ إرسال كالبونيو باستيا ليقود الحرب ضد يوغرطة، وقام يوغرطة بعدها بمساع لدى روما من أجل خدمة قضيته العادلة والهادفة إلى توحيد المملكة النوميدية، وكانت غايته تحقيق الوحدة الوطنية، وتم إعلان الحرب الحرب رسميا من طرف روما ضد يوغرطة في بداية سنة 111 ق.م.

ودخل الرومان الحرب بدون استعداد عسكري، فوجدوا مصاعب جمة لأنهم كانوا يجهلون البلاد وكذلك طبائع النوميديين.

وكانت غاية الرومان معاقبة يوغرطة على أعماله التي طعنت في شرفهم طعنة عميقة بليغة الأثر، ووصل الجيش الروماني إلى إفريقيا الشمالية بإقليم تونس والتي أصبحت إقليما رومانيا بعد سقوط قرطاجة، ودخل الرومان هذا الإقليم عن طريق صقلية وكان الجيش يقوده كالبرنيوس باستيا وكان ذا تجربة كبيرة في ميدان الحرب.

6.إن جل أخبار يوغرطة وقضية وراثة العرش النوميدي ترجع إلى مصادر رومانية وخاصة ما كتبه سالستيوس في كتابه حرب يوغرطة والذي كتبه باللاتينية وألف هذا الكتاب حوالي 40 ق.م بعد كتابه كاتالينا وقد كان ناصحا وعمره آنذاك ستة وأربعون تقريبا، وقد عرف سالوست البلاد المغربية عندما كان قائدا عسكريا في جيش القنصر، حيث مكث في البلاد مدة عام ونصف وقد ذرك لنا عدنا عرفها كان لها أهميتها في حرب يوغرطة كزاماقسيكا.

ومن جملة قادة الحملة نجد إيميليوس سكوريس مستشار القنصل الروماني، وغزى الجيش الروماني بعض المدن الغربية الواقعة في تونس كمدينة فاقا وباجا وخطر ليوغرطة فكرة إيقاف القتال في أول وهلة لكي يتمكن أنصاره في روما القيام بمهامهم في روما، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان؛ حيث طلب الرومان من يوغرطة أن يدفع رشوة مقابل انسحاب الرومان من الحرب تحت قيادة كالبرنيوس وسكوريس، وقدم يوغرطة كثمن كمية كبيرة من القمح، وكانت نوميديا مشهورة بحبوبها الجيدة التي تصدر إلى أنحاء العالم القديم وثلاثين فيلا وغنما وخيولا ومقدارا من المال، وتم الإتفاق على ذلك بعد مفاوضات بين القناصل ويوغرطة.

وعندما دفع يوغرطة الثمن، ترك الرومان المملكة النوميدية في أمان وتم الإتفاق على انسحاب يوغرطة من مدينة لبتيس الفينيقية، هذا مع العلم أن يوغرطة كان قد بعث في البداية إلى روما طالبا منها الإعتراف بأن مدينة لبتيس لها روابط صداقة وتحالف معه. في خريف من 111 ق.م توجه كالبرنيوس باستيا إلى إيطاليا لكي يشرف على الإنتخاب، لأن القنصل سينيون ناسيكا خطفته يد المنون، وبقيت الجيوش الرومانية المحاربة في البلاد النوميدية[7].

واتجهت الأنظار نحو روما، حيث كان من المتوقع أن يقوم مجلس الشيوخ بتعديل الإتفاقيات مع يوغرطة على ضوء الأحداث المستجدة في نوميديا، بعد الإتفاق الذي وقع بين القناصل ويوغرطة، ولكن لم يحدث ذلك بل وجد قادة روما أن *ما اتفق عليه مع يوغرطة يهين كرامة الجمهورية الرومانية*، واتهم باستيا وسكوريس علانية بحصولهما على ذهب من يوغرطة كرشوة، لاسيما وأن باستيا كان له خصوم في روما نفسها... وأخيرا تم الإتفاق على أن يذهب يوغرطة ويعترف بأن هناك قادة رومانيين حصلوا على رشوة منه[8].

---

7. انظر أحمد السليماني، ماسينيسا ويوغرطة ص36.

8 انظر نفس المرجع ص36 وانظر محمد قنطر ص184.

وفعلا توجه إلى روما ورشى بابيوس وعندما غادر الملك النوميدي مدينة روما بعد نهاية زيارته لها، قال كلمته المشهورة، أن مدينة روما معرضة للبيع ستتلاشى عما قريب لو تجد من يشتريها.

وتخلى ماميوس وبابيوس عن منصبيهما واعتلى منصب القنصلية بوستيوس ألبيونوس، الذي كان يرى خيرا في التسامح مع يوغرطة، ولم تجر الرياح بما تشتهي السفن، وعادت الحرب من جديد وكان يوغرطة يقوم أحيانا بالدفاع وتارة بالهجوم على أعدائه الرومان أو يترك نفسه يتابع من طرف الرومان، ووقعت حادثة مقتل ماسيفا الذي كان حليفا لروما بتدبير يوغرطة في وسط روما بالذات من قبل مبعوث خاص ليوغرطة يدعى بولميلكار، وكان هذا العمل مبررا للعودة إلى الحرب ضد يوغرطة من قبل الرومان.

وفي سنة 110 ق.م انتصر يوغرطة على الجيش الروماني وانتصر انتصارا آخر في معركة قالمة، وكان يقود الجيش الروماني أولوس، واشتهرت هذه المعركة بمعركة مثول، وطلب يوغرطة من أعدائه المهزومين بالمرور أمامه اعترافا بهزيمتهم، وكان ذلك فضيحة كبرى لروما والرومانيين، وبعد هذه الواقعة، اتهم أولوس بالإرتشاء وارتكاب الخيانة من أجل أغراض مالية ومادية[9].

وفي سنة 109 ق.م، تسلم متيلوس قيادة الجيش الروماني في إفريقيا الشمالية وقرر عزمه على وضع حد للرشوة ليفتح المجال أمام الحزم والصرامة والإستقامة، وحارب ميتلوس يوغرطة، وقام هذا القائد الروماني بتطهير الجيش الروماني من براثن الفساد والإرتشاء، وعمل يوغرطة ما في وسعه من أجل إغراء هذا القائد الجديد بالمال ليكف عن محاربته، ولكن لم يستطع إلى ذلك سبيلا. وبدأ ميتلوس[10] حملته ضد يوغرطة، وكانت المدينة تمتاز بأسواق الحبوب، وكان الإيطاليون يتاجرون فيها ويقيمون بها.

9. انظر د. أحمد السليماني، ماسينيسا ويوغرطة ص38.

10. نفس المرجع ص38.

معركة نهر المثول سنة 109 ق.م

هاجم يوغرطة وجيشه أعداءه الرومان في منطقة تدعى وادي ميتول (واد بين خنشلة وتبسة)، أما تفاصيل المعركة فكانت كما يلي :

انتصب يوغرطة بجيوشه على المرتفعات، ومن هناك بدأ يراقب متلوس وهو يتقدم بجيشه مستعدا للإلتحام، وعندما شعر متلوس بوجود القوات النوميدية أمر بوقوف قواته وإعادة تنظيمها، ثم طلب منهم المسير نحو نهر المثول، أما روتيليوس فقد أرسله إلى مجموعة من الوحدات الخفيفة وكوكبة من الفرسان، ثم أقام بمعسكر على ضفة النهر وهو موقع به ماء عذب[11].

بقي يوغرطة في مكانه مختفيا، تواريه الأشجار حتى تقدم الجيش الروماني وتجاوز جناحه الأيمن المرتفعات الموارية للجيوش النوميدية، وبعد ذلك أمر يوغرطة ألفين من المشاة أن ينتصبوا على الجبل الذي كانت تتمركز به الجيوش الرومانية حتى لا يستطيع متلوس العودة إليه والتحصن به، ولما انتصب المشاة على الجبل أمر الملك بهجوم النوميديين على العدو على حين بغتة أو فجأة، فوقعت البلبلة واختل النظام، وكان جنود يوغرطة لا يقبلون بالإلتحام المباشر، بل كانوا يقتربون من العدو حتى يخافهم ويتأهب لقتالهم ومطاردتهم وعند ذلك يبتعدون عنه بسرعة، بجعل بعض الوحدات الرومانية تتبعهم منفصلة عن صفوفها فتقع في الفخ، إذ يحيط بها فرسان يوغرطة من كل صوب وحدب فيقتلون ويأسرون الرومان، وفي ساحة الوغى كان الملك يوغرطة يشد من عزيمة جنوده ويشجعهم على مواصلة الحرب بكل شجاعة وقوة وصمود ويذكرهم بأمجاد النوميديين والإنتصارات التي حققها في مدينة قيرتا من قبل، ويناشدهم أن يدافعوا عن حوزة المملكة النوميدية والوقوف أمام الهيمنة الرومانية، وكانت نهاية المعركة تقهقر الجيش الروماني وتراجعه، وقد تكبد الرومان خسائر فادحة من الناحية المادية والبشرية، ولاذ بالفرار

11. نفس المرجع ص39.

كثير من الجيش الروماني، وتجمعت الفلول الناجية منهم في معسكر بقيت به مدة أربعة أيام لتضميد الجراح واستعادة القوى، بعدما وجد ميتلوس صعوبة في انتصار ساحق على يوغرطة وجيشه، غير منهاج حربه حيث أصبح يفضل النهب والتخريب، فكان جيشه يسير في الأرض ويستبيح خيراتها ويحطم حصونها ويضرم النار فيها ويدخل المدن الصغيرة والضعيفة ويعيث جنوده فيها فسادا ونهبا وتخريبا، وأصاب الذعر أهالي المدن النوميدية من فظاعة رعب وإرهاب الجيش الروماني، فما كان منهم إلا الإستسلام[12].

وترك بعد ذلك القنصل ميتلوس في كل مدينة حامية من جنوده ولم يرضخ يوغرطة للأساليب القمعية والإرهابية التي انتهجها ميتلوس، وواصل كفاحه، فكان يتحين الفرص لمواجهة الجيش الروماني فيخرج ليلا بجنوده ويقف في طريق الرومان وينقض عليهم كلما سنحت ظروفه، فيقتل ويأسر ثم يعود من حيث أتى، وهذا يذكرنا بحرب العصابات التي نعرفها في عالمنا المعاصر، وكان يوغرطة يلجأ إلى أساليب تبرهن على مدى ذكائه ومعرفته بشؤون الحرب، فكان يقوم بتسميم الأعشاب والعيون حتى لا يستغلها الرومان بأمان، وبث ميتلوس إشاعة تدخل في إطار الحرب النفسية لإبعاد أنصار يوغرطة عنه، ومفاد هذه الإشاعة أو الدعاية أن الملك النوميدي رجل عاجز[13] على الإنتصار مع تشجيع أعدائه وخصومه للثورة عليه، وبث هذه الدعاية في البوادي والمدن ولكن لم تجد نفعا، ولم تكن هناك آذان صاغية لهذه الدعاية المغرضة التي لا جدوى منها إطلاقا، وفشل ميتلوس في الإنتصار على يوغرطة في معركة زاما بفضل صمود المدينة، واستعمل ميتلوس طريقة جديدة لمحاولة إبعاد أنصار يوغرطة عنه، ألا وهو بث دعاية ضد يوغرطة بأنه رجل غير قادر على الإنتصار مع تشجيع أعدائه وخصومه للثورة عليه، وقام بالدعاية لذلك في البوادي والمدن.

---

12. نفس المرجع ص39.

13 نفس المرجع ص39.

معركة زاما

واقترب الشتاء من سنة 109 ق.م ولم يحقق ميتلوس ما كان يأمله من حملته ألا وهو انتصار ساحق على يوغرطة، وهكذا كان لا يفكر في شيء سوى الضرب عاجلا والقضاء على جيش يوغرطة، لأن الزمن كان يعمل في صالح الملك، ذلك الذي كان يأبى الإلتحام، بل يؤثر البقاء تحت طي الخفاء ولا يحمل إلا في الظروف المساعدة. فكلما ابتعدت شرذمة من الجيش الروماني عن معسكرها كان فرسان الملك الجزائري وانهالوا عليها ضربا وتقتيلا[14].

كذلك أصبح جيش متلوس عديم الطمأنينة يعيش تحت عبء الأخطار، وكان عبؤها يبدو جليا، حيث كان الجيش الروماني يتلقى ضربات شديدة، ولم يكن في إمكانه التكهن بها ولا التصدي لها.

في آخر الصيف من سنة 109 ق.م أراد القنصل شن حملة عنيفة وأمله أن تتكسر شوكة العدو قبل حلول فصل الشتاء، وبدا له من الصالح في هذا الشأن أن يحاصر مدينة زاما حتى يفتحها ويتسلط عليها، وكانت زاما من أعظم المدن النوميدية، تقع وسط سهل فسيح تعوزه الحصانة، وحسب نظرية ستيفان قزال (Stephane Gsell) أنها تقع في المنطقة الممتدة بين مدينتي الكاف ومكثر، وهي إحدى عواصم المملكة النوميدية، وحسب سالوست أنها تختلف عن زاما التي إشتهرت بالمعركة التي دارت بين حنبعل وسيبيون[15].

كان القائد الروماني يأمل أن يسرع يوغرطة إلى مؤازرة أهل المدينة فيلتحم جيشه بجيش الرومان في ميدان تكون فيه الغلبة للرومان، نظرا لتفوقهم في العدد والعتاد، ولم تكن الحيلة تغيب على يوغرطة، بل إكتشف الخطة عن طريق بعض الذين تركوا صفوف الرومان والتحقوا به لأسباب لم يذكرها المؤرخ، ولو فعل لاتضحت لنا بعض المشاكل المتعلقة بتاريخ الرومان وتاريخ المملكة النوميدية الجزائرية في الحقل السياسي والحقل العسكري.

---

14. انظر محمد فنطر، يوغرطة ص 184-185-186.
15. نفس المرجع ص190.

كشف الغطاء على خطة ميتلوس إذن قبل إنجازها، فتقدم يوغرطة إلى مدينة زاما ولما أدركه توجه إلى أهلها يناشدهم الوقوف في وجه العدو صامدين، حتى يدافعوا عن حرمة مدينتهم بأشد ما لديهم من إيمان وأسلحة.

ثم ترك أولئك الذين فروا من صفوف الرومان وأشار عليهم أن يقاتلوا إلى جانب أهل المدينة، واثقا أنهم سوف يقاتلون بكل شجاعة خشية سقوطهم بين يدي ميتلوس، ذلك الذي لن يشفق على الخونة، بل سيعاملهم بأشد القساوة فيما إذا كانت الغلبة لهم.

وكانت خطة يوغرطة أن يبارح المدينة على أن يعود إليها وجيشه عند الأوان وغادر المدينة فعلا والتحق بمناطق كثيفة الأشجار، حيث يستطيع مراقبة العدو وتحركاته خفية[16].

كان جيش يوغرطة محتشدا في الغابة تواريه الأشجار، فإذا بنبإ يقول: أن أحد ضباط الرومان يتقدم على رأس بعض الوحدات الرومانية نحو مدينة سقة (SICCA) وهي الكاف حاليا، وكانت من المدن التي فتحت أبوابها لجيوش روما خشية القمع، إذ كان ماريوس أحد مساعدي ميتلوس، يريد مدينة سقة لاقتناء الحبوب، ففاجأه يوغرطة ليلا ومعه نخبة من فرسانه، وحمل على الوحدات الرومانية أثناء خروجها من باب المدينة وناشد في الوقت نفسه أهلها أن يتعقبوا العدو ليوقعوا به، إذ هي فرصة سعيدة أتيحت لهم ليبلوا البلاء الحسن وينجزوا المفاخر.

فهي ظروف إن استغلوها تمكنوا من استرجاع استقلالهم وسلامتهم، وبها يكونون قد ساعدوا ملكهم على الإحتفاظ بمملكته، وشعر ماريوس بالخطر الذي كان يحدق به فأمر بالخروج حالا من المدينة وظلت قطعة الوحدات الرومانية تعاني من ضربات النوميديين، وبعد اصطدامات طفيفة تصدت لها، أدركت وحدات ماريوس (MARIUS) مدينة زاما، وكان ميتلوس قد ضرب

---

16. نفس المرجع ص191.

الحصار عليها راسما للهجوم خططه، محددا لكل واحد مهمته. ثم أمر بالزحف على المدينة التي كانت جدرانها شامخة حصينة، كما كان لها العتاد الحربي ما يبعث على الأمل ويستوجب التقدير[17].

كانت الكرة عنيفة، لكن المدينة صمدت وتصدى سكانها لضربات العدو وأرجعوه على أعقابه فكانوا يلقون على الزاحفين أحجارا وأوتادا تكسوها الخرق مطلية بالقار الملتهب، كما كانوا يمطرون عدوهم قطرانا محرقا مزجوه كبريتا، كانت قذائف أهل زاما تبيد جنود متيلوس، وبعضهم كان يعمل على تحطيم جدران المدينة من أساسها وآخرون كانوا يستعملون السلاليم لولوج المدينة من أعلاها، وأقبل يوغرطة أثناء المعركة على رأس جيش عتيد، ويرجح أن القنصل الروماني كان يترقبه ليلتحم الجيشان كما أسلفناه على ضوء رواية أوردها المؤرخ سالوست[18].

أقبل إذن يوغرطة، لكنه لم يحمل على الوحدات التي كانت تسعى إلى تسلق جدران مدينة زاما، بل توجه نحو المعسكر الروماني ودخله بجنوده فجأة فعاثوا فيه فسادا، وقد استولى الرعب على قلوب الذين كلفوا بحراسته فلاذول بالفرار، وسقط كثيرهم تحت وقع سيوف النوميديين ورماحهم، ولم يثبت منهم سوى أربعين رجلا تحصنوا على ربوة كانت قرب المعسكر فتصدوا لعدوهم صامدين وأبعدوه عن ربوتهم بقوة قذائفهم[19].

خاض يوغرطة معركة المعسكر، والقنصل متلوسم منهمك في عملية الزحف على مدينة زاما واشتد الوطيس وامتلأ الفضاء غبارا وصراخا، فسمع القنصل ذلك فالتفت وراءه، فإذا بنفر من جنوده مقبلين نحوه فارين، فتذكر المعسكر فأيقن بالخطر فأرسل الخيالة وأضاف إليهم ماريوس بقوة وحدات

17. انظر : أحمد السليماني، ماسينيسا ويوغرطة ص42.

18. نفس المرجع ص42.

19 نفس المرجع ص43.

من الحلفاء لردع العدو وإنقاذ المعسكر، فكان الإصطدام ولم يتمكن رجال يوغرطة من الثبات أمام الخيالة ووحدات ماريوس وهرولوا نحو أبواب المعسكر فارين، واكتظت بهم الممرات الضيقة، فحاولوا عبور المتاريس وهلك الكثير منهم على أن الملك خرج سالما والتف حوله جنوده وأنصاره وابتعدوا متخذين المنعرجات والطرق الملتوية حتى يتواروا دون أن يتعرف العدو على مواقعهم ويتتبع حركاتهم[20].

كان يوغرطة وجنوده يعرفون بلادهم بشكل دقيق، ولهم في ذلك قوة على عدوهم، إذ كانوا يحملون على الرومان من حيث لايدركون، وإن فروا ترى عدوهم عاجزا عن تعقبهم والإلتحاق بهم، وتلك خطة مشهودة لدى الذين يقاتلون عدوا جبارا يتمتع بالتفوق في العدد والعتاد[21].

أما المعارك وراء جدران مدينة زاما، فقد تواصلت إلى غروب الشمس دون أن تكون النتيجة حاسمة. وعندها أمر القنصل الروماني جنوده بالكف عن الهجوم والعودة إلى الخيام.

ولما كان الصباح، تجمع الخيالة مصطفين خارج المعسكر وبقيت داخله قوات كفيلة برد كل هجوم، إطمأن القنصل على حراسة المعسكر وسلامته ثم سار نحو مدينة زاما وبادر بالكر عليه مشيرا بدخولها عن طريق تسلق جدرانها أو بفتح فلجة فيها[22].

كان الرومان منهمكين في المعركة، مقبلين تارة ومدبرين طورا، فإذا بيوغرطة يزحف على رأس جيش عتيد، فكانت معركة عنيفة وصفها المؤرخ سالوست وصفا دقيقا طغت عليه الحركة والصراخ ووقوع الحديد للحديد في جو يعلوه غبار كثيف. ويرجح أنه إقتبس هاته الألواح من بعض الملحمات

20. نفس المرجع ص43.

21. نفس المرجع ص43.

22. نفس المرجع ص44.

القديمة، وقد تفنن القدماء في وصف المعارك الملحمية- ثنائية كانت أو جماعية- وأروع ما لدينا في هذا الميدان، يعود الفضل فيه إلى الشاعر اليوناني هوميروس، الذي يبدو أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وإليه تنتسب ملحمتا الإلياذة والأوديسية[23].

وتعرض سالوست إلى طريقة النوميديين في القتال، فهم على حد قوله يندفعون كتلة حتى أنك ترى الخيالة مندمجين في صفوف المشاة، ويتقدم الجميع دفعة واحدة، مما كان يدهش الرومان ويحيرهم، ذلك أن الخيالة يتقدمون في الزحف ليكسروا صفوف العدو، ويفتحوا فيها فجوة، وعندما تكون الفجوة تراهم يدبرون ويتركون المجال للمشاة حتى يتخللوا العدو ويشتتونه ويقتلونه[24].

وإذا ما تفرق شمل العدو ولاذ بالفرار، ترى الخيالة تطاردهم لتقتيلهم أو القبض عليهم فيقوم الخيالة بفتح فجوة في صفوف العدو ومطاردة الفارين منه، وكثيرا ما تسعى الخيالة النوميدية إلى بث الفوضى في صفوف الرومان، ولا يمكن تكسير شوكتهم إلا باختلال النظام عندهم أنها طريقة ناجعة، وقد مكنت يوغرطة من تسديد ضربات خطيرة لأعدائه، سقط الكثير منهم في ساحة الوغى وداستهم سنابك الخيل ومستهم سيوف المشاة ورماحهم بيد أن الملك النوميدي يوغرطة لم يستطع خرق صفوف الرومان.

ومن بين الذين كانوا يديرون القتال حول المدينة، وهو ماريوس، وقد لجأ إلى حيل كادت تفتح له أبواب زاما، ذلك أن ماريوس لاحظ أن الجنود الذين كانوا يتصدون لحملاته المتوالية ويسلطون على الرومان شر قذائفهم، لاحظ أنهم كانوا يتابعون المعارك التي كانت تدور بين يوغرطة وبعض الوحدات الرومانية، وكانوا يشاركونها بحواسهم وعواطفهم، بل تراهم

23. نفس المرجع ص44.

24. نفس المرجع ص44.

يعربون عما يخالجهم بحركات وأصوات كانت تصدر منهم تلقائيا من حيث لا يشعرون[25].

فأراد عند ذلك ماريوس أن يتركهم ينغمسون في مشاهدتهم للمعركة التي يقوم بها يوغرطة فأمر جنوده أن يخففوا وطأتهم، فكانت النتيجة كما توقعها، حيث أصبح المحاصرون لا يفكرون إلا في يوغرطة ويعيشون معركته[26].

وانقطع ماريوس عن الكر زمنا، ثم شن حملة عنيفة حتى تمكن بعض جنوده من تسلق السلالم، فكانوا على مقربة من قمة الجدار، غير أن أهل مدينة زاما أسرعوا وأمطروا عدوهم قذائف عديدة مختلفة، فإنكسرت السلالم.

تواصلت المعارك إلى غروب الشمس، دون أن يدرك متلوس الهدف المرسوم، فابتعد عن زاما وفر بجيشه حتى أدرك الولاية الإفريقية الرومانية ليقضي بها فصل الشتاء[27].

لم تسفر المعارك التي قام بها متلوس عن نتيجة ملموسة، بل أصيب بفشل. أقبل الشتاء واستبقى الجيش تحت خيامها، ولن تخوض معارك جديدة قبل حلول الربيع. على أن القنصل الروماني كان يريد الإنتهاء من حرب يوغرطة في أقرب الآجال.

عملية باجة في شتاء 108 ق.م

خلال شتاء سنة 108 ق.م جرت حوادث خطيرة بالنسبة لجيوش روما. كانت إحدى الحاميات التي أبقاها ميتلوس بالمملكة النوميدية ترابط بمدينة باجة، فاتصل يوغرطة بأعيان المدينة وسألهم أن يساعدوه على حبك مؤامرة ضد الحامية الرومانية، فتأثروا واقتنعوا، وكان تنفيذ المؤامرة في عيد ديني، وكان

25. نفس المرجع ص45.

26. نفس المرجع ص45.

27. نفس المرجع ص45.

له عند الأفارقة قيمة عظمى ويبدو حسب كركوبينو (CARCOPINO) أنه عيد سيراس (SIRES) إلهة الفلاحة[28].

فذات ليلة من ليالي الشتاء، كانت مدينة باجة منهمكة في احتفالات هذا العيد، الذي كانت فيه طبول ومزامير ومآدب وخمور، واستدعى أعيان المدينة ضباط الحامية الرومانية إلى منازلهم ليشاركوهم عيدهم فقبلوا، ولما انهمكوا في الأكل والشرب كانت الواقعة وسقط الضباط تحت ضربات مضيفهم ولم ينج منهم إلا قائد الحامية[29].

ثم خرج المتآمرون وساروا بأهل المدينة وحملوا على الجنود وهم يتنزهون عبر الشوارع آمنين مطمئنين، فاستولى عليهم الهلع والحيرة، وقد وجدوا أنفسهم عزلا، لا قائد لهم ولا سلاح، واستولى المتآمرون على القلعة، حيث توجد الأسلحة وأغلقت أبواب المدينة، في حين أن النساء والأطفال كانوا يلقون *القذائف* المختلفة على جنود روما فقتلوا شر قتلة ولم يخرج – على حد قول *سالوست* – من المدينة سالما سوى قائد الحامية ويدعى تربليوس. وهي رواية أقرها الفيلسوف اليوناني بلوطارق، لكنه من العسير أن نقف على الأسباب الحقيقية التي مكنت ذلك القائد من النجاة.

فوجئت القيادة الرومانية إذن بزحف الجيش النوميدي وارتمى الخيالة على الرومان قبل أن يصطفوا، بل قبل أن تباغتهم أوامر القيادة، حمل عليهم العدو بطريقة غريبة لا تخضع لأي نظام.

كان فرسان نوميديا يحملون على عدوهم زرافات يأتونهم من كل صوب، تراهم يسددون ضرباتهم نحو عدوهم ويدوسونه عند الضعف، وتراهم يتراجعون متفرقين بسرعة، لقد ارتاع الجيش الروماني، لكن الجنود لم يفقدوا شجاعتهم على قول سالوست، فهذه جماعة هرولت نحو الأسلحة وآخرون يصدون عنهم ضربات العدو[30].

---

28. نفس المرجع ص46.
29. نفس المرجع ص46.
30. نفس المرجع ص47.

فالإصطدام كان عنيفا بخيالة يوغرطة والجيش الروماني، ولم ينته عندما أقبل الليل، وأمر الملك النوميدي الجزائري جنوده بمواصلة القتال حتى شعر ماريوس بخطر الظلام، مما جعله ينسحب نحو ربوة وعرة المنحدر، يسيرة المراقبة والحراسة، فأشار إلى مساعده سلا (Salla) لكي يسيطر على ربوة أخرى صغيرة قريبة من الأولى، وكانت بها عين ماء جارية تسد حاجة الجيش وتبعد عنه شبح العطش، ونصب الرومان معسكرهم على الربوة الأولى[31].

ولقد تمكن الرومانيون بعد ذلك من احتلال مدينة سيرتا واتخذوها مشتى سنة 108 ق.م، وتم بذلك استيلاؤهم على الجهة الشرقية والجهة الوسطى من نوميديا.

أما يوغرطة، فإنه أخذ يسعى في إيجاد أعداء آخرين لروما، يستعين بهم على مقاومة الرومان، فجمع الجنود من قبائل جدالة (guetules) بالجنوب، ثم أخذ يحث صهره بوكوس ملك موريطانيا[32] (المغرب الأقصى) ويحث أفراد دائرته ومستشاريه على الدخول في الحرب والمقاومة بجانبه ضد الرومانيين الذين أصبحوا خطرا لا عليه فحسب، بل عليهم جميعا. ونجح بعض النجاح في إقناعهم وفي تحريك شعورهم... وهكذا زحف النوميديون والموريطانيون صفا واحدا على سيرتا، أي قسنطينة اليوم، وفي تلك الأثناء بينما كان ميتلوس يستعد للقاء هذا الجيش، بلغه نبأ تسمية ماريوس قنصلا وتكليفه بقيادة الجيش النوميدي مكانه، فنزل هذا الخبر عليه نزول الصاعقة، ورجع إلى روما ساخطا غاضبا سنة 107 ق.م.

وقد أصاب قوة يوغرطة وهن ظل ملازما للثوار النوميديين حتى نهاية الحرب التي كانت على يد ماريوس (Marius) سنة 107 ق.م ومساعده سيلا الآنف ذكره، وذلك بعد معارك ضارية كلفت الجزائريين القدماء تضحيات جسيمة، تمكن في آخرها مساعده سيلا من القبض على الزعيم يوغرطة، بفضل أحبولة المفاوضات، وذلك في خريف عام 105 ق.م[33].

31. نفس المرجع ص47.

32. نفس المرجع ص47.

33. نفس المرجع ص47-48.

موقف بوكوس من يوغرطة

اتفق المؤرخون حول ما حدث من خيانة بوكوس لصهره وحليفه يوغرطة من أجل الحصول على أراض جديدة في نوميديا الغربية وعده بها الرومان.

ولولا المساعدة التي قدمها الرومان إلى بوكوس لاستمرت العلاقات الطيبة قائمة بين ملك نوميديا (الجزائر تقريبا) وبوكوس ملك موريطانيا (المغرب الأقصى) لأنه كما هو معلوم، جرى تحالف وطني ضم المملكتين في صف واحد ضد التوسع في عهد سابق[34].

إن تراجع بوكوس عن مساعدة يوغرطة يعود إلى الظروف العسكرية السيئة التي كان عليها جيش يوغرطة، علاوة على الضغط السياسي الذي سلطه القائد ماريوس على بوكوس لحمله على التخلي عن حليفه يوغرطة، وذلك بهدف محاصرة هذا الأخير وعزله.

نهاية يوغرطة

في سنة 105 ق.م وقعت مقابلات كثيرة بين سلا والملك بوكوس، بعضها بمحضر نائب عن يوغرطة، جرى فيها التفاوض في شأن إيقاف القتال وإبرام الصلح، وبعضها سرية كانت تجري ليلا بين الرجلين لتدبير المكيدة ليوغرطة[35].

وأخيرا وقع الإتفاق على استدعائه ليقع تقديمه إلى سيلا تمهيدا للصلح، وكان الأمر كذلك، وقدم يوغرطة بدون سلاح، وجاء بوكوس وسلا لملاقاته، وكان بوكوس قد كاد مكيدة للملك النوميدي، حيث نصب كمينا بالقرب من مكان المقابلة، وهكذا تم القبض على ذلك الزعيم الكبير بالغدر والخيانة في صيف عام 105 ق.م.

---

34. نفس المرجع ص48.

35. نفس المرجع ص48.

إن معظم الفضائح المخجلة في تاريخ العلاقات الدولية وكذا القانون الدولي، استدعاء يوغرطة للتفاهم معه في شروط الصلح، ثم إلقاء القبض عليه بالحيلة والخديعة لما لبى النداء وقدم مسالما بدون جند وسلاح.

وإن ذلك لم يمنع ماريوس الذي كان ينتمي إلى أسرة غنية من أصل حقير، وكان جنديا فظا غليظا، ولكنه مع ذلك كان جريئا خبيرا بأمور الحرب والقتال.

أجل لم يمنع ماريوس من إقامة احتفال النصر يوم تسميته قنصلا من جديد في أول جانفي سنة 104 ق.م.

وكان يوغرطة يسير أمام عجلة المنتصر مرتديا القميص الأرجواني. يوغرطة ذلك البطل الذي قاوم الجمهورية الرومانية مدة ست سنوات، والذي أرغم خيرة جنودها على الإنحناء أمامه.

يوغرطة ذلك الزعيم النوميدي الجزائري الذي أصبح اسمه من خلال القرون يوقظ في نفوس الرومانيين الشعور بالخزي والعار والخوف والهلع.

وبعد الإحتفال بعيد النصر، سيق يوغرطة إلى سجن التاليانوم (TULLIANUM) تحت قصر الكابيتول، فمكث فيه ستة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا، ولم يرحه من أهوال الجوع والآلام إلا حبل المشنقة[36].

مات يوغرطة في اليوم السابع من شهر جانفي سنة 104 ق.م، ولكن ذكر يوغرطة إستمر خالدا في ذاكرة الجزائريين القدماء، بل كل المغاربة في حضرموت وطرابلس الغرب، وأوتيكا وطبرقة، وبونة، وإيكوسيوم، وطنجة، ويول، وليكسوس، وسلا.

---

36. نفس المرجع ص48-49.

نهاية يوغرطة

كما أوردها سللوستيوس (87ق.م - 35 ق.م)

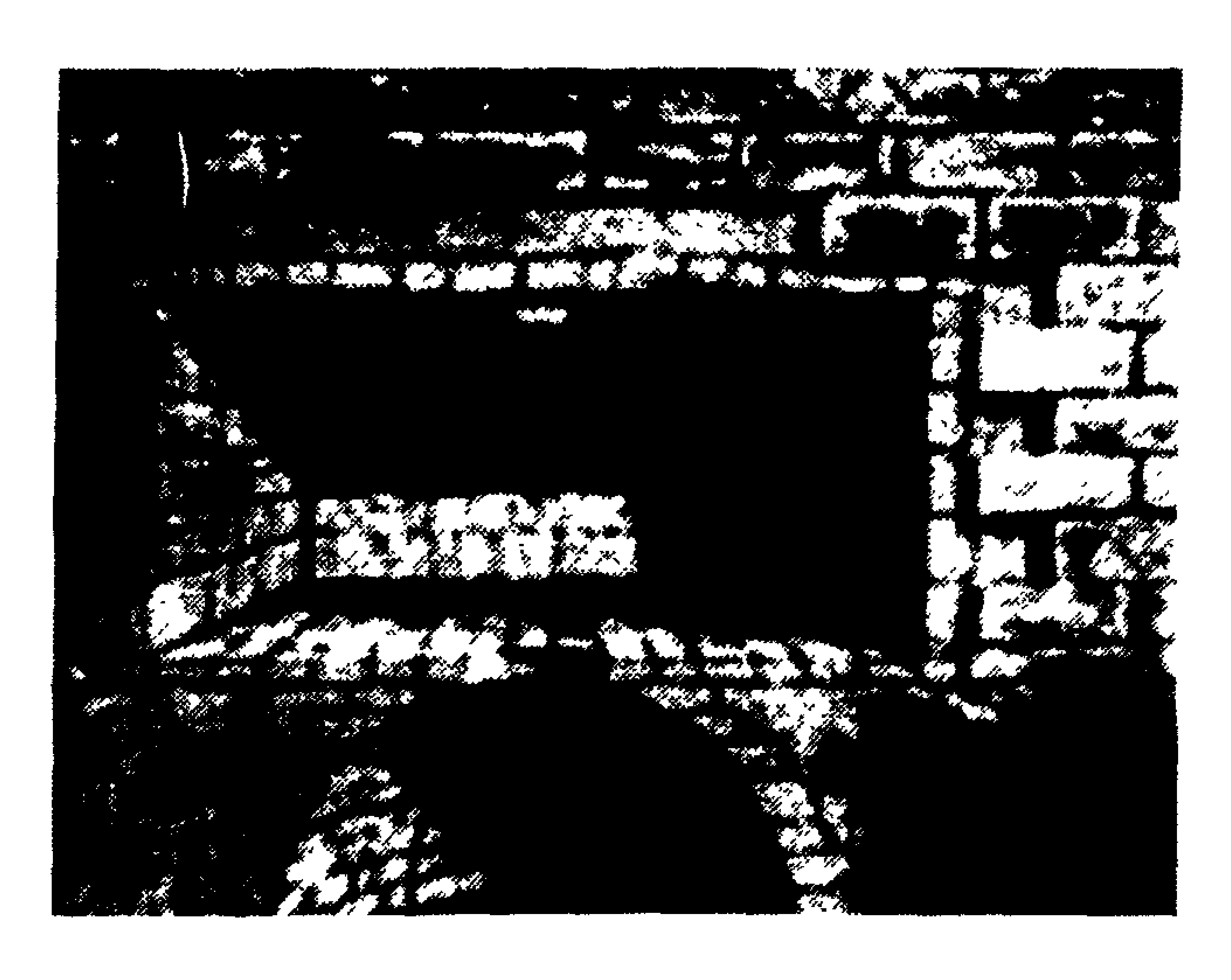
إن الملك النوميدي، يوغورطة، عرف نهاية مأساوية شديدة، وغير إنسانية على الإطلاق. فقد جرى إعتقاله، بخديعة من قبل أبناء جلدته، وكبل بالسلاسل، وتم عرضه في شوارع روما، وعامله حراسه معاملة مشينة ونزعت منه ملابسه وجواهره، وفقد صوابه، بعد ذلك رموا بيوغرطة في زنزانة ضيّقة في توليانوم، بروما.

يوغرطة ذلك الرجل المخدوع والمنهزم، بقي يعاني من الجوع والعطش، ومات بعد ستة أيام قضاها في زنزانته المتسمة بالرطوبة في توليانوم.

عن سالوستيوس من كتابه
حرب يوغرطة، ص، 161
ترجمة نص الفقرة
المؤلف أحمدسليماني.



صورة الملك يوغرطة البطل



الزنزانة التي مات فيها يوغرطة الموجودة في توليانوم بمدينة روما.

الفصل الخامس

الملك يوبا الأول

تمهيد

مملكة موريطانيا القيصرية والهيمنة الرومانية واعتلاء يوبا الأول العرش النوميدي

هناك من يرى أن معلوماتنا حول المملكة النوميدية من ناحية تنظيمها السياسي والإجتماعي خلال العهد الهلينستي يعتريها كثير من النقص، ومضامين المادة التاريخية التي حصلنا عليها من المؤرخين الإغريق والرومان اللاتين تعبر على إرتباط الملوك النوميديين بالجمهورية الرومانية فيما يخصّ النزاعات وأوجه الخلاف الذي كان قائما بين الطرفين.

والمعطيات التاريخية التي هي في حوزتنا تشكو نقصا وضعفا حيال حرب يوغرطة 105-109 ق.م (رغم أن سالوستيوس خصص كتابا لهذه الحرب ولكن هذا غير كاف) علاوة على الأخبار المتعلقة بالحرب التي قامت بين القيصر مع بومبي 46-49 ق.م، وكلها أخبار ضعيفة لا تشفي الغليل، فهناك غموض وروايات مبهمة حول القرابة الدقيقة والحقيقية التي تجمع الأسر الملكية النوميدية الحاكمة[1] وكذا تواريخ حكمهم، والأمر يمس أيضا التطور المتعلق بحدود الممالك القائمة الذي عرف تغيرات عديدة.

---

1 Voir Virginie Bridoux, Introduction au royaume de Numidie P14.
L'Algerie aux temps des royaumes Numides Paris 2003.



رأس مصنوع ليوبا الأول، لقد عثر على هذا التمثال في شرشال
ويوجد اليوم في متحف اللوفر بباريس.

ويبدو أن الوحدة الترابية لنوميديا تم إيقافها ووضع حد لها إبتداء من عام 88 ق.م ففتحت المجال أمام التعايش ما بين مملكتين، الأولى تمتد من حدود ما يسمى فوساريجيا (Fossaregia)[2] وهي الحد ما بين نوميديا والإقليم الروماني لإفريقيا الذي هو قائم منذ سقوط قرطاجة في 146 ق.م إلى حدود قيرتا(قسنطينة اليوم)، أما المملكة الثانية فهي تخص ما بقي من الأراضي حتى حدود المملكة الموريطانية التي كانت خلال القرن الأول قبل الميلاد لم تتوقف عن التوسع نحو الشرق على حساب تقليص أراضي النوميديين.

ولكن المعطيات بدأت تتغير وهذا بفضل الروايات القديمة ومعطيات علم الآثار، حيث إستطعنا أن نحدد الملامح الكبرى لتطور العلاقات بين نوميديا والقوى العظمى المتوسطية منذ عهد الملك الإقليد ماسينسن (203-148) ق.م، حتى عهد الملك هيمبسال الثاني (60/50-88) ق.م، فالعلاقات التجارية والسياسية والثقافية مع العالم الإغريقي قد جرى التعرف عليها[3] وإظهارها بوضوح. وقام مكيبسا (118-148) ق.م، بسياسة الهلسنة (La politique d'Hellénisation) للمملكة، أي إدخال الثقافة الهلنسيتية إلى نوميديا من خلال تطوير ملكية ذات طابع هلينستي، وساهم مكيبسا في تقوية السلطة الملكية، وكانت في مدينة قيرتا جالية إغريقية هامة مقيمة بمدينة قيرتا التي كانت بمثابة عاصمة المملكة. وإرتاد المدينة مثقفون وفنانون وجدوا ترحيبا وتكريما في البلاط الملكي وسمح ذلك للملوك النوميديين بتلقين أبنائهم ثقافة إغريقية[4]. وإن التحالف مع الرومان منذ الحرب الرومانية القرطاجية (201-218) ق.م، كل هذا لم يجنب النوميديين من الإعتراف من الثقافة البونية القرطاجية، حيث أنه رغم سقوط قرطاجة فهذا لم يمنع من مواصلة نفوذ وتأثير الحضارة القرطاجية والثقافة البونية خلال القرن الأول قبل الميلاد سواء في ميدان إستعمال وممارسة اللغة القرطاجية وكذا في

2. Id Ibid P 140.
3. Id Ibid P 140.
4. Id Ibid P 140.

ميدان العبادة وتأدية الطقوس الدينية والجنائزية، علاوة على المساهمة البونية في قطاع المؤسسات.

ولكن هذه الفترة تتميز على الخصوص بالإندماج التدريجي للمملكة النوميدية في فضاء النفوذ الروماني، وكما هو معلوم أن روما هي المسؤولة الوحيدة عن زوال المملكة بصفة مؤكدة[5].

وهذا المسار السالف ذكره بدأ بالفعل عن طريق التدخل الروماني في الشؤون السياسية للمملكة، ففي عهد ماسينيسا وبطلب من هذا الملك النوميدي تدخلت روما بواسطة سيبيون الإيميلي في حسم الخلاف المتعلق بمن يتولى الحكم بعد وفاته. وعند نهاية حكم مكيبسا، قامت روما بتعيين الورثة في الحكم، ومن جملتهم يوغرطة الذي خصصنا له مقاما خاصا في كتابنا هذا لأنه ملك نوميدي، وكان يوغرطة يهدف إلى إعادة الإعتبار لمملكة ماسينيسا، فقام بالقضاء وتنحية العاهلين النوميديين كما سلف ذكره، وقتل التجار الإيطاليون المقيمون والعاملون في قيرتا، ودخل في صراع مع روما، مع العلم أن نتائج حرب يوغرطة عجلت بالتدخل والتوسع الروماني في البلاد النوميدية. وفي عام 105 ق.م قام مجلس الشيوخ الروماني بالإعتراف لسيادة الملك قودا (105-88) (Gauda) ق.م، كرد للجميل وتعويض لموقفه المخلص لروما، وجرى نوع من الوفاق مع القنصل ماريوس الذي قام في مدة معينة بقيادة العمليات بنوميديا، وسمح له ذلك بتنصيب محاربيه القدماء وجنوده المخلصين في السهول الغنية بمجردة والتل الأعلى، مع العلم أن هذه الحرب تميزت وسمحت ببداية ضم جزء من أراضي المملكة النوميدية عن طريق الموريين تحت قيادة بوخوس (80-120) ق.م، الذي قام بتسليم يوغرطة (كما سلف ذكره) إلى الرومان، وإستطاع توسيع سيطرته وهيمنته ما بعد نهر الملوية، وهي الحدود القديمة ما بين المملكتين الإفريقيتين، ووصل بوخوس في حدوده الجديدة

5. Voir Gsell Stéphane Hist.AAN Tome P201; et Coltelloui Trannoy, 1997, P22.P 140.

التوسعية إلى مصب نهر الشلف. وإن سياسة التوسع في أراضي البلاد النوميدية إستمرت في عهد الملوك اللاحقين الذين خلفوه، منهم الملك سوسوس (Sosus)(49-80) ق.م، وبوخوس الثاني (33–49) ق.م.

أما مراحل وظروف هذا الغزو للأراضي النوميدية فهي مجهولة، ولكن مست على العموم نواحي مدينة الجزائر، وربما منطقة القبائل الكبرى حتى وادي الصومام.

إبان الحروب الأهلية الرومانية التي إندلعت في القرن الأول قبل الميلاد، نلاحظ أن الملوك النوميديين انقسموا مابين معسكرين اللذان جرى بينهما صراع حاد، فوقف بعض الملوك مع جماعة بومبي وربطوا صلات مع القادة العسكريين الرومان من أجل التوسع على مستوى الأرض والحصول على وعد بإمتيازات ومصالح مادية وحيوية، ومن الناحية السياسية نلاحظ أن روما قامت ببسط هيمنتها بالتدريج على المملكة النوميدية، وقام بومبي بتقوية سلطة الملك هيمبسال الثاني الذي قام بإعادته إلى العرش بعد عملية إستحواذ على المملكة بقيادة أنصار ماريوس. مع العلم أن الملوك النوميديين الذين جاءوا فيما بعد بفوا مخلصين لقضية النوميديين، ولكن المساعدة العسكرية التي قدمها يوبا الأول (46–50–60) ق.م، إبان الحرب الأهلية التي كانت قائمة عند قيصر إفريقيا، وقع ما لم يكن في الحسبان وهو إنتصار هذا الأخير أي القيصر، مما أدى به إلى تسوية وضعية ومصير المملكتين النوميديتين. فالجزء الشرقي من المملكة أصبح إقليما جديدا يدعى إفريقيا الجديدة (Africa Nova)، باستثناء ناحية قيرتا التي منحت إلى كوندوتيير سيتيوس (condottiere sittius)، وبقيت على هذا الحال إلى أن تم إدماجها في الإقليم الروماني لإفريقيا.

أما الجزء الغربي فجرى إدماجه عن طريق الملك الموريطاني بوخوس الثاني.

وإن الملك النوميدي الأخير عرابيون (41-45) ق.م، إبن ماستينيسا (46-81) ق.م، نجح في الإمتلاك من جديد لنصيب أبيه من المملكة، ولكن وافته المنية بعد ذلك بمدة قصيرة، ثم عاشت البلاد صراعا من أجل السلطة بين الحكام الرومان لإقليم إفريقيا.

وإن تطور روابط التعامل مع الأرستقراطية الرومانية وهم الوسطاء الحقيقيون للسلطة المركزية، مهد ذلك لولوج وانتشار الثقافة الرومانية، وكذا نمط العيش على الطريقة الرومانية في المملكة النوميدية.

وقد ساهم الملك يوبا في نشر اللغة اللاتينية، حيث إستعملها في المسكوكات الملكية التي سكها هذا الملك في عهده. ونلاحظ وفرة المنتجات الإيطالية، منها أواني الموائد وبخاصة أواني الخزف التي تستعمل في شرب الخمر وكانت موجودة بكثرة في المدن النوميدية إبان القرن الأول والثاني الميلادي، وكان يوجد تجار رومان إيطاليون في عدة نواحي من المملكة الموريطانية.

ويلاحظ في عدة مستويات وطبقات أثرية (Les niveaux archéologiques) في نفس القرن أن الفخار الإيطالي[6] كان يتعايش وموجود في نفس الوقت مع منتجات ذات تقاليد فينيقية- بونية، علاوة على فخار مستورد من اليونان.

6. إن المعطيات الأثرية المتحصل عليها بفضل التطور الحاصل في ميدان تأريخ الأدوات والمكتشفات الأثرية التي جرت في مواقع أثرية قديمة يجعلنا نتعامل مع التوثيق الأثري المتوفر. وإن إعادة الإختبارل لهذه الأدوات المكتشفة والتوثيق الأثري يسمح بوضع تحديد زمني ومسار الولوج للمنتجات الإيطالية، وكذا التعرف بشمولية أكثر حول ظروف أحداث رئيسية تعد بمثابة مفتاح الحل كسقوط قرطاجة وحرب يوغرطة في تطور المبادلات.

انظر في هذا الشأن المرجع الفرنسي:

Virginie Bridoux; Introduction au royaume de Mauritanie, P142

L'Algérie au temps des royaumes Numides Paris 2003.

يوبا الأول .. سيرة ملك

يعد يوبا الأول أحد ملوك نوميديا العظام، تحالف مع حزب بومبي ضد القيصر وكان يحرص أشد الحرص في الحفاظ على استقلال المملكة النوميدية.

ويوبا الأول هو ابن هيمصبال الثاني، رباه والده تربية عالية وبعثه إلى روما عندما كان شابا للتعرف على الحضارة الرومانية في منبعها.

وكان يوبا شغوفا بالحروب ويشبه في كثير من النواحي يوغرطة وسيفاكس في معاداته للهيمنة الرومانية، وهذا ما يفسر محاربته للرومان تحت قيادة القيصر، لأن حزب بومبي كان معترفا بسيادة الدولة النوميدية تحت قيادة يوبا الأول.

وعمل يوبا على تنظيم الجيش وتدريبه، وجعل ضمن جيشه لفيفا أجنبيا حتى أنه وضع من حرصه الخاص مجموعة من الجنود الإسبان والغالة، قام يوبا بمحاربة بعض زعماء القبائل الذين تمردوا على سلطته حتى أخضعهم بقوة السلاح.

ودخل يوبا الأول الحرب مؤيدا حزب بومبيوس، وكان يرأس الجيش الروماني وظهر القيصر كرجل مستبد، حاول أن يسقط الجمهورية الرومانية. وفي روما انتصر القيصر على بومبيوس وانتزع منه إيطاليا، ففر فاروس أحد قادة بمبيوس إلى إفريقيا الشمالية مع جيشه، وأعلن مناصرته وتشيعه لبمبيوس وعمل ما في وسعه لإقناع يوبا الأول من أجل تأييد بومبيوس، ونجح فعلا في مسعاه ولم ينس يوبا الصداقة التي كانت تجمع بومبيوس بوالده هيمبصال وعداوة القيصر له، فأعلن علانية تأييده لحرب بومبيوس الحزب المغلوب في إيطاليا.

وفي 49 ق.م بعث القيصر إلى إفريقية ضابطه كريون، وهو عدو لدود ليوبا، وإقترح هذا الضابط على مجلس الشيوخ الروماني أن ينتزعوا من يوبا الأول مملكته التي ورثها من أبيه، وأعلن كريون أمام الملأ في روما أن يوبا عدو الرومان.

نزل كريون في الولاية الرومانية (بالوطن التونسي المعروف اليوم) وجرت بينه وبين فاروس من حزب بومبيوس معركة حربية ألجأت فاروس إلى الفرار من ساحة الوغى إلى عوتيقة ultique (بوشاطر).

حضر يوبا الأول مرماه في توطيد استقلال الدولة النوميدية، وفر كريون إلى أحد المعاقل وتحصن به.

وأشاع يوبا إشاعة مفادها[7] أنه داهب لإخماد ثورة في نوميديا واختبأ يوبا مع جنوده القليلين فآمن كريون بهذه الإشاعة وظن أن يوبا قد ذهب فعلا لإخماد الثورة، ولكن في الحقيقة لم يذهب بل وضع[8] لكريون كمينا لينقض وليهاجمه فيه ونزل كريون من حصنه مع بعض جنوده، وكان عنده أسرى نوميديين، والتقى بنواحي مجردة بطلائع الجيش النوميدي، فهجم عليهم وفي إعتقاده أن يوبا غائب عنهم، وتأخر النوميديون أمامه وعمد إلى وضعه في الفخ، وناوشه النوميديون وأظهروا له نوعا من الفتور المتعمد، وبينما هم كذلك إذ هاجمهم[9] يوبا مع جيش جرار من كل حدب وصوب وكان ضمن جيش يوبا ألف فارس من الإسبان والغاليين، فاشتد الأمر على كريون في ساحة القتال وانهزم في الأخير هزيمة نكراء، قطع رأسه وأخذوه إلى يوبا الأول وجرى ذلك في العشرين من يونيو عام 49 ق.م[10].

وارتفعت معنويات يوبا الأول بعد هذا الإنتصار الساحق على كريون، ورأى أن الفرصة أصبحت سانحة لإعلان سيادة عظمته كملك على نوميديا وإفريقيا حتى أمام البوميين أنفسهم، ويفخر أمامهم أنه هو الذي قتل كريون وسحق جيشه[11].

---

7. انظر محفوظ قداش، الجزائر في القديم ص96.
8. نفس المرجع ص99.
9. نفس المرجع ص99.
10. الميلي، تاريخ الجزائر في القديم ص 210.
11. نفس المرجع ص 210.

ومن مظاهر إستعلائه وشعوره بالعزة أمام أنصار بومبيوس، إن سيبيون رئيسهم جاءه يوما مرتديا حلة حمراء مطرزة بالذهب، وهذه الجبة من مظاهر الملوك يومئذ، وقد فعل هذا لكي يبين ليوبا عظمته، فرفض يوبا هذا التصرف وأمر سيبيون بنزع الجبة الحمراء المذهبة وطلب منه أن يلبس لباسا أبيضا فلم يسع سيبيون إلا للإمتثال.

لما إنهزم بيمبيوس بإيطاليا ذهب إلى مصر، ولما بلغ الإسكندرية أرسل إليه بوثان من قتله، ولكن شيعته لم يحد من عزمها موته حيث وجدت في يوبا أقوى عضد لها بإفريقية، والتحق بها من عظماء هذا الحزب ميتلوس سيبيون– وهو صهر بيمبيوس – فبلغها سنة 48 ق.م ثم قاطون سنة 47 ق.م ولما دخل قاطون عتيقة وجد سيبيون.

والتحق أعضاء من حزب بيمبيوس بيوبا الأول، منهم ميتلوس وسيبيون وهو صهر بيمبيوس[12]، فوصل إفريقية عام 48 ق.م، ثم التحق به كاتون في 47 ق.م.

ولما دخل كاتون عوتيقة utique وجد سيبيون[13] وفاروس مختلفين على رئاسة الجيش، كل واحد منهما يريد أن يصبح رئيسا عليه، فقام كاتون بإصلاح ذات البين، وبعدها تفرغ البومبيون لتنظيم شؤونهم وأعانهم يوبا الأول، وجرت مفاوضة فيمن يخلف بومبيوس[14] على رئاسة الحزب وتدبير الحرب، واتفقوا على تقديم سيبيون لهذا المنصب، فتهيأ للحرب وجمع أربعين ألف جندي وخيولا كثيرة امتطأها عبيد وموالي.

وشارك يوبا الأول بأربع فرق منظمة تنظيما محكما، تتكون من إثنا عشر ألف جندي وخيل كثيرة، وشارك بفرقة عسكرية من رجال البوادي غير المنظمين و120 فيلا، وتولى سيبيون نفقات جميع جيوش يوبا الأول ودفع مرتباتهم.

---

12. نفس المرجع ص ×

13. أود أن أشير أن سيبيون هذا يجب ألا نخلطه بسيبيون الإفريقي الذي عاصر قرطاجة وسيبيون الإيميلي.

14 نفس المرجع الميلي ص212 وانظر جوليان ص164–165.

وطلب يوبا من سيبيون على إجبار سكان الولاية الرومانية على تسليم الحبوب لتموين الجند، وعلى أن يدفع التجار بعض الأموال كتبرع في فائدة الحرب، وقبل سيبيون بنصيحة يوبا ونفذ الأمر، ولكن جرى ذلك بخشونة كبيرة، فحارب مدنا كثيرة وهذا ما لم يرض يوبا فأشار على سيبيون بإيقاف هذه المجازر، مع العلم أن عوتيقة كانت تضم أنصار القيصر، فأراد سيبيون القضاء عليهم ولكن تراجع في الأخير عن عمله هذا وعلم القيصر في روما بقوة سيبيون ويوبا، فصمم أن ينقل الحرب إلى إفريقية ليكمل انتصاراته على البومبيين.

وعمل القيصر بكل ما في وسعه لإقامة تحالف مع بوكوس الثاني وأخيه بوغيد الأول[15]، ونجح فعلا في ذلك.

وفي منتصف أكتوبر من عام 47 ق.م، توجه القيصر إلى إفريقيا عن طريق صقلية ونزل بنواحي قليبية في تونس ونزل معه من الجند نحو 3000 من المشاة و 150 فارسا وتأخر بقية الجند في البحر.

وبسبب جور وتعسف سيبيون ضد البربر في إفريقيا، فلم يجد تأييدا ومساندة منهم وتحولوا نحو مناصرة القيصر، وبعد ذلك اضطر إلى التفاوض مع يوبا حول الحل الذي يراه صائبا، فطلب سيبيون من الملك النوميدي النجدة على أن يترك له إفريقيا متى انتصر ويعود بالرومان إلى إيطاليا، فلم يشك يوبا في أنه قد أشرف على تحقيق غايته، وهي تحرر نوميديا من الهيمنة الرومانية، فأعانه[16] بفرسان نوميديا، الذين لهم شهرة منذ أيام حنبعل القرطاجي وبالأفيال الكثيرة، وكان جيش يوبا عمدة سيبيون، وكاد القيصر أن يقع أسيرا في المعركة الأولى ونجا بدهائه وتحصن بعد ذلك في مركز أمين، فقد حاصرت خياله بومبيوس جيش القيصر، فلم يفك عنه الحصار بأي إجراء يذكر.

---

15. لا نعرف في أي تاريخ إنقسمت موريطانيا إلى مملكة غربية ومملكة شرقية يملكها بوخوس الثاني، إلا أن هذا التقسيم كان موجودا في سنة 49 ق.م ويظهر أنه تم عند وفاة بوخوس الأول حوالي عام 70 ق.م وربما استولى على نوميديا الغربية ماسينيسا جديد، انظر جوليان ج1 ص163.

16 نفس المرجع ص163.

وبعد ذلك زحف سبيون بكتائبه الثمانية، وكان يوبا قد تحرك بدوره ولكن الملك بوخوس الثاني وستيوس قاما بهجوم فجائي وفتحا مدينة قيرتا، فاضطر يوبا الأول إلى الرجوع على أعقابه، وحاصر أنصار بومبيوس في روسبينا، وكانت النجدة والمؤونة تصله بصعوبة، وأخيرا أسعفه أسطوله بالمدد[17] وأصبح عدد جنده 33 ألف، وعندئذ فكر القيصر في الهجوم، فبادر في الرحيل وعسكر على حافة نجد يشرف من الشرق على سهول أوزتة (uzitta) وفر على بعد ثمانية كيلومترات من الجنوب الغربي من رسبينا. وكان سبيون أنزل فيها جيوشه التي عززها يوبا الأول بثلاث كتائب، وظن القيصر أنه في إمكانه أن يتوغل[18] في اتجاه أكار (aggar)، ربما يوجد موقعها قرب قصور الساف على بعد10 كلم من الجنوب الغربي من المهدية و34 كلم من الجنوب الشرقي من معسكر القيصر وحاول هذا الأخير الهجوم مرات عديدة[19] ناوشته فيها خيالة لابينوس.

وهكذا لم يستطع القيصر منذ مدة أربعة أشهر من نزوله إفريقيا[20]، أن يستدرج سيبيون ويحمله على الدخول في المعركة وجها لوجه.

وأمام هذا الوضع، أصبح القيصر في حالة سيئة، فإستمال رجلا إيطاليا يدعى ستيوس إلى مناصرته، وراسل القيصر بوخوس الثاني وبوغود يطلب منهما مساعدته بالهجوم على مملكة يوبا لتحريرها وضمها إليهم، وعلم يوبا الأول بالموقف المحرج الذي هو فيه القيصر ولكن خفي عليه ما دبره القيصر مع بوخوس، ولم يكتم يوبا سروره من ضعف عدوه، ورأى أنه قرب اليوم الموعود[21] الذي يتمتع فيه سبيون، وهو إستقلال المملكة النوميدية الفتية (أي

17. نفس المرجع ص163.

18. جوليان ص166

19. نفس المرجع، جوليان ج1 ص167

20. نفس المرجع جوليان ج1 ص167

21. نفس المرجع جوليان ج1 ص167

المملكة الجزائرية القديمة) فجمع يوبا جيشا فخما وخيولا وفيلة وأخذ يجول بها في البوادي والناس ينضمون إليه حتى كان قريبا من المنستير، وخلال هذه الفترة بالذات ذهب سنتيوس إلى بوغود مستعينا به واتحد مع بوخوس الثاني الملك الموريطاني وفتحوا قيرتا (أي قسنطينة) بعد حصار غير طويل، وفتحوا أيضا حصنا (غير معلوم لدى المؤرخين)[22] عثروا فيه على مؤن وذخائر وأسلحة يوبا الأول وأحرقوا مدنا عديدة.

بينما يوبا في حالة طرب من إقتراب الإنتصار النهائي على الرومان، إذ بلغه ما حل بمملكته، فأخذ كل ما عنده من جيش وعتاد وفيلة لإدراك أهل مملكته.

وأحس سبيون بالضعف بعد ذهاب يوبا عنه، فطلب منه العودة مع تأكيده له على وعده السابق، فلم يجبه لإشتغاله بمحاربة المهاجمين على مملكته، وقد يكون من وراء ذلك أن يترك الرومان يقاتلون، ثم يقوم يوبا بمحاربة الغالب ويطهر الوطن النوميدي من السيطرة الرومانية، ولكن سبيون ألح على يوبا الأول فقبل في الأخير نجدته وترك من ورائه قائده صبورة لمقابلة ستيوس وبوخوس ودخل يوبا المعركة مع سبيون ضد جيش القيصر بألف من المشاة و800 فارس و30 فيلا ونزل في العشرين من ديسمبر بجيشه مع جيش سبيون. وفي التاسع والعشرين وقعت معركة شديدة بين الخصمين.

وفي جانفي 46 ق.م فر جنود كثيرون من الجيتوليين كان تعدادهم ألفا إلى القيصر، ويعود سبب إنضمامهم هذا أن ضباط هذه الفرقة كان لآبائهم أراض انتزعها منهم هيمبصال، والد يوبا الأول وأعادها لهم مريوس زوج عمة القيصر، وجرت بعد ذلك عدة معارك كانت خاتمتها واقعة طبسوس، التي اشتد فيها القتال وانتهت بفوز القيصر وفرار أعيان حزب بمبيوس[23].

22. الميلي تاريخ الجزائر ج1 ص216

23 نفس المرجع ص216

ذهب يوبا بعدها إلى مدينته الثانية، ونقل إليها نسائه وذريته وأمواله وجمع بالقرب من المدينة حطبا كثيرا وأقسم لئن غلبه القيصر ليحرقن بذلك الحطب أهل المدينة ثم أهله ونفسه، فلما بلغها أغلقوا في وجهه الأبواب مخافة أن ينفذ فيهم قسمه[24].

أظلمت الدنيا في وجه يوبا وضاقت عليه الأرض، فأقام وليمة أكثر فيها من الأكل وشرب الخمر ثم أغمد سيفه في جسمه وبقي يصارع الموت، فأمر أحد عبيده بقتله فقتله.

وهكذا إنتهت حياة يوبا بعدما كاد أن يحقق غايته ويطرد الرومان من إفريقيا.

---

24. نفس المرجع ص216

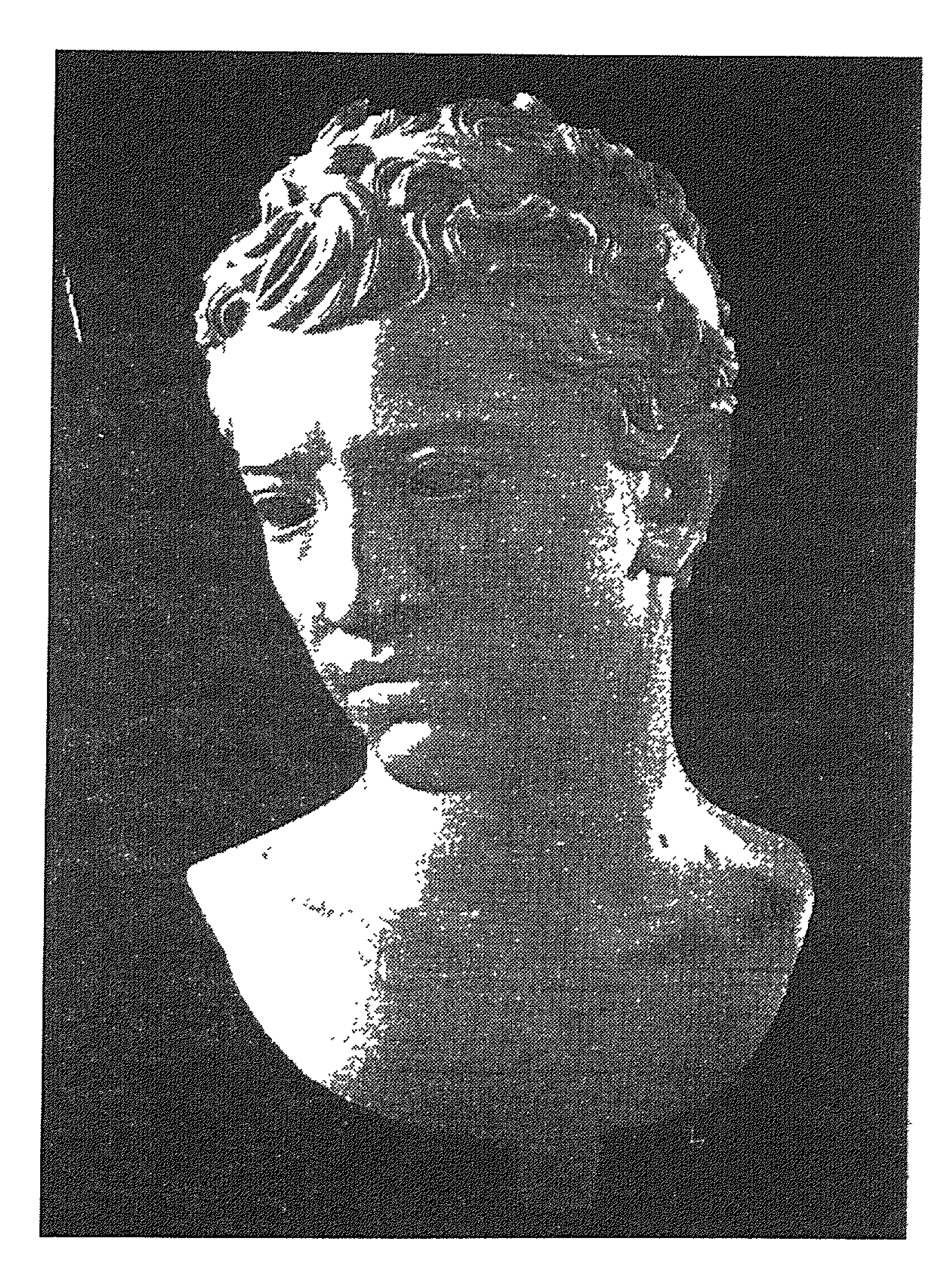
الفصل السادس

يوبا الثاني الملك العالم

المشهد السياسي قبل اعتلاء يوبا الثاني العرش

إن المشهد الجديد لمسرح الأحداث السياسية في إفريقيا الشمالية بعد سقوط قرطاجة وبسط الهيمنة الرومانية على بلاد نوميديا، فنلاحظ ظهور مآسي سياسية وبشكل دراماتيكي إن صح التعبير وهذا بسبب دخول الملوك النوميديين من أحفاد ماسينيسا في حلبة الصراع على السلطة بين الحكام الرومان، وفي هذا المضمار بالذات كان يوبا الأول ضحية وكبش فداء لهذا الصراع المرير على السلطة، فلم يقبل الهزيمة النكراء والخضوع إلى حزب مناوئ له فانتحر، كما سلف ذكره، ولم يعد له أثر بعد حين.

أما عرابيون إبن ماسينيسا فقد لاذ بالفرار نحو إسبانيا، وبعد ذلك قام القيصر بإلغاء وجود مملكتين وهما مملكة الماسيلس في الشرق الجزائري ونعني بذلك شرق نوميديا، مع العلم أن الإقامة الملكية في قيرتا جرى استثناؤها بحيث أصبحت بمثابة إقليم جديد لإفريقيا (Une Province d'Afrique procansulaire) هذا مع العلم أن المؤرخ سالوست قد تم تنصيبه كأول حاكم مع تعيينه برتبة بروقنصل، أما مملكة ماستينيسا فإن جزءا منها ضم إلى مدينة قيرتا وناحيتها المجاورة، التي أصبحت متكونة من إمارة يحكمها الحاكم الروماني سيتيوس Sittus هذا القائد العسكري الذي قدم يد المساعدة بشكل قوي إلى القيصر. ومما يجب ذكره في هذا الشأن أن المدن النوميدية الأربعة وهي قيرتا



يوبا الثاني، متحف الرباط.

(قسنطينة)، روسيكاد (سكيكدة)، قولو (القل) ومليف (الميلة) كانت هذه المدن تمثل نظاما كونفدير اليا والتي بقيت محافظة لمدة طويلة بقانون ونظام إداري خاص في وقت لاحق إبان وجود الإقليم الروماني لنوميديا.

ولكن هذه المملكة النوميدية التي جرى تقسيمها على يد الرومان، فإن الجزء الأكبر منها استفاد منه ملك موريطانيا يوبا الثاني الذي اختار التحالف مع القيصر.

أما مملكة بوخوس الثاني فكانت محاذية لأمبساجا (وهو الوادي الكبير بقسنطينة، الذي بقي بمثابة الحدود مابين موريطانيا ونوميديا حتى نهاية الفترة القديمة)، وكانت بمثابة حدود طبيعية. وفي الجنوب النوميدي فإن الجيتوليين كانوا في وضع خاص جعلهم في إطار حكم ذاتي خاص.

وإن تسوية القيصر للأوضاع والأمور السياسية في إفريقيا وكان من نتائجه أنه وقع تغيير جذري في السياسة الرومانية التي رسمت منهجا مبنيا على اللعبة المدروسة (par le jeu calculé) لصدمة الطموح السياسي (والجري وراء الكرسي) الموجود لدى الموريين والنوميديين وكذا عدم الإستقرار الذي يطبع التطور السياسي، وهكذا فإن روما وضعت أقدامها وبسطت هيمنتها على الأراضي الواقعة ما بعد إقليم التراب القرطاجي، ونعني بذلك البلاد النوميدية، وكان لروما مصالح قوية وكبيرة[1] ومباشرة في المماليك النوميدية السابقة مما جعلها (أي روما) لا تتوانى في خدمة هذه المصالح الحيوية بلا هوادة.

لقد طبع الإحتلال الروماني لإفريقيا بطابع العنف على مدى سنين عديدة، ونلاحظ أن الحاكم الروماني سيتيوس لم يتمتع بما فيه الكفاية بإمارته النوميدية، فقام عريبون بالمطالبة في حقه مملكة أبيه ماستينيسا، ودحر عريبون الملك بوخوس الثاني نحو الغرب بلا شك إلى منطقة الصومام.

1. Voir : Serge Laucel, l'Algerie antique, entre deux mondes, P67

هذا مع العلم أن المتصارعين على السلطة في الجمهورية الرومانية قد تم ذلك بنهاية متوقعة في إيطاليا، وكان لذلك صدى في الإقليم الروماني الجديد بإفريقيا الشمالية، حيث أن الحكام الرومان كانوا في حالة صراع حسب الحزب الذي ينتمي إليه الحاكم، وكان من نتائج ذلك أن العاهل النوميدي عرابيون توفي خلال هذه المجابهات مما سمح بنهاية آخر عاهل أو أمير نوميدي مستقل، واستغل بوخوس هذه الفرصة السانحة من أجل استرجاع أراضيه المغتصبة.

أما فيما يخص موريطانيا فإن الملك الموري بوقود قد ناصر حزب القيصر، ومعنى هذا أنه أصبح في صف المنتصرين ولكن بعد ذلك بمدة زمنية نلاحظ أن عرابيون تحالف مع أنطوان ضد أوكتافيوس وأوغسطس بينما بقي بوخوس مخلصا لهما، وعندما تم عزل بوقود بقي مخلصا لأكتافيوس، مما جعل بوقود يبسط نفوذه وسلطته على أراض شاسعة من موريطانيا الموحدة الممتدة من سواحل المحيط الأطلسي إلى لامبساغا من ناحية سطيف أي شمال شرق مدينة سطيف وذلك حتى وفاته سنة 33 ق.م.

وظهرت مستعمرات رومانية في عهد أوكتافيوس- أوغست ما بين عام 33 ق.م و 25 ق.م في مدن كانت موجودة من قبل، ونستطيع أن نذكر منها على سبيل المثال إيجيلجيلي (جيجل) وصلداي (بجاية) وروسازوس (أزفون) وروسكوناي Rusguniae (برج البحري) وقونوقو (قورايا) وكرتينا (تنس)، وهناك مستعمرات رومانية حتى في منطقة الصومام وشرشال القيصرية التي تتحكم في مناطق عبور سهل الشلف علاوة على مستعمرات رومانية أخرى في زوكوبار (مليانة) وأكواكاليداي وهي حمام ريغة. مع العلم أن زوكوبار السالف ذكرها تعتبر محورا رئيسيا متساوية مع الساحل من حيث أهميتها كمعبر رئيسي هام وللإتصال والربط بين شرق وغرب البلاد.

على كل حال بعد مدة وجيزة عرفت موريطانيا عهدا سعيدا مع آخر أسرة ملكية ذاع صيتها في جميع أنحاء المعمورة في العهد القديم، وكانت هذه

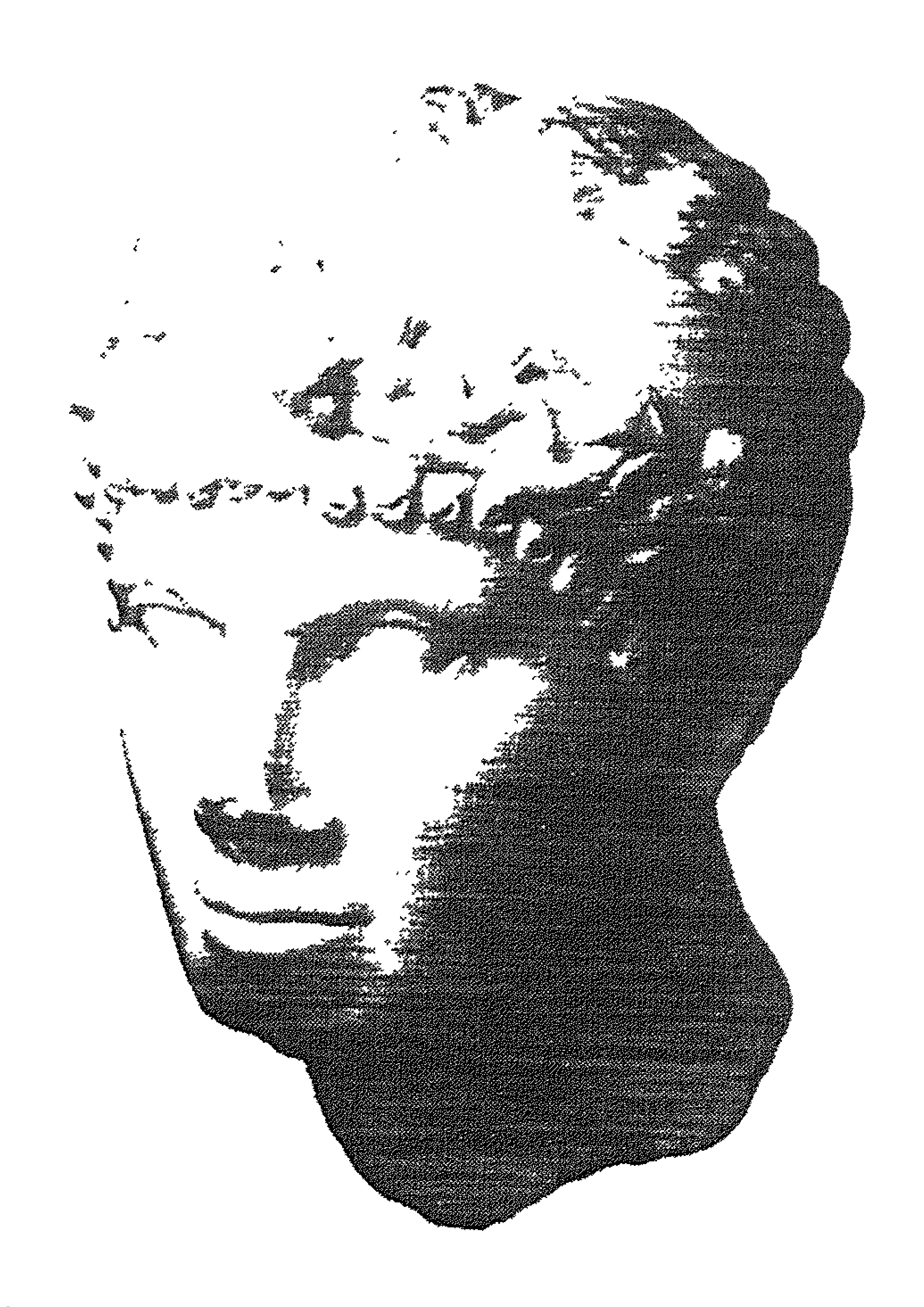
الأسرة تسير على منوال الطريقة الهلنيستية (La mode hellénistique) ونعني بذلك أسرة يوبا الثاني الذي هو موضوع مقامنا هذا.

ويرى المؤرخ الفرنسي لانسيل Serge Lancel أن روما لم تنتقم من الأبناء بسبب أخطاء ارتكبها آباؤهم، ففي عام 46 ق.م شاهد ابن يوبا الأول- الذي إنهزم وإنتحر- إنتصار القيصر، ثم بقي في إيطاليا حيث تلقى تعليما أميريا من النوع الراقي وكان في رفقته مواطنة رومانية من طينة خاصة ألا وهي كليوباترا سيلني ابنة كليوباترا ملكة مصر الفرعونية، وكان في هذه المدرسة الأميرية بعض الفتيان النبلاء الرومان من جملتهم بعض الشرقيين الذين وفدوا[2] على الخصوص مثل الفتى يوبا الثاني كرهائن وطلبة علم والذين يصبحون في يوم من الأيام ببلدانهم الأصلية أمراء يكنون الطاعة والولاء لروما.

يوبا الثاني : الملك المثقف

تبوأ يوبا الثاني مكانة سامية على مسرح التاريخ كملك عالم ومثقف، قلما نجد مثله في العالم القديم وعاش يوبا الثاني ما بين 52 ق.م وتوفي في 24 بعد الميلاد، وكان هذا الملك الشاب نموذجا لنوميدي عاش غريبا عن وطنه ردحا من الزمن في روما التي تربى فيها على يد أخت أوكتافيوس في ظل حياة أسرة عمها الرخاء، تشاء الأقدار أن يتزوج يوبا كليوباترا سليني إبنة كليوباترا الكبرى زوجة أنطونيو الشهير، وسمح أغسطس لنفسه بإرجاع المملكة النوميدية إلى يوبا الثاني، لأنه كان يعتقد أن التربية التي حصل عليها في صغره وريعان شبابه بروما وتأثير الثقافة يعدان كضمان لإخلاصه للرابطة التي تربط الملك النوميدي بروما. ونال يوبا الثاني تقدير وإحترام معاصريه بمساهماته الفكرية، ومن شدة إعجاب أهل أثينا في اليونان بفكره ومساهماته في عالم المعرفة الإنسانية، أقاموا ليوبا الثاني تمثالا عظيما إعترافا بجميله، وكان يوبا

2. Serge Lancel, Les moments antiques de l'Algérie P65



تمثال مصنوع من الرخام كليوبترا سيليني وهي ابنة كليوبترا الكبرى ملكة مصر، مع العلم أن كليوبترا سيلني زوجة يوبا الثاني.

التمثال موجود في متحف شرشال.

يكتب باللغة اليونانية، ربما بسبب تأثير كليوباترا سليني زوجته التي لها صلة قرابة بإغريق الإسكندرية، أي البطالمة وأقيم تمثال ليوبا مجاذيا مكتبة جامعية توجد بمركب رياضي بأثينا.

ويرى بلوتارك، أن يوبا الثاني يعد أحسن مؤرخ من ملوك العالم القديم ويورد أن يوبا يعد واحدا من كبار المؤرخين العلماء في عالم الثقافة الإغريقية، ولا غرابة في ذلك لأن كتاباته كانت باللغة الإغريقية كما سلف ذكره.

وهناك من يرى أن أصل تكوينه الثقافي القوي المركز، يعود إلى تنوع ثقافاته وتركيزه على دراسة الآداب، ويعود الفضل في ثقافته الواسعة إلى إقامته الطويلة في إيطاليا التي كانت أحد مراكز الإشعاع الفكري والعلمي في العالم القديم، وكانت تشاطرها في ذلك قرطاجة وبابل والإسكندرية ويول والجزائر وقيرتا.

وكان ليوبا الثاني ثقافة واسعة وإحاطة عميقة بعلوم كثيرة من ضمنها التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وتاريخ الفنون والشعر بمختلف أصنافه والنحو، وكان شديد القراءة وحب الإطلاع على علوم عصره ويعرف عن ميله الكبير لجمع الألفاظ والمصطلحات الأجنبية التي نجد معانيها في لغات عالمية كاللغة العربية، لغة الجزيرة العربية ولغة الهند ولغة الكلام في آسيا الصغرى ولغة أهل إثيوبيا أي الحبشة.

ذخائر مكتبة يوبا

وكانت ليوبا الثاني مكتبة عامرة رائدة، إعتمد عليها في إخراج أعمال فكرية وكتابات علمية إلى حيز الوجود، وجند من أجل هذا الغرض مجموعة كبيرة من النساخين والمساعدين الثقاة، وسخر أمواله الملكية في سبيل ما كان يصبو إليه من تأليف وإنتاج فكري سامي سأتناوله في بحثي هذا.

وكان ليوبا الثاني حب كبير وميل شديد لإقتناء المخطوطات النادرة، فيذكر أنه إشترى مخطوط فيثاغورس اليوناني الشهير بثمن غال جدا.



كليوبترا الكبرى - كليوبترا السابعة ملكة مصر
التي اخضعت في حبها القيصر، وبعده انطوان.

وكانت مكتبته الكبيرة تحتوي على مجموعة كبيرة من المخطوطات والمؤلفات اليونانية، أي أن قسمها الأكبر كان مكتوبا بهذه اللغة العالمية، ولكن في نفس الوقت كانت تحتوي على مخطوطات لاتينية وقرطاجية.

وقرأ يوبا الثاني نصا أصليا عن رحلة حنون القرطاجي لسواحل القارة الإفريقية الغربية، وهناك شاهد على هذه الرحلة آثارا كتابية وجدت في قبر قرطاجي، وإعتمد يوبا الثاني على الترجمة الإغريقية لهذه الوثيقة واطلع يوبا الثاني على معلومات تخص منبع النيل وجدها في كتب قرطاجية كانت في حوزة جده هيمبصال[3]، مع العلم أن الكتب القرطاجية كان لها مكانة واعتبار في مكتبة يوبا الأول العامرة ولا يستبعد أن الملك النوميدي هذا حصل على هذه الكتب البونية عن طريق مجلس الشيوخ الروماني، الذي ترك الكتب القرطاجية إلى أمراء من عائلة يوبا مباشرة.

يوبا ووادي النيل

ومن الأخطاء الجغرافية التي ارتكبها يوبا الثاني[4] أنه إعتقد أن نهر النيل يوجد منبعه الأول في المغرب الأقصى، وبالتحديد في جبال جنوب المغرب، واعتمد في نظريته هذه على وجود التماسيح وبعض النباتات التي كانت موجودة في وادي النيل وضفافه، ونجدها أيضا في بعض الأنهار التي تنبع من جبال الأطلس المغربية، بعث لهذا الغرض جماعة من كبار العلماء، ولاسيما أن المعلومات المتعلقة بأصل منبع النيل وجدها في الكتب القرطاجية. واليونانيون هم أيضا كانوا يعتقدون نفس الإعتقاد الذي ذهب إليه القرطاجيون، وهذا ما كان يراه بروماتوس ساموس[5] اليوناني، وبعدما أرسل

---

3. يورد لنا المؤرخون القدماء والكتاب منهم أثيني الإغريقي أن يوبا الثاني نظم شعرا بسبب ممثل تراجيديا لم يقم بدوره كما يجب، ويعود السبب إلى إكثاره من الأكل حتى البطنة. انظر أثيني P343 ATHENEE 31, VII

4. ستيفان، يوبا الثاني عالم وكاتب المجلة الإغريقية عدد 68/عام1927 ص169-170

5. نفس المرجع ص169-170

يوبا الثاني علماء للبحث في أصل منبع النيل بالمغرب الأقصى...خرج بنتيجة، ذكرها بلين القديم في إحدى نصوصه فقال:

وحسب ما قام يوبا الثاني من بحث واستقصاء، فإن النيل يوجد منبعه في إحدى جبال موريطانيا وليس بعيدا عن المحيط الأطلسي وهو يكون بحيرة تدعى نليد.

أما أخبار يوبا الثاني حول وجود التماسيح في الأنهار المغربية أخبار صحيحة، فالمؤرخ الفرنسي قزال الذي عاش في أوائل القرن العشرين يؤكد وجود تماسيح رآها في قلب الصحراء الجزائرية (تاريخ إفريقيا الشمالية القديم ج2 ص(66-67).

وبعث يوبا الثاني بعض العلماء للبحث والإستقصاء في جزر الكناري بالمحيط الأطلسي، وقد توجهوا إلى جزر الكناري بالمحيط الأطلسي، وعبروا إلى منطقة مدينة الصويرة المغربية التي كانت بالقرب منها جزيرة تدعى موقادور Mogador ووجد المبعوثون في جزر الكناري العسل والفواكه والتمور، وهناك بعض الجزر الهامة التي لم يزرها مبعوثو يوبا الثاني، فبقيت مجهولة لدى القدماء مثل قوميرا وهييرو وبالما الغربية[6].

وكان يوبا الثاني يعتقد أنه يمكن الدوران حول القارة الإفريقية انطلاقا من منطقة البحر الأحمر، ولكن معلومات يوبا الجغرافية المتعلقة بالمواقع الجغرافية في خريطة إفريقيا الشمالية في أقصى الغرب تنقصها الثقة، ولكن حدود معرفته الجغرافية يعود إلى الثقافة الجغرافية العامة السائدة في العالم القديم، فهي معلومات محدودة وغير ثابتة.

ويوبا الثاني كان شديد القراءة والإطلاع وأدى به ذلك إلى تأليف تسع مؤلفات، وكل تآليفه نشرها باللغة اليونانية، ولم يصلنا أي كتاب من هذه

6. انظر بلين Plince l'ancien XII 32، الذي ورد في مقال قزال/المجلة الإفريقية لعام 1927 عدد68 صفحة 170.

المجموعة ويا أسفاه، ولكن هناك معلومات هامة تخص مضامين كتبه هذه، نجدها في كتب بلين، وبلوتارك وأثيني[7]، وهناك مقتطفات عديدة ليوبا، وهي عبارة عن أعمال جد مقتضبة، ولكنها مفيدة من ناحية المعلومات.وهناك كتاب نفيس ليوبا الثاني يدعى ليبيكا، ولكنه ضاع مع الأسف، وقد ذكر فيه معلومات هامة ونجهل متى تم نشر هذا الكتاب، ويحتوي مؤلف ليبيكا على ثلاث مواد هي:

الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وعلم الأساطير (ميتولوجيا)[8]، وجاء ذكر رحلة حنون في كتابه هذا الذي يشرح فيه شواطئ القارة الإفريقية، وذكر فيه جبال الأطلس الموجودة في الجزائر والمغرب، وفي هذا السفر الممتاز، نجد نتائج أبحاثه عن وادي النيل وجزر الكناري[9] وفيه معلومات تخص الفيلة التي كانت موجودة بكثرة في موريطانيا، ويشرح يوبا الثاني في كتابه هذا كيف أن وسائل الدفاع عند الفيل تكمن في قرونه وليس في أسنانه، ويذكر أن الفيل يعمر طويلا، ويمتاز بذكاء حاد وعجيب، ويستطيع أن يعالج نفسه عندما يصاب بجروح[10].

ومن صفات الفيل الحنان والعطف وجاء ذكر الأسود في كتاب ليبيكا ومن صفتهم حب الإنتقام ضد كل عمل عدائي عاجلا أم آجلا، ومن تآليف يوبا الثاني الممتازة كتاب عربيكا وهو يخص العرب والجزيرة العربية، وهذه الإلتفاتة من يوبا تبرهن على تعلقه بأصوله العربية الأولى الموجودة في قلب الجزيرة العربية وإلا ماذا يعني إختياره للكتابة عن الجزيرة العربية بالذات...؟

ويتحدث في كتابه عربيكا Arabica عن الموقع الجغرافي لبلاد العرب والشواطئ والسواحل التي تحيط شبه الجزيرة العربية كالخليج الفارسي

7. نفس المرجع قزال مقالة يوبا الثاني ص170.

8. نفس المرجع ص182.

9. نفس المرجع ص182.

10. نفس المرجع ص182.

والمحيط الهندي، ويتحدث فيه عن بلاد الحبشة (إثيوبيا)، وجنوب مصر وبداية نهر النيل في الجنوب، ورغم أن الكتاب يعد دراسة جغرافية محضة، فإنه يحتوي على أمور أخرى خارج نطاق الجغرافيا، فهناك دراسات تخص الإتنوغرافيا وأصول وعادات وتقاليد شعوب عديدة، ويعرج على عالم الحيوانات فيذكر ثعابين أثيوبيا ونمل الهند.

ومات يوبا الثاني في عام أربعة وعشرين ميلادية، وقد خلد اسمه في عالم الفكر والتاريخ الجزائري القديم بل تاريخ إفريقيا الشمالية القديم.

وهناك من يرى أن يوبا الثاني تحولت في عهد طريقه تسيير شؤون المملكة من النظام الفردي إلى نظام ازدواجي، ونعني بذلك أن زوجته كليوباترا سليني شاركته في الحكم الملكي، تبعا للعادات المصرية التي تقر على ضرورة مشاركة الزوجة لزوجها في الحكم فنالت كليوباترا زوجة يوبا لقب ملكة موريطانيا، وهذا ما ظهر على العملات المحلية التي ضربت وسكت باسمها.

وجعل يوبا الثاني مدينة يول (شرشال) ودعاها القيصرية عاصمة سياسية، وهي مدينة ساحلية تحيطها الجبال من الشرق والسهول من الغرب. أما منحدراتها فتكثر فيها أشجار الزيتون والكروم، وأصلح يوبا الثاني ميناء بول وكان لهذه المدينة أهمية ثقافية واقتصادية، وطور مدنا أخرى مثل مدينة سلا وبناسا (Banasa et Sala) ومدينة فولوبيليس (Volubilis) التي كانت تعتبر عاصمة ملكية ثانية ليوبا الثاني.

وكان يساعده في تسيير شؤون الحكم مجلس هام يتكون من عدد كبير من الموظفين والخدام والحراس والمساعدين، وكان يستعمل اللغة الإغريقية كلغة تخاطب بجانب اللغة اللاتينية، مع العلم أن اللغة الإغريقية كانت لغة عالمية يومئذ، مثل اللغة الإنجليزية في وقتنا الحاضر.

وكان قصر يوبا الثاني يعج بالكتاب والمهندسين والأطباء لمساعدته في كتاباته وأبحاثه وسير شؤون قصره. ويقال أن معظم خدم القصر كانوا من

أصل إغريقي، وهذا ما أكدته الكتابات المختلفة ليوبا الثاني، والتي تحمل معظمها الأسماء الإغريقية، مثل اسم الطبيب أفوربي (Euphorbe) الذي أشفى الإمبراطور أغسطس. ولم تكن هناك هيئة سياسية توحد جميع قبائل المملكة، فكان بعضها على شكل رحل والبعض الآخر مستقرا. أما القبائل الأخرى فكانت بمثابة قبائل متحدة.

وحسب العادة الإغريقية، فإن كل قبيلة كانت تتمتع بتنظيم خاص، ولديها الحرية الكبيرة في تسيير شؤونها، بينما في المدن فقد كان التنظيم السياسي بها يشبه النظام الفينيقي الذي يتكون من مجلس يساهم في تنشيطه حاكم يسمونه شوفيط (جمع شوفيطيم)، وهو لقب يمنح للحكام الفينيقيين والقرطاجيين.

يوبا الثاني وثورات النوميديين

وإهتم يوبا الثاني بالجيش، فكون فرقا عسكرية من الموريين وجمع أعدادا كبيرة من الفيلة وهذا لتوطيد الأمن، وجهز يوبا الثاني أسطولا بحريا، واستطاع إرسال حملات إلى جزر الكناري.

وجهز يوبا حملة عسكريةلإخضاع المتمردين من قبائل جدالة، التي كانت تسكن شرق الجزائر وجنوب تونس، لكن جيوشه انهزمت، مما اضطره إلى الإستعانة بالرومان، فجاءت فرقة عسكرية بقيادة كرنيليوس (Cornelius) يساعده يوبا الثاني، فحققوا انتصارا باهرا على قبائل جدالة وتحصل هذا القائد الروماني على لقب شرفي ونال يوبا نفس الوسام الشرفي ومنحه مجلس الشيوخ عصا من العاج وتاجا مطرزا، وهذا يبين لنا مدى الخطر الذي أصبحت تمثله قبائل جدالة على الوجود الروماني في شمال إفريقيا.

أما الثورة الثانية، فقامت بها قبائل المسالمس سنة 17 ميلادية، وكانت ثورة ضد الرومان، ولهذا أرسل الإمبراطور الروماني برسالة إلى مجلس الشيوخ، يشرح فيها وضعية إفريقيا المتدهورة وطلب من المجلس معاقبة قائد الثورة،

وكان يتزعمها قائد نوميدي جزائري يدعى تاكفاريناس، الذي عمل من قبل كمساعد في الجيش الروماني، لكنه فر وجمع حوله بعض النوميديين الناقمين على الملك يوبا الثاني وحلفائه الرومان، وسرعان ما تحول هذا القائد النوميدي من رئيس عصابة لصوص إلى قائد حربي لقبائل المسالمس وامتدت ثورته إلى سيرتا الصغرى وموريطانيا غربا، ومست ثورته المراكز الحساسة للرومان، وساعد يوبا الثاني الرومان على قمع هذه الثورة، ودامت سبع سنوات من سنة 17م إلى سنة 24م عرف فيها تاكفاريناس النصر والإنهزام، حتى جاء البروقنصل كورنيليوس في عهد بطليموس، الذي قدم مساعدات كبيرة انتهت بإلقاء القبض على تاكفاريناس.

كان يوبا الثاني يسك عملات ذهبية وفضية تبرز مراحل حياته منذ بداية حكمه حتى أواخر عهد حكمه، وتم سكها باللغة اللاتينية وتحمل صوره، بالإضافة إلى صور الفيل الذي هو رمز لإفريقيا، والجدي تخليدا لمربيه أغسطس أو تحمل صور العصا والعاج وهي أشكال تدل على النصر وعلى التشريفات التي حصل عليها من مجلس الشيوخ الروماني.

المساهمات العلمية والثقافية ليوبا الثاني

حسب ما أورده بلينيوس القديم فقد اشتهر يوبا الثاني بأخبار مضامين مؤلفاته العلمية أكثر من شهرته كملك إعتلى حكم موريطانيا القيصرية وهي يول (شرشال) كان له أبلغ الأثر في عالم الأدب والتاريخ، فنال مدح وتقدير معاصريه وأقطاب المفكرين الذين جاءوا بعده، ولا غرابة أن ينال يوبا الثاني إعجاب الإثينيين (من أهل أثينا) لأن ذخائره العلمية هي التي جعلته يحتل مكانة مرموقة كعالم مشهور.

ويرى بلوتارك أن يوبا الثاني يعد أكبر مؤرخ ضمن الملوك في العالم القديم، ويعد من أكبر المؤرخين أكثر علما ودراية لدى الإغريق.

صورة يوبا في التماثيل

إن يوبا الثاني في عهده ملكا على موريطانيا القيصرية كان جميل الطلعة ووسيم الوجه، وهذا ما يظهره ويؤكده التمثال البرونزي لمحياه الذي عثر عليه في مدينة فولوبيليس Volubilis عاصمته الثانية بالقرب من مدينة مكناس المغربية، ويوجد هذا التمثال بمتحف مدينة الرباط المغربية، وهناك من يرى أن صورة يوبا الثاني تذكرنا بملامح حنبعل عندما كان في مقتبل العمر في ريعان شبابه.

على كل حال فإذا ما قارنا بين التمثال الرخامي ليوبا الثاني[11] الموجود في متحف شرشال، والتمثال الموجود في اللوفر بباريس، وكذا تمثاله الآخر المحفوظ في كوبنهاجن (الدنمارك) في كليبتوتيك ني كريسبيرج (Carbsberg Glyptothèque ny) فيعتقد المؤرخ لانسيل أنه لا يوجد تناقض فيما يخص الملامح، حيث نجد نفس البنية المتعلقة بالوجه، فإذا استثنينا تفاصيل أنف يوبا الثاني الذي هو مكسر في التماثيل الرخامية (ونستثني من ذلك تمثال متحف الرباط الذي نجد فيه الأنف سليما غير مكسر) فنلاحظ أن يوبا في التماثيل السالف ذكرها، له فم مملوء بعض الشيء مع شفتين غليظتين، وذقن نازل يميل إلى النزول، وقد تم نحت ذلك بطريقة شديدة نسبيا أو ثقيلة نسبيا، وتوجد هذه الخصوصية المتعلقة بأسفل الوجه، فنشاهدها في صورة يوبا الثاني في النقود التي سكت في عهده المزدهر. وكما هو معلوم أن هذا الملك المبجل ينتمي إلى عائلة ماسينسن، فهو جده، ولكن إذا تمعنا في سلطته الملكية نلاحظ أنه ملك اعتلى العرش بدون أن له سلطة فعلية، فقد كان الإمبراطور أوغسطس هو الذي كان يدير الشؤون السياسية ويقوم بحماية المستعمرات الرومانية التي أنشأت في أراضي مملكة يوبا الثاني.

وكان للملك خصوم أشداء وهم الجيتوليون الذين كانوا قبائل رعوية متنقلة من الغرب إلى الشرق في الأراضي الرعوية الشاسعة للمنطقة البربرية في الجنوب النوميدي أي بداية الإمتداد الصحراوي ومعناه جنوب التل

11. Id Ibid Serge Lancel P66

الصحراوي، وكان الجيتوليون يقومون بغزوات وهجومات في تراب موريطانيا بصفة خطيرة في بداية القرن الأول الميلادي، ففي العام السادس الميلادي قام بروقنصل الروماني يرد هجوم جيتولي، ونتيجة جهوده المبذولة فقد كرم بأوسمة وميدالية النصر، وتم تكريم الملك يوبا الثاني أيضا، والشاهد على ذلك مسكوكات عهده التي تشهد على هذا الأمر.

أما فيما يخص تسيير إدارة المملكة الموريطانية فمعلوماتنا في هذا الشأن ضئيلة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكن هناك بعض الحقائق التي تؤكد أن أوغسطس هو الذي كان يراقب الإدارة المحلية التابعة لمملكة يوبا، ونعني بذلك موريطانيا القيصرية، ويتعلق بهذا الأمر التسيير الفعلي[12] لرعايا الملك. وهناك شاهد على ذلك نقيشة قام بتحليلها وعلق عليها المؤرخ الكبير منير بوشناقي وبول ألبير فيفري وهي تخص قشلة قريبة من تيبازة (Castellum) proche de Tipaza) وهذه النقيشة تعود إلى عهد الإمبراطور سبتيم سيفير، وهي تفيد أن جالية مورية وهي التوديدانس (Les Thudedanses) وقد وزع الملك[13]أراضي فلاحية واستفادوا من الإعفاء من الضريبة، زلكن لكي يتم تنفيذ ذلك عمليا كان لا بد من موافقة وتوقيع أوغسطس على هذا الإجراء.

عاش يوبا الثاني حياة سعيدة وبعيدة عن كل عنف، أحسن مما عاشه أجداده من حروب متتالية نغصت عليهم طيب العيش، وكانت الأجواء ملائمة له من أجل التألق والإبداع في مختلف فنون المعرفة[14].

وإن إسهاماته في الحياة الثقافية فتح له آفاق اكتساب اللغة القرطاجية، وهي البونية علاوة على إجادته للغة الإغريقية التي تعرف عليها عندما كان صبيا في مدينة قيرتا (قسنطينة في الشرق الجزائري)، ثم تعلم اللغة اللاتينية في روما عند مقامه فيها والتي كان يحتقرها نسبيا[15].

---

12. Serge Lancel, les moments antiques de l'Algerie, Juba II, P66
13. Id Ibid, P67
14. Id Ibid Serge Lancel P67
15. Id Ibid. P67

وكان الملك يوبا الثاني مولوعا بالبحث في اشتقاق الكلمات الفيلولوجيا La Philologie حول كلمات لاتينية من أصل إغريقي، وكان من عادته أيضا جمع المصطلحات التي تعود أصلا إلى لغات سامية[16] أو لغات هندوأوروبية، وهندية وعربية، وكذا المشتقات التي جاءت واشتقت من لغات آسيا الصغرى وإثيوبيا، وأورد بلينيوس نقلا عن يوبا الثاني كلمات ومفردات مستعملة عند سكان إفريقيا الشمالية، منهم مصطلح مساريس Massaris وتعني عنب الكروم البرية حسب ما أورده بلين (بلينويس) Pline XXIV , 115 (ence de ronce-
Pline XII , 133 Celthis Jujubier : XIII, 104; Zura (sem

وهناك شذرات من كتب يوبا، بعضها مختصرات في الغالب قصيرة، ولا يذكر المصدر أحيانا، فهناك وصف للعصافير أورده ديوديم Diodéme.

وكتب يوبا كتابا حول فن الرسم والرسامين وهو يحتوي على ثمان مؤلفات، ولكن لم يصلنا عنها سوى مادة ضئيلة لا تشفي الغليل[17].

وفي عهد الإمبراطور سبتيم سيفر Séptime Sivére فإن إليان Elien حسب ما رواه قزال[18]، ذكر في كتابه (إي إليان) في سياق حديثه عن الحيوانات، أورد يوبا الثاني في الفصول المتعلقة بالفيلة وحيوانات أخرى من إفريقيا الشمالية، على كل حال فإن الأعمال الكاملة ليوبا الثاني تقلصت مع مر الزمن، وهكذا فإن المجد الأدبي الذي اشتهر به[19] الملك النوميدي ضعف ثم اندثر فلم يبق أي أثر يذكر من مؤلفاته في العصور القديمة ما عدا الأخبار المتعلقة بمضامين كتاباته التي وصلتنا بواسطة مؤرخين متأخرين أوردوا لنا مادة هامة حول إنتاجه الفكري والعلمي.

---

16 لقد إستعمل قزال في مقالته كلمة اللغات البربرية (barbares) وليس (berbers) ولهذا استعملت اللغات السامية عوض لغات الهمج كما هو مذكور في النص الفرنسي الذي لم أتقيد به في النص الفرنسي لكتاب تاريخ ملوك البربر. انظر: Gsell Id Ibid Jub P17

17. Id Ibid, Gsell Stéphane, Juba RA, P194

18. Id Ibid, P194

19. Id Ibid, P194

خاتمة الكتاب

أخيرا، إن المصيبة الكبرى التي ابتلي بها الجزائريون أنهم لا يؤرخون كثيرا لأبطالهم وزعمائهم ولا يعود ذلك لأسباب سياسية، بل لعوامل فكرية بحتة، حيث أن الجزائريين لا يكتبون كثيرا بعكس ما هو سائد في العالم العربي وغيره، وربما من أسباب ذلك الظروف التاريخية العصيبة التي أحجمت الجزائريين عن الكتابة، ولكن لا بد من بعث الحوافز الضرورية من أجل كتابة تاريخ وطني جديد، ولاسيما أن الظرف الحالي مساعد كل المساعدة من أجل تفتح القرائح والهمم، لأننا نعيش اليوم عهد الحريات ومسار الديموقراطية الحقيقية رغم بعض النقائص.

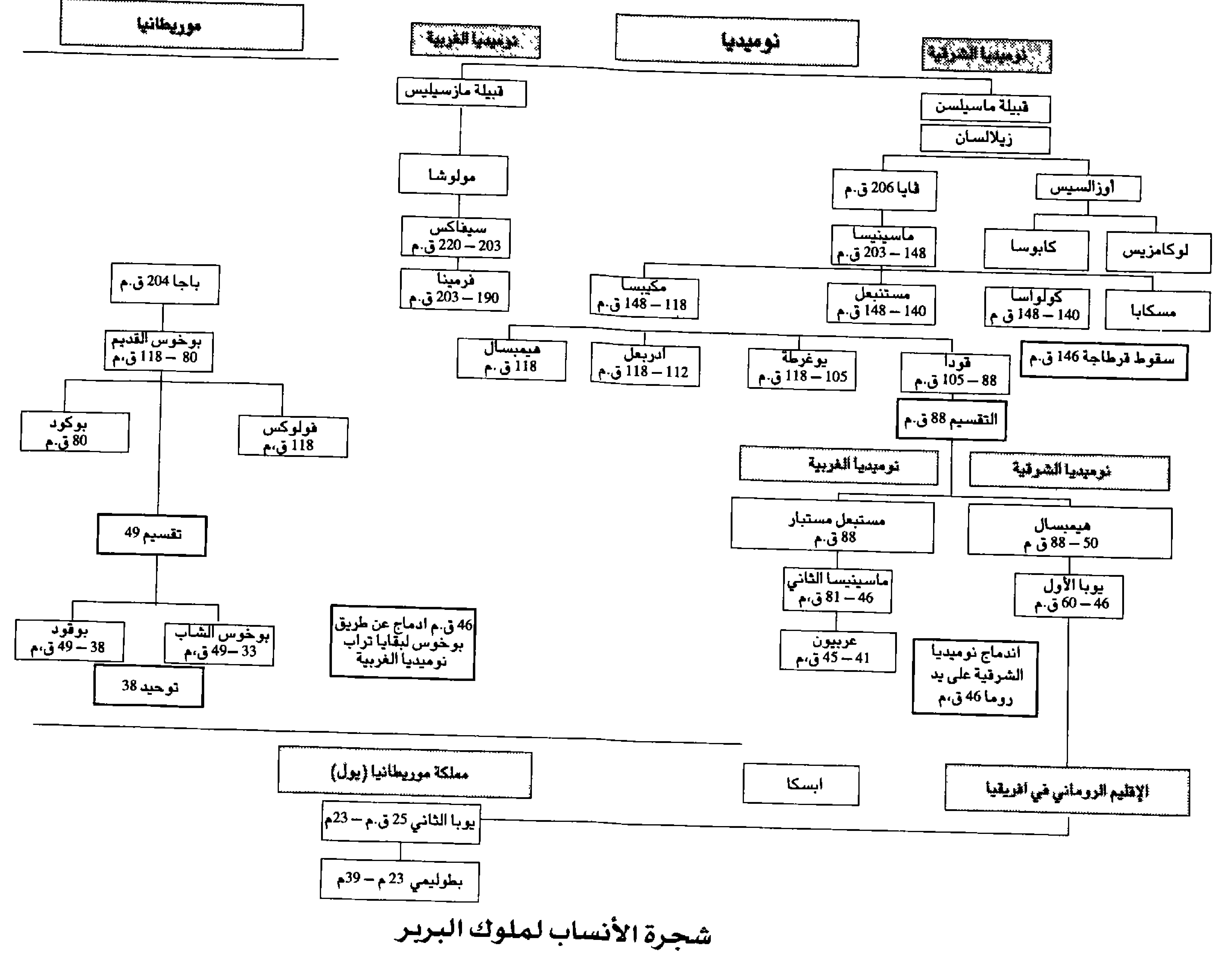
ومن مساوئ الكتابة الفرنسية لتاريخ الجزائر القديم، ومنها ما كتبه ستيفان قزال، الذي ألف "تاريخ إفريقيا الشمالية القديم"، اعتمد بصفة مطلقة على المصادر الإغريقية اللاتينية اعتمادا مطلقا ولم يحاول الإعتماد على المصادر المحلية والعربية كمصادر تاريخية هامة.

فهل ما كتبه قزال، وكوتيي وشارل أندري جوليان حول الملوك الوطنيين القدماء، هل يعد ذلك تاريخا صحيحا وخاليا من الشوائب والأخطاء التاريخية..؟


لا أعتقد أنهم أصابوا، لأن نظرتهم لماسينيسا ويوغرطة وسيفاكس لها صبغة منحازة لكل ما هو روماني ويخدم الثقافة الرومانية، ولعل هذا هو

السبب في تسليطهم أضواء كاشفة على حياة وكفاح ماسينيسا جنبا إلى جنب مع روما، بينما يوغرطة مع الأسف الشديدلم يجد نفس الشهرة عند المؤرخين الفرنسيين، لأنه قاوم وحارب الإستعمار والمحتل الروماني فوقف نفس المواقف التي وقفها الداي حسين، آخر دايات الجزائر في خلافه مع فرنسا 1827-1830، والأمير عبد القادر الجزائري والشيخ المقراني، والشيخ عمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، ومحمد الخامس الذي نفي إلى مدغشقر بسبب رفضه للهيمنة الإستعمارية الفرنسية. وكل هؤلاء كانت لهم مواقف متعارضة مع مصالح الغرب الأوروبي.

انتهى



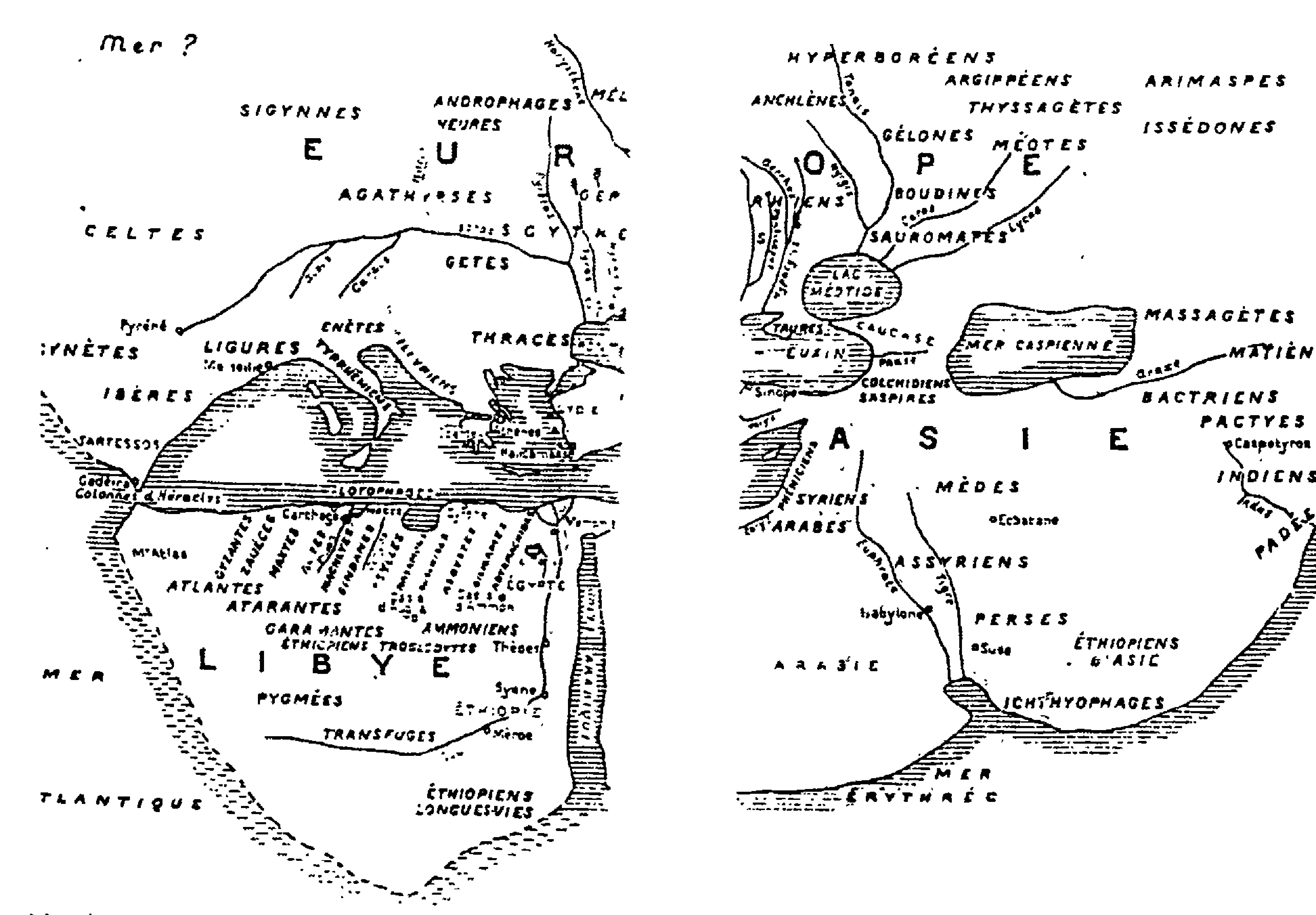
شجرة الأنساب لملوك البربر



خريطة الممالك النوميدية في 150 ق.م



خريطة تبين أهم مواقع المدن التاريخية والاستراتيجية في افريقيا الشمالية إبان العهد الفنيقي والقرطاجي وفي الحوض الشمالي للمتوسط الغربي بما في ذلك الجزر الإيطالية وجزر البليار.



خريطة من إبداع المؤرخ الإغريقي هيرودوت لجغرافية العالم القديم في عهده القرن الخامس قبل الميلاد

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العبر والمبتدأ والخبر فيما تقدم من الأمم من العرب والبربر، ج7، بيروت.
- أبي الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، من الفرنسية إلى العربية اعتمادا على ترجمة لاتينية أصلية ترجمت إلى الفرنسية، نشر الإمارات العربية، بيروت.
- شارل أندري جوليان "تاريخ إفريقيا الشمالية"، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة – تونس-
- أحمد توفيق المدني، تاريخ قرطاجنة في أربعة عصور، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- عبد الرحمان الجيلالي "تاريخ الجزائر العام" ج1/الطبعة الرابعة 1980 دار الثقافة-بيروت-
- محمد فنتر "يوغرطة" – تونس- 1971
- أحمد صفر مدنية "المغرب العربي عبر العصور" دار النشر بوسلامة – تونس- 1959
- محمد الميلي "الجزائر في ضوء التاريخ الجزائري"، نشر المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع والترجمة – الجزائر-

- عبد القادر جغلول "مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط"، كتاب مترجم من الفرنسية إلى العربية - بيروت-
- رشيد الناضوري "تاريخ المغرب الكبير - الجزء الأول"- دار النهضة العربية - بيروت- 1981
- نفس المؤلف "دراسة لبعض العناصر الحضارية في تراث الشرق الأدنى القديم في المراحل السابقة للتاريخ" - الإسكندرية - 1960
- محمد عبد العزيز بن عبد الله "الحضارات المغربية" -الرباط -
- عبد الله كنون "مدخل إلى تاريخ المغرب" - تطوان - 1958
- فيليب حتى "تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين"، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت- 1958
- محمد محي الدين المشرفي "إفريقيا الشمالية في العصر القديم" - الرباط - 1960
- مبارك بن محمد الميلي "تاريخ الجزائر في القديم والحديث - ج1" المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر- طبعة جديدة 1989
- مجلة الثقافة، مقالة أحمد السليماني، عنوانها: "من أجل رؤية جديدة لتاريخنا" الصادرة في مجلة الثقافة، العدد 98، ص59-60-61-62-63-64، مارس، أبريل 1987 - الجزائر-
- الدكتور عبد الله العروي "مجمل تاريخ المغرب" - الرباط- 1989
- مجلة التاريخ الصادرة عن مركز الدراسات التاريخية، العدد 24 يتضمن تعقيبا لما كتبته كجواب على تعقيب للأستاذ حارش حول مقالي في التاريخ القديم، بعنوان: من أجل كتابة موضوعية لتاريخ الجزائر والمغرب في القديم، والصادر في العدد 21 من نفس المجلة/ انظر تعقيبي هذا في العدد 24 من ص83 إلى ص102.

- د. محمد البشير الشنيتي "قضية السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة/ مجلة التاريخ الصادرة عن معهد التاريخ بجامعة الجزائر، العدد الخامس 1408هـ 1988-م.

المجلات والدوريات:

- مجلة ليبيكا الصادرة عن المركز الوطني للدراسات فيما قبل التاريخ والأنتروبولوجيا، الجزائر. (الصادرة بالفرنسية)
- مجلة الثقافة الصادرة عن وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر.
- مجلة التاريخ الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية.
- مجلة دراسات تاريخية الصادرة عن معهد التاريخ بجامعة الجزائر.
- مجلة سيرتا الصادرة في قسنطينة.
- مجلة دراسات تاريخية الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب في دمشق.

المراجع الأجنبية

* Marie Claude chamla; les Algériens et les population Arabes - berbères - Mémoires du CRAPE - Alger 1974.
* Polibuisi, XV, 18.1, London 1960.
* La revue Aficaine n68- Alger -1927
* 3e trimestre
* pline l'ancien XIII-32
* Muller, fragmenta historicorum graecoru, 84 fragemnta n24
* Pline; V-16 XXV -78 (OPERA EDITION KUHN)
* pline, IX,115, Juba Tradis Arabicis
* athénée, sur Juba 11,31: P.343
* Mounir Bouchenaki le Mousolé royal Mauritancien, sned, Alger, 1970.
* Dr Mahfoud Kedache, L'Algerie dans l'antiquité, SNED now edition,Alger 1990
* Doute: magie et relegion en Afrique du Nord-Paris 1909

* SALLUSTE, la guerre du Jugurtha, bellum Jugurthinum en latin, stephane Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, tomes 5-6-et 7 Paris 1918

* Charles André Julien , histoire de l'Afrique du nor, tome 1, Paris.

* Ahmed Hocine Esslimani les rapports entre Carthage et les libyens, thèse de Doctorat soutenue a Nice le 5 janvier 1981, faculte des lettres; universite de NICE

* Cagnat; R; Carthage, Timagad , tebessa et les villles antique de l'Afrique du Nord 1909.

* Cambridge Ancient History. Vol IV chapter 11 cintas P: la ceramique punque TUNIS 1950.

* Conteneau H: Manuel d'acheologie Orientale A: Picard Paris 1927.

* Dussaud R: les découvertes de Ras Chamra PARIS 1941.

* Gauthier E.F. le passé de l'Afirque du nord, Paris 1912.

* Me : Burney: C.B the stone age of Nort Afica . London.

* Pline, les livres II), IIV)géographie de l'Afrique et de l'Asie III) et X. (OPERA-édition KUHN).

* Tite live, XXX,12.

* Plutarque, césar, 55.

* Plutarque , de Mulieribus claris Vegetaux exotiques XIV et XV (Arbres fruitières XXV plantes medicinales) XXV, XX VII, XXXI, XXXX11(reucedes devres).

* Athénée, (Fragments) 75.

* Corneille - Acte V), scène VII), vers 1783.

* Gsell stéphane, Jaba II), savant et écrivain, revue africaine n° 68 année 1927 nouvelle édition O.P.U Alger, 1986.

* Gesll séphane, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord tome 1, P 501.

* Serge lancel, l'Algérie antique édition Mangés Paris 2003.

* Jean pierre la porte Syphax et son royaume titre d'une étude dans l'ouvrage; l'Algérie au temps des royaumes numides SOMOGY édition d'ART, Paris 2003.

* CINTASP : La céramique punique, Tunis, 1950.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس :

طبع هذا الكتاب في جانفي 2007
بمطابع دار القصبة للنشر
حي سعيد حمدين، رقم 6، 16012، الجزائر.
الهاتف : 11 / 10 79 54 021 الفاكس : 77 72 54 021
الموقع الإلكتروني : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2007.

أحمد السليماني

تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة



أحمد السليماني من مواليد مدينة الجديدة المغربية في الخمسينيات من القرن العشرين، من أب جزائري وأم مغربية. تابع دراسته الابتدائية والثانوية في مدينة الدار البيضاء، والرباط، وفاس.

حاصل على ليسانس تاريخ من جامعة الجزائر ودكتوراه من جامعة نيس الفرنسية.

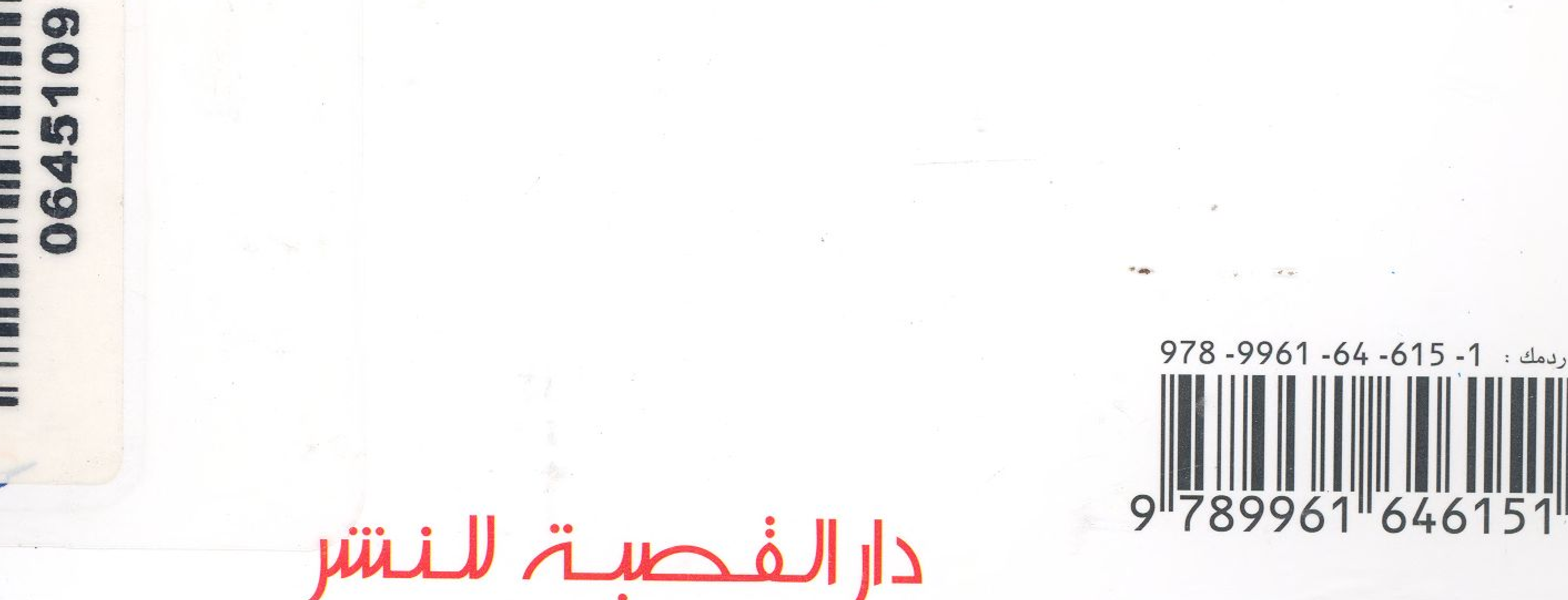
أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر منذ بداية الثمانينيات.

رئيس فرقة بحث حول الرصيد الحضاري الفينيقي البوني في الجزائر القديمة.

له العديد من المؤلفات منها : النظام السياسي الجزائري في العصر العثماني، تاريخ المدن الجزائرية، العلاقات القرطاجية اللوبية القديمة، تاريخ مدينة الجزائر، ودراسات أخرى قيد الطبع.

يتعلق هذا الكتاب بملوك البربر الذين اعتلوا حكم بلاد نوميديا (وهي الجزائر القديمة). أجل إنه تاريخ مشاهير الملوك الذين وصلوا إلى الحكم بصفة وراثية، وتركوا بصمات بارزة وآثار بليغة في حركة ومسيرة التاريخ القديم بمنظور جدلي، وهم سيفاكس، ماسينيسا، يوغورطة، يوبا الأول ويوبا الثاني.

لقد عملت قرطاجة وروما بكل ما في وسعهما من أجل التحالف مع بعض هؤلاء الملوك لترجيح كفة ميزان القوى في غرب حوض المتوسط وأغلب هؤلاء الملوك برزوا في الاستراتيجية الحربية والمساهمات العلمية والفكرية والدبلوماسية حيث دخلوا في هذا الشأن إلى التاريخ من بابه الواسع كما يقال. إن هذا الكتاب يكشف قضايا هامة منيرة من تاريخ الجزائر القديم.



ردمك : 1- 615- 64- 9961- 978
9 789961 646151

دار القصبة للنشر